أوليفر ساكس

OLIVER SACKS

أريد ساقاً أقف عليها!





أريد ساقاً أقف عليها!

أريد ساقاً أقف عليها!

تأليف
أوليفر ساكس

ترجمة
رفيف غدار

مراجعة وتحرير
مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
A Leg to Stand On
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
PICADOR
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى

1430 هـ - 2009 م

ردمك 978-9953-87-748-8



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

المحتويات

يدّعــي الطبّ دوماً أنّ التجربة هي الاختبار لعمليّاته، وبالتالي فقد كـــان أفلاطون محقّاً عندما قال إنه من أجل أن يصبح المرء طبيباً حقيقــياً، لا بــدّ أن يكــون قد اختبر جميع الأمراض التي يأمل أن يعالجها وجميع الحوادث والحالات التي سيشخّصها... سأثق برجلٍ كهــذا، لأنّ البقــيّة يرشــدوننا مــثل الشخص الذي يرسم البحار والصخور والموانئ بينما يجلس إلى طاولته، ويدير سفينته بأمانٍ تام. اقذِف به في المشهد الحقيقي وستجده لا يعرف أين يبدأ.

مونتيني، "مقالات 3.13"

مقدِّمة

كتب ثوم غون بقوّة عن "مناسبات" الشِّعر. والعلم له مناسباته بقدر الفنّ تماماً: أحياناً استعارة حلم مثل ثعابين كيكيول، وأحياناً تشبيه، مثل تفاحة نيوتن، وأحياناً حدثٌ واقعي، أو الشيء في حدّ ذاته، الذي ينفجر فجأةً في أهمية غير مُتخيَّلة، مثل صرخة أرخميدس في حوض استحمامه "وجدها!". كلّ مناسبة كتلك هي بمثابة "وجدها!" أو بمثابة تجلٍّ.

إنّ مناسبات الطبّ هي وليدة المرض، أو الإصابة، أو المرضى. أما مناسبة هذا الكتاب فهي إصابة غريبة، أو على الأقلّ إصابة ذات تأثيرات غريبة، ناتجة عن حادثة في جبلٍ في النرويج. كطبيب محترف، لم أختبر نفسي أبداً كمريضٍ من قبل، ووجدت نفسي، بعد الحادثة، طبيباً ومريضاً في الوقت نفسه. كنت قد تخيّلتُ أنّ إصابتي (جرحاً وخيماً، ولكن غير معقّد لعضلات وأعصاب إحدى ساقَيّ) بسيطة وروتينية، ولكنني دُهِشت لعمق تأثيراتها: نوع من شلل وانسلاخ الساق، اختزلها إلى مجرّد "شيء" بدا غير مرتبط بي: هاوية من التأثيرات العجيبة وحتى المرعبة. لم أستطع أن أفهم هذه التأثيرات وانتابتني مخاوف بأنني لن أستردّ عافيتي أبداً. وجدت الهاوية رعباً والشفاء عجباً، وأصبح لديّ، منذ ذلك الحين، إحساسٌ أعمق بالرعب والعجب الكامنَين خلف الحياة والمحجوبَين، إن صحّ التعبير، خلف المظهر السطحي المعتاد للصحة.

متحيّـــراً ومنـــــزعجاً بشدّة من هذه التأثيرات الغريبة – الرنين المركزي، إذا جاز التعبير، لإصابة محيطية – ومفتقداً إلى طمأنة ملائمة من طبيبـــي الخاص، فقد كتبتُ إلى العالم النفسي العصبـــي البارز أ. ر. لوريا في موسكو، الذي كتب إليّ في سياق ردّه: "إنّ متلازمات كـــتلك ربما هي شائعة، ولكنها موصوفة على نحوٍ نادر جداً". عندما شُـــفيت من إصابتي، وعدتُ إلى ممارسة مهنتي كطبيب، وجدت أنّ ما قالـــه كان صحيحاً بالفعل. لقد عاينتُ على مدى السنوات بضع مـــئات مـــن المرضى عانوا جميعاً من اضطّرابات غريبة "لصورة الجسم *body-image*" و"أنا الجسم *body-ego*" محدّدة عصبياً ومشابهة أساساً لإصـــابتي. إنني أناقش هذا العمل ونتائجه بإيجاز في الفصل الأخير من هذا الكتاب، وآمل أنني سأنشر دراسةً مفصّلة عن الموضوع لاحقاً.

هكـــذا فـــإنّ العديد من الأفكار الرئيسية تتمازج هنا: الظواهر النفـــسية العصبية والوجودية الخاصة المرتبطة بإصابتي وشفائي، ومسألة كـــوني مريـــضاً وعودتي لاحقاً إلى العالم الخارجي، وتعقيدات علاقة الطبـــيب والمـــريض وصـــعوبات الحوار بينهما، لا سيّما في أمرٍ محيِّر لكلـــيهما، وتطبـــيق اكتشافاتي على مجموعةٍ كبيرة من المرضى، وتأمُّل نتـــيجة ومعنى تلك الاكتشافات؛ وقد قاد كلّ ذلك في النهاية إلى نقدٍ لعلـــم الأعـــصاب الحـــالي، وإلى رؤيةٍ لما قد يكون عليه علم أعصابٍ المستقبل.

لم يحـــدث هذا الأمر الأخير إلا بعد عدة سنوات لاحقة. كانت مناســـبته رحلة طويلة بالقطار من بوسطن إلى نيويورك، عندما قرأت كتاب هنري هيد الرائع، **دراسات في علم الأعصاب** (1920): كانت رحلـــته مشابهة جداً لرحلتي، بدءاً من دراسة التأثيرات لعصبٍ مقطوع فـــيه إلى المفاهيم الأعمّ لصورة الجسم وموسيقى الجسم. كُتِبَ فصلي

الأخـــير على جبلٍ في كوستاريكا، مكملاً سلسلة الأسفار التي بدأت على ذلك الجبل المشؤوم في النرويج.

لا تُعرَض مادة هذا الكتاب بصورة منهجية إلا في الفصل الأخير. يمكن اعتبار الكتاب نوعاً من الرواية العصبية أو القصة القصيرة، ولكنها قـــصة يكمن أساسها في التجربة الشخصية والحقيقة العصبية، مثل تلك الـــتي رواهـــا لنا لوريا في كتابه، **الرجل ذو العالم المحطّم**، وفي "سِيَره العصبية" الأخرى.

كـــان لـــوريا مصدرَ عونٍ وتشجيع عظيمين لي في كل هذا، حيث حظيت بفرصة التراسل معه من العام 1973 إلى حين وفاته في العـــام 1977. كـــان من ضمن ما كتبه لي: "أنت تكتشف حقلاً جديـــداً كلـــياً... انشر مشاهداتك رجاءً. سيفعل هذا شيئاً لتغيير المقاربة 'البيطرية' للاضطّرابات المحيطية، ولفتح الطريق لطبّ أعمق وأكثر إنسانية". إلى الراحل أ.ر. لوريا، الرائد لطبٍّ أحدث وأعمق، أهدي هذا الكتاب ذاكراً إياه بامتنان.

لندن ونيويورك
أوليفر ساكس

I. الجبل

لــيس في هذا العالم ذي الصمت اللامحدود أيّ شيء مضياف: فقد اســتقبل الزائــر علـــى مسؤوليته الخاصة، أو بالأحرى هو بالكاد استقبله، واحتمل اختراقه لمعاقله بأسلوب لا يبشّر بخير: لقد جعله مــدركاً لــتهديد القــوى العناصرية، وهو تهديد ليس عدائياً حتى، ولكنه مميت على نحوٍ مجرّد.

ثوماس مان، *الجبل السحري*

الجبل

بدأ نهار السبت الرابع والعشرين من الشهر كئيباً وملبّداً بالغيوم، ولكن كان هناك بشير بطقسٍ جيد لاحقاً خلال اليوم. بإمكاني أن أبدأ تسلّقي باكراً، عبر البساتين المنخفضة والغابات، مقدِّراً أنني سأصل إلى قمّــة الجبل عند الظهر. لعلّ الطقس حينها يكون صافياً، ويكون هناك منظــرٌ رائعٌ من القمّة: كلّ الجبال الأقلّ علوّاً تحيط بــي، منحدرةً إلى زقاق هاردينجر البحري، والزقاق البحري الرائع نفسه ظاهراً بأكمله. يقترح "التسلّق" عادةً صخوراً متدرّجة الارتفاع، وحبالاً. ولكنه هنا لم يكن كذلك. كان مجرّد طريق جبلي شديد الانحدار، ولهذا لم أتوقّع أي مــشاكل معيّنة أو صعوبات. كنت قوياً كالثور، في عنفوان الشباب، وتطلّعت إلى المشي باطمئنان وسرور.

سرعان ما وجدتُ نفسي أتأقلم وأخطو خطوات واسعة من دون صــعوبة أو تــردّد؛ خطوات واسعة مطواعة ومتأرجحة تجتاز الأرض بــسرعة. كنت قد بدأتُ قبل الفجر، وعند السابعة والنصف كنت قد صــعدت، ربما، حتى ستمئة متر تقريباً. كانت السدم الباكرة قد بدأت تنقشع بالفعل، ووصلتُ الآن إلى غابة صنوبرية تباطأت فيها خطواتي، بسبب الجذور العقدية في الطريق وأيضاً لأنني كنت مفتوناً بعالم الحياة النباتــية الــصغير المحتمــي في الغابة، وكنت أقف دوماً لأفحص نبتة سرخس جديدة، أو طحلباً، أو أشنة. مع ذلك، فقد كنت أجتاز الغابة بعــد التاســعة بقليل، ووصلت إلى المخروط العظيم الذي شكّل الجبل تماماً، وارتفع فوق الزقاق البحري حتى ألف وثمانمئة متر تقريباً. وشدّ ما

كانت دهشتي عندما وجدت سياجاً وبوابّة عند تلك النقطة، وكان على البوّابة لافتةٌ أكثر إدهاشاً:

احترس من الثور!

مكتوبةً باللغة النرويجية، وبالنسبة إلى أولئك الذين قد لا يُحسنون النرويجية، كانت هناك صورة مضحكة إلى حدٍّ ما لرجلٍ يُقذَف في الهواء.

توقّفت، وتفحّصت الصورة، وحككت رأسي. **ثور؟ على هذا الارتفاع**؟ ما الذي سيفعله ثورٌ هنا؟ أنا لم أرَ حتى خروفاً في المراعي والمزارع في الأسفل. ربما كانت دعابةً من نوعٍ ما، وُضِعت هناك من قِبَل القرويين، أو من قِبَل متسلّق سابق ذي روح دعابة غريبة. أو قد يكون هناك ثورٌ بالفعل يصطاف وسط مرعى جبلي شاسع، يقتات بالحشائش المتناثرة وقصار الأشجار. حسناً، يكفي تخميناً! وإلى الأمام نحو القمة! كانت قد تغيّرت التضاريس مرة أخرى. كانت الآن حجرية جداً مع جلاميد ضخمة هنا وهناك. ولكن كانت هناك أيضاً تربة فوقية خفيفة مُوحِلة في أماكن لأنّ الطقس كان ماطراً في الليل، ولكن مع الكثير من الحشائش والقليل من الشجيرات القصيرة؛ ما يكفي من العلف لحيوان لديه الجبل كله ليرعى. كان الطريق أكثر انحداراً بكثير ومُعلَّماً جيداً، بالرغم من أنني شعرت أنه لم يكن مستخدَماً كثيراً. لم تكن بالضبط بقعةً عامرةً من العالم، حيث لم أرَ أيّ زائرين غيري، وتخيّلت أنّ القرويين كانوا مشغولين جداً بالزراعة والصيد وأنشطة أخرى ولا وقت لديهم ليتسلّقوا الجبال المحلية من أجل المتعة فقط. أحسن وأحسن. كان الجبل كله لي! إلى الأمام، وإلى الأعلى، بالرغم من أنني لم أتمكّن من رؤية القمّة، ولكنني قدّرت بأنني قد صعدت

بالفعل 900 متر تقريباً، وإذا كان الطريق أمامي شديد الانحدار فقط من دون أن يكون عويصاً، فبإمكاني أن أبلغ القمّة عند الظهر، كما كنت قد خطّطت تماماً. هكذا شققت طريقي، محافظاً على خطوة سريعة بالرغم من درجة التحدّر، شاكراً الله على نشاطي وقوة احتمالي، وعلى ساقَيّ القويّتين المدرّبتَين على مدى سنوات من التمرين القاسي ورفع الأثقال في صالة الألعاب الرياضية. عضلتان رباعيتا الرؤوس قويتان، وجسدٌ قوي، ورِيح جيدة، وقدرة احتمال جيدة: كنت شاكراً لله على نعمه كلها. وإذا كنت أدفع نفسي إلى أعمال قوة بطولية، وسباحة طويلة، وتسلّق طويل، فقد كانت تلك طريقتي لأشكر الله، وأستخدم الجسد القوي الذي منحني إياه. وحوالى الساعة الحادية عشرة، وحين كانت السدم المتنقّلة تسمح لي بالرؤية، استطعت أن ألمح قمّة الجبل للمرة الأولى، ووجدت أنها لا تعلو عني كثيراً، وفكّرت في أنني **سأبلغ** القمّة عند الظهر. كانت لا تزال هناك بعض السدم الخفيفة المتشبّثة هنا وهناك، والتي كانت تحجب الجلاميد أحياناً بحيث يصعب اكتشافها. بين الحين والآخر، كان الجلمود المغطّى جزئياً بالسديم يبدو مثل حيوانٍ ضخم رابض، ولا يكشف عن طبيعته الحقيقية إلا عندما أقترب منه أكثر. كانت هناك لحظات غامضة أقف فيها متشكّكاً، بينما أتبيّن الأشكال المحجوبة أمامي... ولكن عندما رأيته، لم يكن غامضاً على الإطلاق!

لم تكن **الحقيقة** الواقعية لحظةً كتلك. كانت لحظةً خالية من كل غموض أو وهم. كنت قد خرجت لتوّي من السديم، وشرعت أمشي حول جلمود بحجم منزل، وقد التف الطريق حوله بصورةٍ منعتني من الرؤية أمامي، لقد كان عجزي عن الرؤية أمامي هو الذي أتاح **اللقاء**. لقد دستُ فعلياً على ما كان منبطحاً أمامي: حيوان ضخم جاثم على

الأرض ومحتلّ بالفعل الطريق بأكمله، لقد كانت الكتلة الدائرية للصخرة سبباً في حجب وجوده بالكامل. كان ذا رأسٍ ضخم أقرن، وجسمٍ ضخم أبيض، ووجه كبير لبني اللون. جثم في مكانه غير متأثّر بظهوري، هادئاً بإفراط، باستثناء أنه أدار وجهه الأبيض الضخم نحوي. في تلك اللحظة، **تغيّر**، أمام عينيّ، متحوِّلاً من رائع إلى رهيب تماماً. أخذ الوجه الضخم الأبيض ينتفخ وينتفخ، وأصبحت العينان المنتفختان الكبيرتان مشعّتَين بالخبث. وازداد الوجه ضخامةً طوال الوقت، حتى ظننت أنه سيدمّر الكون. أصبح الثور بشعاً، بشعاً إلى حدٍّ لا يُصدَّق، بشعاً في قوته، وضغينته، ومكره. وبدا الآن موسوماً بأبشع الصور في كل ملامحه. أصبح مسخاً أولاً، ثمّ أكثر من المسخ.

احتفظت برباطة جأشي، أو بشيء من رباطة الجأش، لدقيقة واحدة، قمت خلالها، "بشكلٍ طبيعي" تماماً كما لو كنت أستدير في نهاية تمشٍّ (نزهة)، بالالتفات بسرعة 180 درجة، وبدأت الهبوط بخفّة ورشاقة. لكن - كم هو رهيب! - انهارت أعصابي فجأة، وتملّكني الفزع، وركضت من أجل حياتي العزيزة؛ هربت بجنون، وعلى غير هدى أسفل الطريق المنحدر المُوحِل والزلِق، ضائعاً هنا وهناك في رُقَعٍ من الضباب. أعمى، مجنون، مذعور! ليس هناك شيء أسوأ في العالم، لا شيء أسوأ ولا شيء أكثر **خطراً**. لا يمكنني أن أقول بالضبط ماذا حدث. ففي فراري المتهوِّر أسفل الطريق الغرّار لا بدّ أنني دست صخرةً غير ثابتة، وقُذِفت في منتصف الهواء. يبدو الأمر كما لو أنّ هناك لحظة مفقودة من ذاكرتي، فهناك "قبل" و"بعد"، ولكن ليس هناك "بين". في لحظة كنت أركض مثل رجلٍ مجنون، واعياً للّهاث الثقيل ووقع الخطوات الثقيلة المكتومة، غير واثق إن كانت مني أو من الثور، وفي اللحظة التالية كنت ممدّداً عند قاعدة جرف حاد قصير لصخرة،

وقـد الـتفّت ساقي اليسرى بشكلٍ مخيف أسفل مني وشعرت بألمٍ في ركـبتي لم أعرف مثله قبلاً. أن تكون مفعماً بالقوة والحيوية في لحظة وعاجـزاً فعلياً في اللحظة التالية، وأن تكون في أوج صحتك في لحظة ومـشلولاً في اللحظة التالية، وأن تكون مالكاً لكل قواك وقدراتك في لحظـة وفاقـداً لها في اللحظة التالية، فإنّ تغيّراً كهذا، وفجائية كهذه، يصعب استيعابها، ويبحث العقل عن تفسيرات.

لقد صادفت هذه الظاهرة في بعضٍ من مرضاي الذين جُرحوا أو أصيبوا فجأة، وكنت الآن أختبرها في نفسي. كانت فكرتي الأولى هي: لقـد وقعـت حادثـة، وأنّ **شخصاً أعرفه** قد أصيب بشكلٍ خطير. ولاحقاً، اتّضح لي أنّ الضحية كانت **أنا**، وشعرت في الوقت نفسه أنّ إصابتي لم تكن خطيرة بالفعل. ومن أجل أن أُظهر أنها لم تكن خطيرة، نهـضت على قدمَيّ، أو بالأحرى **حاولت** ذلك، ولكنني انهرت خلال العملية، لأنّ الساق اليسرى كانت عرجاء كلياً ومترنّحة، وانهارت تحتي مـثل قطعـة من السباغيتي. لم تستطع أن تدعم ثقلي على الإطلاق، ولكـنها التوت أسفل مني إلى الخلف عند الركبة، ما جعلني أصرخ من الألم. لكـنّ خـوفي الرهيب لم يكن بسبب الألم بقدر ما كان بسبب انهـيار ركبتي الواهية العديمة التوتّر وعجزي التام عن منعه أو السيطرة علـيه، والـشلل الواضح للساق. ومن ثمّ تلاشى الرعب، الذي كان طاغياً جداً للحظة، إزاء "الموقف الاحترافي".

قلت لنفسي: "حسناً يا دكتور، هل تفحص الساق رجاءً؟".

على نحوٍ احترافي جداً، ومجرّد، وبصورة مفتقرة كلياً إلى الحنان، كما لـو كنت جرّاحاً أفحص "حالة"، أمسكت بالساق وفحصتها، لامساً إياها ومحـرّكها لهـذه الجهة وتلك. وغمغمت اكتشافاتي بصوتٍ عالٍ في أثناء قيامي بذلك، كما لو كنت أخاطب طلاباً في صفٍّ دراسي:

"لا حـــركة عند الركبة، أيها السادة، ولا حركة عند الورك... ستلاحظون أنّ العضلة الرباعية الرؤوس بأكملها قد مُزِّقت من الرَّضْفة. ولكن بالرغم من انفكاكها، إلا أنها لم تنكمش. هي فاقدة للتوتّر كلياً، مـــا قد يقترح إصابة العصب أيضاً. فقدت الرضفة ارتباطها الرئيسي، ويمكن تدويرها - هكذا! - مثل محمل الكريّات. وهي تنخلع بسهولة بـــسبب عـــدم وجود شيء يمسك بها. أما بالنسبة إلى الركبة نفسها"، وقمت هنا بالتوضيح العملي لكل نقطة في أثناء شرحي لها، "فنحن نجد حركة غير طبيعية، أو مدى حركة مرضياً إلى حدٍّ كبير. يمكن ثنيها من دون أي مقاومة على الإطلاق"، وقمت هنا يدوياً بثني عقب القدم إلى الردف، "ويمكن أيضاً أن تُمدّ بإفراط، من دون انخلاعٍ واضح" - لقد جعلـــتني كلـــتا الحـــركتين أصرخ عند توضيحهما عملياً. واستنتجت ملخِّـــصاً اكتشافاتي: "نعم أيها السادة، حالة مذهلة! تمزّق كامل لوتر العـــضلة الـــرباعية الرؤوس. العضلة مشلولة وضعيفة، ويرجّح إصابة العـــصب. مفصل ركبة غير مستقر، يبدو أنه ينخلع إلى الخلف، وربما مـــزّق الأربطة المتصالبة. لا يمكنني أن أقرّر بشأن إصابة العظم، ولكن يمكـــن بكل سهولة أن يكون هناك كسر عظمي واحد أو اثنين. هناك انتفاخ كبير، ربما سائل مفصلي ونسيجي، ولكن لا يمكن استثناء تمزّق الأوعية الدموية".

الـــتفتّ إلى جمهـــوري غير المرئي مبتسماً بسرور، كما لو كنت منتظـــراً تـــصفيقاً حـــاداً. ثمّ على نحوٍ مفاجئ، انهار الموقف *الاحترافي* والشخـــصية، وأدركت أنّ هذه "الحالة المذهلة" كانت أنا، **أنا نفسي**، عاجـــزاً علـــى نحوٍ مخيف، ومن المرجّح جداً أن أموت. كانت الساق نفـــسها عديمة النفع كلياً، أكثر مما لو كانت مكسورة. كنت وحدي تماماً، قرب قمة الجبل، في مكانٍ منعزل وغير مأهول من العالم. لم يكن

مكـــان وجودي معروفاً لأي أحد. وقد أخافني هذا الأمر أكثر من أي شيء آخر. يمكن أن أموت حيث أنا، ولن يعرف أحدٌ بذلك.

لم أشـــعر أبـــداً أنـــي وحيد، وضائع، ويائس، وبعيد عن نطاق المساعدة إلى هذا الحدّ. لم يكن قد خطر لي حتى تلك اللحظة كم كنت وحـــيداً علـــى نحوٍ مرعب وخطير. لم أشعر أنني "وحيد" عندما كنت أصـــعد الجبل (لا أشعر بالوحدة أبداً عندما أكون مستمتعاً بوقتي). و لم أشعر بالوحدة عندما كنت أفحص إصابتي (أدركت الآن حجم الراحة الـــتي مـــنحني إياها "الصفّ" المُتخيَّل). لكنّ إحساس الوحدة المخيف تملّكني الآن على نحوٍ مفاجئ، وتذكّرت أنّ أحدهم كان قد أخبرني قبل بضعة أيام عن "رجلٍ بريطاني أحمق" تسلّق هذا الجبل وحده قبل سَنتين، ووُجِد بعد أسبوع ميّتاً في العراء، بعد أن كسر ساقيه. كان المكان عند ارتفـــاعٍ، وخـــط عرض، حيث تنخفض درجة الحرارة في الليل تحت درجـــة التجمّد بكثير، حتى في شهر آب/أغسطس. لا بدّ أن يُعثَر عليّ مـــع الغـــروب وإلا لن أنجو أبداً. لا بدّ أن أهبط إلى مكانٍ أدنى، إذا أمكنني ذلك، لأنه في هذه الحالة هناك فرصة على الأقلّ لأن يراني أحد. بدأت أعلّل نفسي بالأمل، وفكّرت في أنني قد أتمكّن منفرداً من هبوط الجـــبل بأكملـــه، بساقٍ عديمة النفع. لم يكن إلا بعد وقتٍ طويل أن أدركـــت أنّ فكرتي هذهً كانت وهماً أُعزّي به نفسي. ومعً ذلك، إذا اســـتجمعت قِواي، وقمت بما أقدر عليه، فهناك فرصة جيدة بأنني قد أنجح في ذلك.

وجـــدتُ نفسي فجأةً هادئاً جداً ومتمالكاً نفسي. أولاً، عليّ أن أوجّـــه اهتمامـــي لساقي. وقد اكتشفت أنه بالرغم من أنّ أي حركة للركبة كانت مؤلمة بشدة وشنيعة فسيولوجياً، إلا أنني كنت مرتاحاً إلى حدٍّ ما طالما كانت الساق ممدّدة ومستندة إلى الأرض. لكن بسبب عدم

وجـــود عظم أو "تركيب داخلي" لإمساكها، فليس لديها حماية ضدّ الحـــركات السلبية العاجزة عند الركبة، وهي حركات قد يسبّبها أي "عـــدم استواء" في الأرض. ولهذا، فمن الواضح أنها بحاجة إلى تركيب خارجي، أو جبيرة.

هـــنا كان لإحدى خصوصياتي المزاجية دورٌ كبيرٌ في مساعدتي. جعلـــتني العـــادة، أكثر من أي شيء آخر، أحمل معي مظلّة تحت كل الظروف، وبدا من الطبيعي، أو التلقائي، أنني عندما أذهب في نـــزهة مـــشياً على الأقدام في طقسٍ سيئ (حتى أعلى جبل يزيد ارتفاعه عن الألـــف والستمئة متر)، يجب أن أحمل معي مظلّتي المتينة والموثوقة. عدا عن ذلك، فقد كانت مفيدة كعصا مشي في أثناء صعودي الجبل. الآن وجـــدتْ لحظتها الأروع - في تجبير ساقي - ومن دون جبيرة كهذه، بالكـــاد كـــان بإمكاني الحراك. نـــزعت المقبض، ومزّقت سترتي إلى جـــزءين. كـــان طول المظلّة مناسباً تماماً - وافقت المسلّة الثقيلة طول ســـاقي تقـــريباً - وقمـــت بتثبيتها في الموضع الملائم بشرائط قوية من السترة، بصلابة كافية لمنع أي ترنّح عاجز للركبة، ولكن ليس بإحكام شـــديد جداً يعيق الدورة الدموية. كانت قد مرّت الآن عشرون دقيقة تقريباً منذ إصابتي، أو ربما أقلّ. هل يمكن أن يكون كل هذا قد حدث في وقـــتٍ قـــصير إلى هذا الحدّ؟ نظرت إلى ساعتي لأرى إن كانت قد تـــوقّفت، ولكـــنّ عقرب الثواني كان يدور بانتظام تام. ليست هناك علاقـــة بـــين **وقتها** المجرّد والزمني **ووقتي** المؤلّف من لحظات شخصية، ولحظـــات حياتية، ولحظات حاسمة. عندما نظرت إلى القرص المدرّج علـــى الساعة، وافقت، في خيالي، بين حركة العقارب الدائرة بانتظام واســـتمرار - الانـــتظام الـــصارم للشمس في السماء - وهبوطي غير الواثـــق. لا يمكنني أن أفكّر في الاستعجال لأنّ ذلك يمكن أن ينهكني،

ولا يمكنني أن أفكّر في التواني، لأنّ ذلك سيكون أسوأ. لا بدّ أن أجد السرعة الملائمة، وأن أحافظ عليها بثبات.

وجــدت نفسي الآن أُبدي اهتماماً بامتنان بموجوداتي ومواردي، بيــنما لم أستطع قبل ذلك أن أهتمّ إلا بإصابتي. الحمد لله أنني لم أمزّق شرياناً داخلياً، أو وعاءً دموياً رئيسياً، حيث لم يكن هناك سوى انتفاخ صــغير حول الركبة ولا وجود لبرودة حقيقية أو تغيُّر في لون الساق. كانــت العضلة الرباعية الرؤوس مشلولة على ما يبدو، ولكنني لم أقم بأي فحصٍ عصبــي إضافي. لم يؤدِّ سقوطي إلى كسر عمودي الفقري أو جمجمتي، والحمد لله كان لا يزال لديّ ثلاثة أطراف سليمة، والطاقة والقــوة لأكافح، وهذا ما سأفعله بإذن الله. سيكون هذا كفاح حياتي؛ كفاح حياة المرء الذي هو كفاحٌ **من أجل** الحياة.

لم يكــن بإمكاني أن أستعجل؛ كان بوسعي أن آمل فقط. ولكنّ آمــالي ســتتحطّم إن لم يتمّ العثور عليّ مع حلول الظلام. نظرت مرةً أخــرى إلى ساعتي، وهو ما فعلته مرات عديدة في الساعات القلقة التي تلت ذلك. يكون المساء في هذه المناطق طويلاً إلى حدٍّ ما، ويبدأ الغسق حــوالى الــساعة السادسة، ويزداد عتمة وبرودة تدريجياً. عند الساعة السابعة والنصف يكون الجوّ بارداً إلى حدٍّ كبير، وتصعب الرؤية. لا بدّ أن يُعثَــر علــيّ حوالى الساعة الثامنة على الأكثر، لأنّ الظلام سيكون دامــساً عند الساعة الثامنة والنصف، وسيكون من المستحيل الرؤية أو المــتابعة. وبالــرغم من أنني قد أستطيع من خلال التمرين العنيف أن أصــمد خلال الليل، إلا أنّ ذلك كان احتمالاً صعباً بالفعل. وفكّرت للحظــة في كتاب تولستوي، *Master & Man*، ولكن لم يكن هناك أحدٌ معي لنُبقي بعضنا دافئَين. تمنّيت لو كان معي رفيقٌ فقط! خطرت لي الفكــرة فجأةً مرة أخرى، في كلمات من الكتاب المقدس لم أقرأها

مـــنذ طفـــولتي، و لم أتذكّرها عن قصد، أو أستحضرها في ذهني، على الإطـــلاق: "اثنان أفضل من واحد... لأنهما إذا وقعا، سيرفع أحدهما رفيقه. ولكن الويل له الذي هو وحده عندما يقع، لأنه ليس معه أحد ليساعده على النهوض".

بيـــنما كـــنت أجبِّر ساقي، وأُبقي نفسي مشغولاً، "نسيت" مرة أخرى أنّ الموت يقبع منتظراً. لكنني صرخت في داخلي مذكِّراً نفسي: "إنّ غريزة البقاء قويةٌ في داخلي. أريد أن أعيش، وإذا حالفني الحظ، قد أتمكّن من ذلك. لا أظنّ أنّ أجلي قد حان بعد". ومرة أخرى، أجابتني نفـــسي الواعظة بشكلٍ محايد ومُلتَبِس: "هناك فصل لكل شيء، ووقت لكل هدف تحت السماء. وقت للولادة، ووقت للموت. وقت للزرع ووقـــت...". لقـــد صادفتُ وضوحاً كهذا في مرضى كانوا يواجهون المـــوت، و لم يخفـــوا الحقيقة عن أنفسهم. هو وضوح غريب وعميق وعديم العاطفة، ليس بارداً ولا دافئاً، وليس قاسياً ولا متساهلاً، ولكنه **صـــادق** على نحوٍ تامّ وجميل ورهيب. كم عجبتُ، جاهلاً، من النهاية البسيطة **للحاج مراد** *Hadji Murad*، حين تدفّقت "الصور من دون مـــشاعر" عبر عقله عندما أصيب برصاصة مميتة. الآن، وجدتني، للمرة الأولى، أختبر الأمر نفسه شخصياً.

هـــذه الـــصور، والكلمات، والمشاعر الهامدة لم تعبر ذهني، كما يقولون، في (لمح البصر). بل أخذت وقتها - عدة دقائق على الأقل - وهـــو الوقت الذي كانت ستأخذه في الحقيقة، وليس في الحلم. كانت تـــأمّلات لا اســـتعجال فيها على الإطلاق، ولكنها لم تلهني أبداً عن مهامي. ما كان لأحد أن يراني (افتراضاً) "أتسلّى"، وما كان ليرى أيّ توقُّـــف. بل على العكس من ذلك، كان سيُعجَب بمظهري وسلوكي المعبِّرَين عن السرعة والعملية، وبالطريقة السريعة والكفوءة التي جبّرت

بها ساقي، وتحقّقت بإيجاز من كل شيء، وشرعت في النـــزول أسفل الجبل.

هكذا أكملت المسير، مستخدماً نوعاً من التنقّل لم أستخدمه أبداً مـــن قـــبل، يعـــتمد علـــى الإليتين والسيقان الثلاث. وهذا يعني أنني انــــزلقت للأســـفل علـــى ظهـــري، دافعاً أو مجذّفاً نفسي بذراعَيّ ومستخدماً ساقي السليمة للتوجيه، وللتوقُّف إذا لزم الأمر، أما الساق المتـــرنّحة المجبّـــرة فقد كانت معلّقة أمامي بلا إحساس. لم أضطّر إلى ابـــتكار هـــذه الطريقة غير المألوفة، وغير المسبوقة، وربما غير الطبيعية للتـــنقّل. لقد قمت بها من دون تفكير، وسرعان ما اعتدت عليها. ولو أنّ شخصاً رآني أجذّف بسرعة وقوة أسفل المنحدرات لقال: "آه، إنه متمرّسٌ بها. إنها طبيعةٌ ثانية له".

هكذا ليست هناك ضرورة **لتعليم** الفاقدين سيقانهم أن يستخدموا العكـــازات: فالأمـــر يـــأتي بشكلٍ "بديهي" و"طبيعي"، كما لو كان الشخص يتدرّب عليه سرِّياً طوال حياته. يملك الكائن الحي، أو الجهاز العـــصبـــي، ذخيرةً هائلة من "الحركات الحَيَليّة" و"الحركات الداعمة" من كل نوع؛ وهي استراتيجيات آلية كلياً تُحفظ "لوقت الحاجة". لن تكون لدينا فكرة عن الموارد **الكامنة** داخلنا، إذا لم نرها تُستَدعَى عند الحاجة.

هـــذا مـــا حدث معي. كان أسلوب تنقّل فعالاً إلى حدٍّ معقول، طالما أنّ الطريق انحدر باستمرار واستواء، ولم يكن شديد الانحدار. أما في أجـــزاء الطريق غير المستوية، فقد كان من شأن الساق اليسرى أن تعلـــق بنتوءات من جميع الأنواع – وقد بدت خرقاء كلياً في تجنّبها – وقـــد شتمتها عدة مرات "لغبائها" أو "عدم إحساسها". لقد وجدت بالفعـــل أنه متى ما أصبحت التضاريس صعبة، كان عليّ أن أُبقي عيني

على هذه الساق التي لم تكن فاقدة القوة فحسب، بل غبية أيضاً. أكثر ما كان يفزعني هو تلك الأجزاء من الطريق التي كانت زلِقة جداً أو منحدرة جداً، لأنه كان من الصعب تفادي الانزلاق عليها بشكلٍ لا يمكن السيطرة عليه تقريباً، وهو ما كان ينتهي بتخبُّط أو ارتطام يلوى الركبة بشكلٍ مؤلم جداً، ويكشف نقاط ضعف جبيرتي المرتجلة.

لقد خطر لي عند مرحلة معينة، وتحديداً بعد ارتطامٍ مغث، أن أصرخ طلباً للنجدة، وقد فعلت ذلك بتحرُّق، مُطلقاً صيحاتٍ عملاقية مدوّية تردّد صداها من قمة إلى أخرى. لكنّ الصوت المفاجئ في السكون أجفلني وأفزعني، ومن ثمّ انتابني خوفٌ مفاجئ بأنه قد يجفل الثور الذي كنت قد نسيته تماماً. كانت لديّ صورة مفزعة عن الحيوان، استُثيرت الآن بعنف، وتخيّلته مندفعاً أسفل الطريق ليقذفني أو يسحقني. مرتجفاً من الخوف، وبجهدٍ وألمٍ هائل، تدبّرت تجذيف نفسي إلى جانب الطريق حيث اختبأت خلف صخرة كبيرة. بقيت هناك لحوالى عشر دقائق، إلى أن أعاد الصمت المتواصل طمأنتي وكنت قادراً على الزحف مجدّداً ومواصلة هبوطي. لم أستطع أن أقرّر ما إذا كان صراخي عملاً أحمقَ واستفزازياً، أو أنّ حمقي يكمن، بدلاً من ذلك، في خوفي من الصراخ. ولكنني، على كل حال، قرّرت أن لا أصرخ مرة أخرى، وكلما تملكّتني الرغبة لفعل ذلك، كنت أمسك لساني عن الصراخ، متذكّراً أنني لا أزال في دائرة الثور حيث يحتفظ بسيادة حادة السمع، وكنت أقول لنفسي كتدبير جيد: "لماذا تصرخ؟ وفّر أنفاسك. أنت الإنسان الوحيد في دائرة قطرها مئات الكيلومترات". هكذا هبطتُ في صمت تامّ، من دون أن أجرؤ حتى على الصفير بصوتٍ مرتفع لأنني بتّ أشعر بأنّ الثور كان يستمع في كل مكان. لقد حاولت حتى أن أكتم صوت تنفّسي. هكذا مرّت الساعات، وأنا أنزلق بصمت...

عند حوالى الساعة الواحدة والنصف - كان قد مضى على تنقّلي ساعتان - وصلتُ مرة أخرى إلى النُهَير ذي الأمواج الطويلة والحجارة الناتــئة الـــذي تــردّدت حتى أن أقطعه في أثناء صعودي الجبل، بكلتا ساقَيّ. بدا واضحاً أنني لن أستطيع أن "أجذّف" نفسي عبر هذا النُهير. ولهذا كان عليّ أن أقلب و"أمشي" على ذراعين ممدودتين بصلابة، وحتى في هذه الحالة كان رأسي بالكاد فوق الماء. كانت المياه تتدفّق بـــسرعة، هائجـــة وباردة كالجليد، وكانت ساقي اليسرى، المتدلية للأسفل من دون إسناد وتحكّم، تصطدم بعنف بالحجارة في القاع، ويـــسوقها التيار أحياناً مثل علمٍ إلى الجانب، لتصنع زاوية قائمة مع جذعي. بدا وركي مفكوكاً مثل ركبتي تقريباً، ولكنه لم يسبّب لي أي ألم، خلافاً لركبتي التي كانت مثنية ومخلوعة على نحوٍ مؤلم جداً في أثـــناء عـــبوري الـــنُهير. شعرت عدة مرات أنّ وعيي يتلاشى، وخفـــت أن يغمى عليّ، وأغرق في النُهير، وأمرت نفسي أن أصمد بلغة وتهديدات قوية.

"اصمد أيها الأحمق! اصمد من أجل حياتك العزيزة! **سأقتلك** إذا استسلمت؛ إياك أن تنسى ذلك!".

كـــنت شـــبه منهار عندما وصلت إلى الجانب الآخر، مصدوماً ومـــرتعداً برداً وألماً. شعرت أنني منهك، ومغلوب، ومُستنفَد القِوى. تمـــدّدت مذهولاً، بلا حراك، لدقيقتين. ثمّ تحوّل إنهاكي بطريقة ما إلى نوعٍ من التعب... تراخٍ لذيذ مريح على نحوٍ استثنائي.

فكّرت: "يا له من مكانٍ جميل هنا. لماذا لا أستريح قليلاً؟ إغفاءة قصيرة ربما؟".

لكـــنّ النبرة الواضحة لهذا الصوت الداخلي الناعم المتملّق أيقظتني فجـــأة، وأعـــادت إليّ اتّزاني، وأنذرتني بالخطر. لم يكن "مكاناً جميلاً"

للــــراحة والإغفاء. كان الاقتراح مُهلكاً وقد ملأني رعباً، ولكنّ نبراته الناعمة المغوية خدّرتني.

قلت لنفسي بقوة: "لا. هذا **الموت** يتكلّم، بصوته الساحر العذب المميـــت. لا تستمع إليه الآن! لا تستمع إليه أبداً! لا بدّ لك من المتابعة شـــئت أم أبيت. لا يمكنك أن ترتاح هنا، ولا في أي مكان. عليك أن تجد سرعةً يمكنك المسير بها باستمرار وثبات".

صوت الخير هذا، أو صوت "الحياة"، شجّعني، وشدّ من عزيمتي. توقّــف ارتجـــافي واضـــطرابـــي أيضاً. بدأت المسير من جديد، و لم أضطّرب مرة أخرى.

الآن، كــان للّحن، والإيقاع، والموسيقى (ما يدعوه كانْت الفنّ "المنـــشّط") دورٌ في مـــساعدتي. قبل أن أعبر النُهير، كنت أدفع نفسي **بقـــوة عضلاتي**، بذراعَي القويتين جداً. والآن، كنت أدفع نفسي **بقوة الموســـيقى**، إن صحّ التعبير. لم أتعمّد ذلك، ولكنه حدث لي. وجدت نفسي أتحرّك ضمن إيقاع موجَّه بنوع من أغاني المسير أو التجذيف، أحياناً أغنـــية مراكبيـــيّ فولغا، وأحياناً أنشودة رتيبة خاصة بـــي، متصاحبة مع هذه الكلمات "***Ohne Haste, ohne Rast! Ohne Haste, ohne Rast!***"

(**"من دون استعجال، من دون راحة!**)، مع تركيز قوي على كلمتَيّ ***Haste***، و***Rast***. لم يُنـــتَفع أبداً من كلمات غوته على نحوٍ أفضل من هـــذا! لم يعد عليّ الآن أن أفكّر في شأن التقدّم بسرعة جداً أو ببطء جداً. لقد انسجمت مع الموسيقى، وانسجمت مع الإيقاع، وقد ضمن هـــذا أنّ ســـرعتي كانت صحيحة. وجدت حركتي متناسقة تماماً مع الإيقاع، أو بالأحرى تابعة للإيقاع: تولّد الإيقاع الموسيقي في داخلي، واستجابت جميع عضلاتي بإذعان؛ جميع عضلاتي باستثناء تلك التي في ســـاقي اليـــسرى الـــتي بدت صامتة، أو خرساء. ألا يقول نيتشه أننا

"نـــستمع بعـــضلاتنا" لـــدى استماعنا للموسيقى؟ وذكّرني هذا بأيام الـــتجذيف في الجامعـــة، وكـــيف كنا ثمانيتنا نستجيب كرجل واحد للإيقاع، مثل نوعٍ من الأوركسترا العضلية المُدارة بواسطة موجّه الدفة.

بطـــريقة مـــا، بدا صراعي أقلّ تجهّماً وقلقاً مع هذه "الموسيقى". كانـــت هـــناك حـــتى حيوية معينة مثل التي أسماها بافلوف "الابتهاج العـــضلي". الآن، مـــن أجـــل إبهاجي أكثر، برزت الشمس من وراء السحب، ودلّكتني بالدفء وسرعان ما جفّفتني. مع كل هذا، وربما مع أشياء أخرى، وجدت حالتي المعنوية قد تغيّرت على نحوٍ سعيد للغاية.

لم يكن إلا بعد دندنتي للأغنية بجهيرٍ رنّان ومدوٍّ لبعض الوقت أن أدركت فجأة أنني قد نسيت الثور، أو بتعبيرٍ أدقّ، نسيت خوفي، لأنني رأيـــت أنه لم يعد ملائماً، ولأنه كان سخيفاً أساساً. ليس لديّ مكانٌ الآن لهـــذا الخوف، أو لأي خوفٍ آخر، لأنني كنت طافحاً بالموسيقى. وحـــتى عـــندما لم تكـــن موسيقى بالمعنى الحرفي (مسموعة)، كانت موســـيقى عضلاتي تعزف؛ أو "موسيقى الجسم الصامتة" بتعبير هارفي الجمـــيل. مع هذا العزف، ومع موسيقية حركتي، أصبحت أنا نفسي الموســـيقى؛ "أنـــت الموسيقى، بينما تستمر الموسيقى": كائنٌ حيّ من العـــضلات والحركة والموسيقى، المتلازمة جميعاً والمنسجمة مع بعضها بعـــضاً، باســـتثناء ذلـــك الجزء المقطوع الأوتار، تلك الأداة المسكينة المكسورة التي لم تستطع أن تشترك وقبعت بصمت وبلا حراك من دون نغمة أو انسجام.

كان لديّ في طفولتي كمانٌ تحطّم بقسوة في حادثة. لقد شعرت الآن تجـــاه ســـاقي مثلما شعرت قبل زمنٍ طويل حيال ذلك الكمان المكـــسور المـــسكين. مـــشوباً مع سعادتي ومعنوياتي المتجدّدة، ومع الموســـيقى المنشّطة التي غمرت نفسي، كان إحساسٌ جديد بالخسارة

أكثـــر حدة وألماً لتلك الأداة الموسيقية المكسورة التي كانت في يومٍ من الأيـــام ســـاقي. فكّرت في نفسي، متى ستشفى؟ متى ستعزف نغتمها الخاصـــة مجدّداً؟ متى ستنضم من جديد إلى موسيقى الجسم المبهجة؟ يا الله، متى؟

عـــند الـــساعة الثانية، كانت الغيوم قد انقشعت بما يكفي لأرى المـــشهد الرائع للزقاق البحري أسفل مني، وللقرية الصغيرة التي غادرتها قـــبل تـــسع ساعات. كان بإمكاني أن أرى دار العبادة القديمة حيث سمعـــت موسيقى موزارت في الأمسية السابقة. كان بإمكاني أن أرى أشـــكالاً بـــشرية في الشارع. هل كان الهواء صافياً على نحوٍ شاذ أو خارق للطبيعة؟ أو هل كان هناك صفاء استثنائي في إدراكاتي الحسّية؟ فكّرت في حلمٍ رواه لايبنيز، وجد فيه نفسه عند علوّ شاهق مطلّ على العـــالم، حيث المقاطعات، والبلدات، والبحيرات، والحقول، والقرى، والقـــرى الـــصغيرة منتشرة جميعاً أسفل منه. فإذا أراد أن يرى شخصاً منفـــرداً - فلاحاً يحرث الأرض، أو امراة مسنّة تغسل الثياب - كان علـــيه فقط أن يوجّه ويركّز نظرته المحدِّقة: "لم أحتج إلى أي مقراب، باســـتثناء انتباهـــي". هكذا كان الوضع معي: كربٌ من الاشتياق زاد بصري حدّةً، وحاجةٌ عنيفة إلى أن أرى رفاقي الرجال، وأيضاً، أن أُرى مـــن قِبَلهم. لم يكونوا أبداً أعزّ على نفسي، ولا أكثر بعداً، كما كانوا في هـــذه اللحظة. شعرت أنني قريبٌ جداً، أراقبهم من خلال مقراب كـــبير، ولكنني مع ذلك بعيدٌ عنهم، ولست جزءاً من عالمهم. لو كان معي فقط علمٌ، أو شعلة، أو بندقية، أو حمامة زاجلة، أو جهاز إرسال لاســـلكي! لو كان بإمكاني فقط أن أطلق صيحةً واحدة عملاقية يمكن أن تُسمَع على بعد عشرة أميال! وإلا كيف يمكنهم أن يعرفوا أنّ هناك رفيقاً لهم، إنساناً عاجزاً يكافح من أجل حياته على ارتفاع 1500 متر

فوقهم؟ كنت على مرأى من منقذيّ، ومع ذلك يُرجّح أن أموت. كان هناك شيء مجرّد، أو عامّ، في شعوري. ما كنت لأصرخ "أنقذوني، أوليفر ساكس!"، بل "أنقذوا هذا الكائن الحيّ المصاب! أنقذوا الحياة!". إنه التوسّل الصامت الذي أعرفه جيداً من مرضاي: توسّل كلّ الحياة المواجهة للهاوية، إذا كانت حية على نحوٍ قوي وصحيح ونابض بالحياة.

مرّت الساعات واحدة تلو الأخرى، تحت سماء متألّقة صافية، توهّجت فيها الشمس ذهبيةً باهتة، بنورٍ قطبي شمالي صاف. كان أصيلاً ذا روعة فريدة، تآلفت فيه الأرض والسماء في جمالٍ مشعٍّ هادئ يغمره الصفاء. وبينما مرّت الساعات الزرقاء والذهبية، تابعتُ باطّراد رحلتي الشاقة التي أصبحت سلسة جداً، وخالية من الصعوبات، بحيث إنّ عقلي استطاع أن يتحرّر من قيود الحاضر. وتغيّر مزاجي مرة أخرى، بالرغم من أنني لم أدرك ذلك إلا لاحقاً. توالت الذكريات في ذهني. كانت كلها ذكريات سعيدة منسية منذ زمنٍ طويل: ذكريات لأعصر الصيف، مشوبة بضياء الشمس الذي كان أيضاً سعادة ونعمة؛ أعصر دافئة مع عائلتي وأصدقائي، وأعصر ترجع إلى طفولتي المبكرة. كانت مئات الذكريات تمرّ في خاطري خلال انتقالي من صخرة إلى أخرى، ومع ذلك، كانت كل ذكرى منها غنية، وبسيطة، ومفصّلة، وكاملة، ولا تنقل أيّ إحساس بالاستعجال في تذكّرها.

لم تكن ذكريات عابرة لوجوه وأصوات، بل مشاهد كاملة عشتها بخيالي مجدداً، وأحاديث كاملة تردّدت على مسامعي مرة أخرى، من دون أي اختصار. تعلّقت جميع ذكرياتي المبكرة جداً بحديقتنا؛ حديقتنا الكبيرة القديمة في لندن، كما اعتادت أن تكون قبل الحرب. بكيت فرحاً وفاضت عيناي بالدموع عندما رأيتها – حديقتنا

بأسوارها الحديدية القديمة العزيزة سليمةً لم تمسّ، والمرجة فسيحة وملساء، شُذّبت لتوّها ومُلّست (المحدلة القديمة الضخمة هناك في الزاوية)، والأرجوحة الشبكية البرتقالية مع وسائد تفوقني حجماً، والتي كنت أحب أن أتمايل فيها وأتأرجح لساعات، وزهور عبّاد الشمس الضخمة - فرحة قلبي - التي أذهلتني عناقيدها الزهرية بلا حدود وأرتني في سنّ الخامسة لغز العالم الفيثاغوري (لأنه في ذلك الحين، أي في صيف العام 1938، اكتشفت أنّ الزهيرات الدوّارة كانت مضاعفات لأعداد أولية، وتكوّنت لدي رؤيا لترتيب وجمال العالم أصبحت نموذجاً بدئياً لكل فرح وأعجوبة علمية كنت سأختبرها لاحقاً). كانت جميع هذه الأفكار والصور، المستثارة والمتدفّقة خلال ذهني لاإرادياً، سعيدة أساساً، وممتنّة أساساً. ولم يكن إلا لاحقاً أن قلت لنفسي: "ما هذا المزاج؟" وأدركت أنه كان تحضيراً للموت، كما يقول أودن: "لتكن كل أفكارك الأخيرة حمداً".

حوالى الساعة السادسة، وعلى نحوٍ مفاجئ إلى حدٍّ ما، لاحظتُ أنّ الظلال كانت أطول، وأنّ الشمس لم تعد عاليةً في السماء. تمنّيت لو أنّ الشمس لا تغيب، وأن يمتد العصر الذهبي اللازوردي إلى ما لا نهاية. والآن، أدركت فجأة أنه كان المساء، وأنّ الشمس ستغيب في غضون ساعة تقريباً.

لم يمضِ وقتٌ طويل بعد ذلك حتى وصلت إلى حرف مستعرض طويل مشرف على مشهد غير محجوب للقرية والزقاق البحري. كنت قد بلغت هذا الحرف حوالى الساعة العاشرة صباحاً: كان تقريباً في منتصف المسافة بين البوّابة والنقطة التي وقعت عندها. وهكذا فإنّ ما استغرق مني أكثر من ساعة بقليل لتسلّقه، استغرق مني هبوطه، مُقعداً، سبع ساعات تقريباً. وأدركت كم كنت متفائلاً ومفرطاً في الخطأ في

تقدير كل شيء، حين قارنت "تجذيفي" بخطواتي الواسعة السريعة، بينما كـــان، في الحقيقة، أبطأ بستّ مرات. كيف أمكنني أن أتخيّل أنّ سرعة التجذيف كانت مكافئة لنصف سرعة الخطى الواسعة، وأنّ المُرتَقى من المـــزرعة المنخفضة الآهلة والدافئة نسبياً، والذي كان قد استغرق مني أربـــع ساعات أو نحو ذلك صعوداً، سيستغرق مني هبوطاً ضعف ذلك الوقت فقط، لأصبح ضمن مدى أعلى بيت مزرعة مع الغسق أو حلول الظـــلام. لقـــد لازمـــت نفسي مثل مُعزٍّ حنون خلال ساعات رحلتي الطـــويلة، المرصّعة بأفكاري السامية ولكن غير المريحة: رؤية عذبة دافئة لبيت المزرعة المنتظر، يتوهّج بهدوء مثل داخلٍ هولندي، مع سيدة بيت حـــنون بدينة ستطعمني وتحييني بالحب والحليب الساخن، بينما يذهب زوجهـــا الكـــالح الضخم إلى القرية طلباً للمساعدة. وقد دعمتني هذه الـــرؤية ســـرّياً خلال كامل الساعات المتطاولة لهبوطي، ولكنها الآن تلاشـــت على نحوٍ مفاجئ، مثل شمعة انطفأت، لدى بلوغي المثبّط لهذا الحرف المستعرض العالي.

أمكنني أن أرى الآن ما كان محجوباً عن النظر في السُدُم في أثناء صـــعودي صـــباحاً، وكم كانت القرية لا تزال بعيدة بصورة لا يمكن الوصول إليها. ومع ذلك، وبالرغم من أنّ الأمل قد تلاشى لتوّه ومات، فـــإنّ رؤيـــتي للقرية أشعرتني بالارتياح، وخاصة رؤية دار العبادة، التي بدت ذهبية، أو بالأحرى قرمزية، في ضوء المساء الطويل... وتبادر إلى ذهني مرة أخرى، وبشكلٍ طاغٍ، كيف جلستُ في دار العبادة تلك في الأمـــسية الفائتة فقط، وسمعت موسيقى موزارت، وقد كانت الذكرى قوية جداً بحيث إنني استطعت فعلياً أن أتخيل أنني أسمع الموسيقى حقيقة، لقد كان سماعي لها نابضاً جداً بالحياة إلى حدّ أنني تساءلت، على مدى ثانـــية طويلة، ما إذا كان يُغنّى في الأسفل ويُساق إليّ بشكلٍ إعجازي

عـــبر الهـــواء. بينما كنت أستمع، متأثّراً بعمق، والدموع منهمرة على وجهي، أدركت فجأة أنّ ما كنت أسمعه لم تكن موسيقى موزارت بل موســـيقى الموتى. ولكنّ عقلي، أو عقلي اللاواعي، قد استبدل واحداً بالآخر...

اخـــتفت الـــشمس بعد السابعة بقليل، وبدا أنها كانت تنتزع، باختفائها، كل اللون والدفء من العالم. لم يكن هناك أيّ من السطوع المتخلّف لغروب أكثر اعتدالاً؛ كان هذا غروباً أبسط، وأقسى، وأكثر قطبـــية. أصبح الهواء فجأة أكثر كآبةً وبرودة، وبدا أنّ الكآبة والبرودة كانتا تخترقان نخاعي مباشرةً.

كـــان الـــصمت قد أصبح شديداً، ولم يعد بوسعي أن أسمع أي أصـــوات حولي. **لم يعد بإمكاني أن أسمع نفسي**. بدا كل شيء مُطوَّقاً (مغمـــوراً) بالصمت. كانت هناك فترات شاذة ظننت فيها أنني كنت ميّـــتاً، وذلك عندما أصبح الهدوء الشديد هدوءَ الموت. توقّفت الأشياء عـــن الحـــدوث. لم يعـــد هناك أي حدوث. لا بدّ أنّ هذه هي بداية النهاية.

فجأةً، وعلى نحوٍ لا يُصدَّق، سمعتُ صرخة... صيحة مُيَودلة بدت قـــريبة جداً مني. التفتُّ ورأيت رجلاً وصبياً يقفان على صخرة أعلى مني قليلاً، وعلى مسافة أقل من تسعة أمتار من الطريق بدت صورتهما الظّلّيـــتان قـــبالة الغـــسق الذي يزداد ظلمة. لم أرَ أبداً مُنقذَيّ قبل أن يرياني. أظنّ أنّ عينَيّ، في تلك الدقائق الأخيرة المظلمة، قد تركّزتا على الطريق المعتم أمامي، أو ربما كانتا تحدّقان غافلتَين في الفضاء؛ لم تعودا متنبِّهتَين، تجولان وتتفحصان باستمرار، كما كانتا طوال الوقت خلال النهار. أظنّ، بالفعل، أنني كنت قد أصبحت غير مدرك كلياً للمحيط، بعـــد أن تخلّـــيت، عند مستوىً معيّن، عن كل أفكار الإنقاذ والحياة،

بحيث إنّ الإنقاذ، عندما جاء، جاء من لا مكان، إنها نعمة إلهية أتت في اللحظة الأخيرة. فبعد بضع دقائق أخرى، كان الظلام سيشتّد إلى حدّ تتعذّر معه الرؤية. كان الرجل الذي صرخ يخفض بندقيّته لتوّه، وكان الشاب إلى جانبه مسلّحاً مثله. ركضا باتجاهي، ولم أكن بحاجة إلى كلمات لأشرح لهما حالتي. عانقتهما كليهما، وقبّلتهما... حامليَّ الحياة هذين. وتمتمت بلغة نرويجية متكسِّرة ما كان قد حدث معي في الأعالي، وما لم أستطع أن أعبّر عنه بالكلمات رسمته على التراب.

ضحك كلاهما على الصورة التي رسمتها للثور. كانا يفيضان بحسّ الدعابة، وبينما كانا يضحكان، ضحكت معهما. ومع الضحك، انفجر التوتّر المأساوي فجأةً وشعرت أنني حيّ مرة أخرى بشكل نابض بالحياة وهزلي إذا جاز التعبير. ظننت أنني قد اختبرت كل عاطفة في الأعالي، ولكن خطر لي الآن أنني لم أضحك ولا مرة واحدة. والآن لم أستطع أن أملك نفسي عن الضحك – ضحك الارتياح، وضحك الحب، والضحك العميق الذي ينبع من صميم قلب الإنسان. انفجر الصمت، ذلك الصمت المميت الذي كان قد اكتنفني، كما في الرُقية، في تلك الدقائق الأخيرة.

كان الرجلان، والدٌ وابنه، صيادَيّ أيائل، نصبا خيمتهما في الجوار. وحيث سمعا ضجةً في الخارج، وحركة في الشجيرات، فقد خرجا بحذرٍ ببندقيتين جاهزتين، وهما يفكّران في الطريدة التي قد يقتلاها، وعندما حدّقا من أعلى الصخرة أدركا أنّ طريدهما لم تكن سواي.

سقاني الصياد بعض الشراب من وعاء قائلاً: "لا تقلق. سأنزل إلى القرية، وسأعود خلال ساعتين. سيبقي ابني معك. أنت بخير وأمان؛ لن يأتي الثور هنا!".

منذ لحظة إنقاذي أصبحت ذكرياتي أقل حيوية وأقل اندفاعاً. كنت في أيدي الآخرين الآن و لم تعد مسؤوليتي أن أتصرّف أو أشعر. لم أُحدِّث الصبي بالكثير، ولكن بالرغم من أننا بالكاد تحدّثنا، إلا أنني وجدت راحةً عظيمة في وجوده. كان يشعل لي سيجارة بين الحين والآخر، أو يناولني الوعاء الذي تركه والده لأشرب. كان لدي أعمق إحساس بالأمان والدفء. ثمّ استغرقت في النوم.

لم تمضِ ساعتان حتى وصل حشدٌ من القرويين الأقوياء يحملون حمّالة، وضعوني عليها بصعوبة كبيرة. اعترضت الساق اليسرى المتخبِّطة، التي قبعت لفترة طويلة صامتة وغير مُلاحَظة، بصوت عالٍ، ولكنهم حملوني برفق وإيقاع أسفل الطريق الجبلي الشديد الانحدار. وعند البوابة، - البوابة التي تجاهلتُ لافتتها المنذِرة- تمّ نقلي إلى جرار جبلي من نوعٍ ما. بينما تمايل ببطء نحو سفح الجبل - أولاً خلال الغابات، ثمّ خلال البساتين والمزارع - غنّى الرجال بهدوء بين أنفسهم، وأعطاني أحدهم غليوناً لأدخّن. لقد عدت مرة أخرى - الحمد لله! - إلى عالم الرجال الطيّب.

II. وأصبحت مريضاً

ما الذي يحدث لحجم الرجل وتناسب أجزائه عندما يقلّص نفسه ويستنفد نفسه إلى حفنةٍ من الثّرى؟... سرير المرض هو قبر... يقع الرأس هنا عند مستوى متدنٍ بقدر القدم - وضعية بائسة وغير إنسانية (بالرغم من أنها شائعة للجميع)!... لا يمكنني أن أنهض من سريري إلى أن يمكّنني الطبيب من ذلك، ولا يمكنني أن أقرّر أنني قادرٌ على النهوض حتى يقرّر هو ذلك. أنا لا أفعل شيئاً، ولا أعرف شيئاً عن نفسي.

جون دون

وأصبحت مريضاً

"وهكــذا تمّ إنقاذي، وتلك هي نهاية القصة". لقد مررت بما ظنـنت أنه سيكون "يومي الأخير على الأرض"، حيث كانت جميع انفعـالاتي وأفكـاري متركّـزة على هذا الأمر، والآن - مبتهجاً ومندهـشاً بارتياب - وجدت نفسي على الأرض مرة أخرى، مع ساق غبية مكسورة. منذ تلك اللحظة - حسناً، ستسمع! - لم يعد هـناك، بمعـنىً من المعاني، أي "قصة"، أو أي "مزاج" معيّن ليعطي توتّـراً وارتباطاً للأيام التي تلت. هكذا يصعب الكتابة عنها، وحتى تذكُّـرها بشكلٍ حي. لقد لاحظت هذا على الجبل ما إن شعرت واثقـاً بالأمان - شعور مفاجئ بالهجران والاستنـزاف ربما - لأنّ المشاعر العميقة والانفعالية لم تعد ضرورية، ولم تعد ملائمة لوضعي المتغيّـر و"النثري"، إن صحّ التعبير: وضعٌ مختلف جداً عن تراجيديا وكومـيديا و"شِـعر" الجبل. لقد عدت إلى رتابة، وواقعية، وتفاهة العالم.

مـع ذلك، لا يمكنني أن أُنهي قصتي هنا، لأنه كانت ستتبع قصة أخرى، أو ربما دورٌ آخر، في الدراما الغريبة المعقّدة نفسها، وهي قصة وجـدتها مدهشة تماماً وغير متوقَّعة في حينها وخارجة عن نطاق فهمي أو اعـتقادي. ولفترة من الوقت، فكّرت في هاتين كقصّتين منفصلتَين، ولم يكن إلا تدريجياً أن بدأت أدرك أنهما كانتا مرتبطتَين أساساً. لكن في مـا يتعلّق بالشعور في ذلك الوقت، فقد كانت الأيام الأربعة التالية رتيبة نوعاً ما، بالرغم من اشتمالها على عملية جراحية هائلة وأساسية،

وهي العملية التي تربط القصّتين، ويمكنني أن أتذكّر فقط أحداثاً معيّنة، بالغـــة الـــذروة أو القاع، برزت بوضوح بين الأحداث الباهتة لذلك الوقت.

تمّ أخـــذي إلى الطبـــيب المحلـــي - ابن آخر أحمر الوجه للحياة الزراعية، بمهنة تغطّي مئة وستين كيلومتراً مربعاً من الجبل الوعر وريف الـــزقاق البحـــري حوله - الذي قام بفحصٍ سريع وحاسم ولكنه في الوقت نفسه متأنٍّ.

قال: "لقد مزّقت العضلة الرباعية الرؤوس. لا أعرف ماذا هنالك أيضاً. لا بدّ من أن تنقل إلى المستشفى".

قـــام بالتـــرتيبات اللازمة لنقلي بسيارة الإسعاف، وأخطر أقرب مستشفى، على بعد مئة كيلومتر تقريباً، في أودا.

بعـــد فتـــرةٍ وجيزة من استقراري في الجناح الصغير في مستشفى أودا- مستـــشفىً صـــغير، يحـــوي دزيـــنة أو نحو ذلك من الأسرّة، وتـــسهيلات بـــسيطة لتغطية الاحتياجات الشائعة للمجتمع - جاءت الممرضـــة، وهـــي مخلوقة جميلة، بالرغم من أنها صارمة من دون سبب واضح وحركاتها مفتقرة إلى الرشاقة.

سألتها عن اسمها.

أجابت بجفاء: "الممرضة سولفيج".

هتفت: "سولفيج؟ يجعلني هذا أفكّر **باللورد جينت** *Peer Gynt*".

"**الممرضـــة** سولفيج رجاءً؛ اسمي لا يهمّ. والآن، كن لطيفاً رجاءً واقلب على جنبك. يجب أن أقحم ميزان الحرارة المستقيمي".

أجبت: "الممرضة سولفيج، ألا يمكنك أن تأخذي درجة حرارتي عـــن طريق الفم؟ أنا في وضعٍ مؤلمٍ للغاية، وستقتلني ركبتي اللعينة إذا حاولت أن أقلب".

أجابــت ببرود: "ليس بوسعي مساعدتك. لديّ تعليمات، وعليّ أن أتّــبعها. يــنصّ نظام المستشفى على أخذ درجة الحرارة عن طريق المستقيم لدى الدخول إلى المستشفى".

فكّرت أن أجادل، أو أتوسّل، أو أحتجّ، ولكنني أدركت من تعبير وجههــا أنّ ذلــك ســيكون عديم الجدوى. بإذلال، أدرتُ وجهي، ووقعــت الساق اليسرى، غير المدعومة، وتدلّت عند الركبة مسبِّبةً ألماً مبرِّحاً.

أقحمت الممرضة سولفيج ميزان الحرارة واختفت؛ اختفت لأكثر مــن عشرين دقيقة. ولم تستجب لنداء الجرس، أو تعود، حتى أحدثتُ ضجّة وهياجاً.

قالــت لدى عودتها وقد احمرّ وجهها غضباً: "يجب أن تخجل من نفسك!".

كان المريض المجاور لي شاباً مقطوع النفَس (لاهثاً) إلى حدٍّ كبير بسبب إصابته الوخيمة بداء الإسبَستيَّة، وكان يتكلّم الانكليزية العامية بطلاقــة. همــس لي: "إنهــا مرعبة، تلك المرضة. ولكنّ الأخريات لطيفات".

بعــد أن أُخِــذت درجة حرارتي، تمّ نقلي بالعربة لتصوير الساق بأشعة إكس.

سار كل شيء على ما يرام إلى أن قامت الخبيرة الفنّية، من دون تفكــير في العــواقب، برفع ساقي من الكاحل. انثنت الركبة للخلف، وانخلعــت علــى الفور، وانطلقت مني صيحة لاإرادية. مدركةً لما قد حــدث، وضــعت الخــبيرة علــى الفور يداً تحت الركبة لإسنادها، وأنــزلتها برقة ولطف كبيرَين إلى الطاولة.

قالت: "أنا آسفة جداً. لم أدرك الوضع إطلاقاً".

قلت: "لا بأس. لم يحدث ضرر. كانت حادثة غير مقصودة. أما مع الممرّضة سولفيج، فالأمر متعمّد".

انتظرت على النقّالة بينما كانت الطبيبة تفحص صوَر الأشعّة. كانت طبيبةً عامة تفيض لطفاً وحناناً، وكانت مناوِبةً تلك الليلة في قسم الطوارئ. قالت إنّ الصوَر تُظهر عدم وجود أي كسور في العظام الطويلة، ولكن لا يمكن للمرء فعلياً أن يفحص الركبة أو أن يصوّرها بأشعة إكس. بالرغم من أنها لم ترَ أبداً مثل هذه الإصابة من قبل، إلا أنها تظنّ على الأرجح أنها مجرّد تمزّق في العضلة الرباعية الرؤوس، ولكنّ هذا يمكن أن يُحدَّد فقط عند الجراحة. قالت إنها عملية جراحية كبيرة، وأضافت مبتسمة، بعد أن رأت خوفي الواضح، "ولكن مباشِرة". يمكن أن ألزم الفراش حتى ثلاثة أشهر، "ويُحتمَل أقلّ، ولكن يجب أن تكون مستعداً". ونصحتني بإجراء الجراحة في لندن، قائلةً إنّ الصليب الأحمر سيتدبّر نقلي إلى بيرغن – طريق جميل إذا كان المرء في مزاجٍ جيد – وهناك الكثير من الطائرات من بيرغن إلى لندن...

اتّصلت هاتفياً بشقيقي، وهو طبيبٌ في لندن. بدا قلقاً، ولكنني طمأنته بسرعة، وأخبرني أنه سيقوم بكل الترتيبات الضرورية، وأوصاني أن لا أقلق.

لكنني كنت قلقاً بالفعل، وبينما تمدّدت هناك في سريري في مستشفى أودا – تمّت إعادتي إلى السرير بعد أن عاينتني الطبيبة – مع الشاب المقطوع النفس الكثير السعال على جانب، ورجل مسنّ **محتضر** موصول بوحدة مصل على الجانب الآخر، شعرت بالقلق على نحوٍ بائس. حاولت أن أنام – كانوا قد أعطوني مُسكّناً – ولكن كان من الصعب أن لا أفكّر في رجلي، وخاصةً لأنّ أقلّ حركة للركبة كانت

تــسبّب ألمــاً مفاجئاً حاداً. كنت مضطّراً لأن أُبقي نفسي بلا حراك تقريباً، وهو أمرٌ لا يساعد على النوم.

كنت كلما استرخيت، وبدأت استغرق في النوم، أتحرّك لاإرادياً، وأســتيقظ متــشنِّجاً بألمٍ مفاجئ عنيف في ركبتي. استُشيرت الطبيبة الحنون، ونصحت بوضع جبيرة مؤقتة لمنع الركبة من الحركة.

مع جبيرتي الجديدة، نمت على الفور ونظاراتي على وجهي، لأنني كــنت لا أزال أضــعها عندما استفقت عند الساعة السادسة من حلمٍ رأيــت فيه أنّ ساقي بكاملها كانت تُكبَس بِملزمة. استيقظت لأجد أنّ الــساق كانت تُكبَس بالفعل، ولكن ليس بملزمة. كانت قد انتفخت بــشكلٍ هائل، وما استطعت أن أراه منها ذكّرني بالكوسا. بدا واضحاً أنهــا كانت تُكبَس بالجبيرة، أما القدم فقد كانت منتفخة جداً وباردة نتيجةً للأوديما.

قامــوا بــشقّ الجبيرة طولياً من جانب واحد، ومع تحرير الضغط والألم اســتغرقت مجدّداً في النوم، ونمت جيداً وبعمق إلى أن دخل إلى الغرفة شخصٌ مذهل للغاية، بحيث إنني فركت عينَيّ ظانّاً أنني لا أزال أحلم. دخل إلى الغرفة شابّ – يرتدي، لسببٍ ما، معطفاً أبيض بشكلٍ ســخيف – وهو **يرقص** بخفّة متناهية ورشاقة، ومن ثمّ تبختر في أنحاء الغــرفة وتوقّــف أمامي، ثانياً ومادّاً كل ساق إلى حدّها الأقصى مثل راقص باليه. ثم على نحوٍ مفاجئ ومُجفّل، قفز إلى سطح الطاولة بجانب ســريري، وابتسم لي ابتسامة فاتنة مثيرة. ثمّ قفز للأسفل مرة أخرى، وأخــذ بكلــتا يديّ، وضغط بهما على مقدّمة فخذيه من دون كلام. وهنا، تحسّست أثر جرح أملس على كل جانب.

ســأل: "هــل تحسّــست الندب؟ أنا أيضاً. كلا الجانبين. هل أتزحلف؟... انظر!" وقام بقفزة أخرى.

مـــن بين جميع الأطباء الذين رأيتهم أبداً، أو الذين كنت سأراهم لاحقـــاً، فـــإنّ صورة هذا الجرّاح النرويجي الشاب تبقى نابضةً بالحياة والحـــنان في ذهـــني، لأنـــه مثّل بشخصه الصحة، والشجاعة، وحسّ الفكاهـــة، وأظهر تعاطفاً فعالاً ورائعاً للغاية مع المرضى. لم يتكلّم مثل كـــتاب مدرسي، بل لعلّه لم يتكلّم على الإطلاق؛ كان كلامه أفعالاً. لقـــد قفز ورقص وأراني جروحه، وأراني في الوقت نفسه شفاءه التامّ. وقد جعلتني زيارته أشعر بتحسّن هائل.

كانت الرحلة إلى بيرغن - ستّ ساعات في سيارة الإسعاف عبر طرقٍ جبلية - أكثر من جميلة. كانت بمثابة إحياء. مستلقياً على نقّالتي المرتفعة في الجزء الخلفي من سيارة الإسعاف، متّعتُ عينَيّ بالعالم الذي كـــنت علـــى وشك أن أفقده. لم يبدُ أبداً جميلاً، ولا جديداً، إلى هذا الحدّ.

كـــان ركوب الطائرة في بيرغن تجربةً مرهقةً للأعصاب. لم تكن الطائرة مُجهّزة لاستقبال نقّالة، ولهذا كان لا بدّ من رفعي أعلى الممشى ووضـــعي بشكلٍ مائل عبر مقعدين من مقاعد الدرجة الأولى. شعرت، للمـــرة الأولى، أنني متبرّم ومغتاظ، مع نوعٍ من التململ القلق النـــزق الذي سيطرتُ عليه بصعوبة.

كـــان قائـــد الطائرة، وهو رجلٌ كبير قوي البنية، مثل قرصان متمرّس، متفهّماً ولطيفاً.

قال، واضعاً يده الضخمة على كتفي: "لا فائدة من الغيظ يا بنيّ. أول درسٍ يجب أن تتعلّمه بشأن كونك مريضاً، هو الصبر!".

في أثـــناء نقلـــي بسيارة الإسعاف من مطار لندن إلى المستشفى الكبير حيث سأخضع للعملية الجراحية في اليوم التالي، بدأ المزاج الجيد والتفكير السليم يفارقانني، وحلّ محلهما فزعٌ فظيع للغاية. لا يمكنني أن

أدعـــوه فزع الموت، بالرغم من أنه كان من دون شك مشتملاً عليه. كـــان بالأحرى فزعاً من شيء مظلم ومجهول وسرّي؛ شعوراً كابوسيّاً غـــريباً ومـــشؤوماً، لم أختبر مثله على الجبل إطلاقاً. آنذاك، واجهت، إجمـــالاً، ما تخبّئه الحقيقة، ولكنني شعرت الآن بالتشويه يثور، ويسود. رأيـــته، وشعرت به، وأحسست أنني عاجزٌ عن مصارعته. لن يتلاشى، وأقصى ما يمكنني أن أفعله هو أن أراقب الوضع بهدوء وأتمسّك بالأمل، مغمغماً ابتهالاً لطمأنة نفسي وإعادتها إلى رشدها. كانت تلك الرحلة في ســـيارة الإســـعاف رحلةً سيئة، من جميع النواحي، فخلف الفزع (الذي لم أستطع أن أهزمه كما هزمت مُسبِّبه)، شعرت بالهذيان يلفّ رأسي؛ مثل الهذيان الذي اعتدت أن أعرفه جيداً كطفل متى ما أُصبت بالحمّـــى أو صداع نصف الرأس. لاحظ شقيقي، الذي كان بجانبـــي، بعضاً من هذا، وقال:

"لا بـــأس علـــيك يا أوليفر. لن يكون الأمر سيئاً إلى هذا الحدّ. لكنك تبدو بالفعل شاحباً كالموتى، ورطباً ومريضاً. أظنّ أنك محموم، وتبدو مصدوماً. حاول أن تستريح. إبق هادئاً. لن يصيبك مكروه".

نعم، كنت بالفعل محموماً. شعرت بنفسي ألتهب وأتجمّد. نخرت المخاوف الوسواسية عقلي، وكانت إدراكاتي الحسّية غير مستقرة. بدا أنّ الأشياء كانت تتغيّر، وتفقد حقيقتها وتصبح، بتعبير ريلكه، "أشياءَ مصنوعة من الخوف". بدا المستشفى، ببنائه الفكتوري غير المثير، للحظة مثل برج لندن. أما النقّالة المدولبة التي وُضِعت عليها فقد جعلتني أفكّرُ في عـــربة نقـــل الـــسجناء المحكومين إلى المقصلة أيام الثورة الفرنسية، والغـــرفة الصغيرة ذات النوافذ المسدودة التي أُدخِلت إليها (أُعدِّت في الدقـــيقة الأخيرة، لأنّ جميع الأجنحة والأجنحة الفرعية في المستشفى كانـــت مـــشغولة)، جعلتني أفكّر في حجرة التعذيبِ السيئة السمعة،

"الراحة الصغيرة *Little Ease*"، في البرج. لكنني أصبحت في ما بعد مولّعاً جداً بغرفتي الشبيهة بالرحم، ولأنها كانت عديمة النوافذ، فقد أسميتها "الأحادية *The Monad*". لكن في تلك الأمسية الرهيبة المشؤومة في الخامس والعشرين من الشهر، مُصاباً بالحمّى والعُصاب الوهمي، ومُزعزَعاً بفزعٍ سرّي، أدركتُ كل شيء بطريقة غير صحيحة ولم يكن بوسعي أن أفعل أي شيء حيال ذلك.

قال موظّف الدخول: "تنفيذ حكمِ الإعدام غداً".

لا بدّ أنه قال "**العملية الجراحية** غداً"، ولكنّ شعور الإعدام طغى على قوله. وإذا كانت غرفتي هي زنزانة "الراحة الصغيرة"، فقد كانت أيضاً حجرة المحكوم عليه بالإعدام. كان بإمكاني أن أرى في ذهني، بحيوية هلاسية، الحفر الشهير لفاغين في زنزانته. لقد واساني مرحي التهكّمي، وجعلني أجتاز مفارقات الدخول الأخرى (لم يكن إلا في غرفتي في الجناح أن اقتحمت الإنسانية). أضيفت إلى هذه الأوهام الغريبة حقائق عملية الدخول: التجريد المنهجي من الشخصية الذي يترافق مع تحوّلك إلى مريض. تُستبدَل ثياب المرء الخاصة بثوب نوم أبيض مجهول المصدر، ويُطوَّق معصمه بسوار هويّة عليه رقم، ويصبح خاضعاً لقوانين وأنظمة مؤسساتية. لا يعود الشخص عميلاً حراً، ولا يعود له حقوق، ولا يعود في العالم بصورة عامة. الأمر مشابه جداً لتحوّل المرء إلى سجين، ويذكّر، بإذلال، باليوم الأول للمرء في المدرسة. لا يعود المرء شخصاً، بل هو الآن نزيل. يتفهّم المرء أنّ هذه الإجراءات وقائية، ولكنها أيضاً بغيضة جداً. لقد كنت مسحوقاً ومُربكاً بهذا الفزع، بهذا الإحساس الجوهري وفزع التجريد من الشخصية، من خلال شكليات الدخول البطيئة والمملة، إلى أن اقتحمت الإنسانية - على نحوٍ مفاجئ

ورائع – في اللحظات القليلة الأولى التي خوطبت فيها باسمي وليس بمجرد "دخول" أو **شيء**.

دخلت إلى حجرتي فجأةً ممرّضة لطيفة بهيجة ذات لكنة لانكشرية. كانت امرأةً متعاطفة ومرحة، وقالت إنها سُرَّت للغاية عندما أفرغت محتويات حقيبة ظهري ووجدت فيها خمسين كتاباً وغياباً فعلياً للثياب.

قالت: "آه يا دكتور ساكس، أنت مخبول!"، وانفجرت في ضحك بهيج.

من ثمّ ضحكت أنا أيضاً. ومع هذه الضحكة الصحية تلاشى التوتّر واختفت الشرور.

حالما استقرّ بي الحال في الغرفة، زارني المسؤول عن استقبال المرضى وتسجيلهم والطبيب الجراح المتمرّن. كانت هناك بعض الصعوبات بشأن "سجلّ الحالة"، لأنهما أرادا أن يعرفا "الحقائق البارزة"، بينما أردت أنا أن أخبرهما كل شيء؛ القصة بأكملها. فضلاً عن ذلك، لم أكن متأكّداً تماماً ما الذي كان "بارزاً" أو "غير بارز" في الظروف.

قاما بفحصي قدر الإمكان مع وجود الجبيرة. وقالا إنّ إصابتي لا تعدو كونها تمزّقاً في وتر العضلة الرباعية الرؤوس، ولكنّ الفحص الكامل سيكون ممكناً فقط تحت التخدير العام.

سألتهما: "ما الداعي إلى التخدير العام؟ ألا يمكن القيام به تحت تخدير نصفي؟".

سأستطيع في هذه الحالة أن **أرى** ما كان يحدث، ولكنهما قالا إنّ التخدير العام كان القاعدة في مثل هذه الحالات، وأضافا (مبتسمَين) أنّ الجراحين سيفضّلون أن لا أتكلّم وأطرح أسئلة خلال العملية!

أردت أن ألاحــق هــذه النقطة، ولكن كان هناك شيء في نبرة صـــوتهما وسلوكهما جعلني أحجم عن ذلك. شعرت أنني عاجز على نحـــو غـــريب، كمـــا كنت مع الممرّضة سولفيج في مستشفى أودا، وفكّـــرت: "هـــل **هذا** ما يعنيه أن يكون الإنسان مريضاً؟ حسناً، لقد كـــنت طبيـــباً لخمـــس عشرة سنة. والآن سأرى ما يعنيه أن أكون مريضاً".

كـــنت منـــزعجاً للغاية. لكن عندما فكّرت في الأمر، أدركت الحقيقة بسهولة. لم يقصدا أن يبدوا عنيدَين أو حاسمَين. بدوا لطيفين بما يكفـــي، بطـــريقة مجـــرّدة: لا شكّ في أنهما لم يكونا مُخوَّلَين في هذا الموضـــوع. سيكون من الأفضل أن أسأل جرّاحي في الصباح. لقد قالا إنّ موعد الجراحة هو الساعة التاسعة والنصف، وأنّ الجرّاح - الدكتور سوان - سيعرّج عليّ ليراني ويتبادل معي حديثاً قصيراً قبل العملية.

فكّرت، "اللعنة. أنا أكره فكرة الخضوع وفقد الوعي والسيطرة". والأهمّ من ذلك أنّ حياتي كانت دوماً موجّهة نحو الإدراك والملاحظة؛ هل سأُحرَم فرصة الملاحظة **الآن**؟

اتّـــصلت هاتفياً بعائلتي وأصدقائي، لأُعلمهم بما كان قد حدث، وكـــان يحدث، ولأقول إنه إذا حدث ومتّ على طاولة العمليات، فأنا أريـــد منهم وأُوصيهم أن يُعدّوا مقتطفات ملائمة من دفاتري وكتاباتي غير المنشورة، وأن ينشروها كما يرونه ملائماً.

بعـــد اتـــصالي بهم، شعرت أنّ الأمر يجب أن يكون رسمياً أكثر، ولهـــذا قمت بكتابة كل شيء بلغة قانونية، وسجّلت التاريخ، وطلبت من ممرّضتَين أن تكونا شاهدتَين على توقيعي. شاعراً أنني قد "اهتممت" بكل شيء - أو بكل شيء كان بمقدوري أن أهتمّ به - لم أجد صعوبةً في الاســـتغراق في النوم، ونمت جيداً وبعمق إلى ما بعد الخامسة بقليل،

عـــندما اســـتيقظت بفمٍ جاف، وخفقان في ركبتي، وإحساس بحمّى خفـــيفة. طلبت بعض الماء، ولكنهم أخبروني أنني لا أستطيع أن أتناول أي شيء عن طريق الفم في يوم العملية.

انتظرت قدوم الدكتور سوان بتلهّف. الساعة السادسة، السابعة، الثامـــنة... ألـــن يأتي؟ سألتُ الأخت عنه. كانت امرأة مرعبة الشكل ترتدي ثوباً أزرق داكناً (كانت ممرّضة الليلة الفائتة البهيجة ترتدي زيّاً مقلّماً).

ردّت بحدّة: "سيأتي الدكتور سوان وقتما يشاء".

عـــند الـــساعة الثامـــنة والنصف جاءت ممرّضة لتعطيني الأدوية الإعداديـــة الـــسابقة للتخدير. أخبرتها أنني أريد أن أتحدّث مع الجرّاح بـــشأن التخديـــر النصفي. ولكنها قالت إنّ ذلك لا يهمّ لأنّ العلاج السابق للتخدير هو نفسه سواء أكان التخدير عاماً أو نصفياً.

أردت أن أقـــول إنّ الأدويـــة الإعدادية قد تجعلني مشوّش الذهن وعاجـــزاً عـــن الـــتفكير بوضوح عندما يأتي الدكتور سوان، ولكنها طمأنتني وأخبرتني أنه سيكون هنا في أي لحظة، قبل حتى أن يبدأ مفعول الأدوية. لهذا لم أناقش المسألة أكثر، وأخذت حقنة الدواء.

بعـــد فتـــرةٍ وجيـــزة جداً أصبح فمي جافاً، وبدأت أرى بقعاً والـــتماعات أمـــام عينَيّ، وانتابني شعورٌ حالم سخيف. قرعت الجرس مـــستدعياً الممرّضة. كانت الساعة التاسعة إلا ربعاً؛ لم أرفع عينَيّ عن الـــساعة مـــنذ حقني بالأدوية. سألتها عمّا تمّ إعطاؤه لي، وعرفت أنها الأدويـــة المعتادة - الفنرغان والهيوسين - المستخدَمة للخُدار. تأوّهت سرّاً: سأكون مُضعَفاً ومجرَّداً من قِواي بسبب الأدوية.

حـــضر الدكتور سوان عند الساعة التاسعة إلا سبع دقائق، ووجدني أحـــدِّق في ســـاعة يدي. كان انطباعي اللحظي عنه أنه رجلٌ خجولٌ

جـــداً، ولكـــنه تغيّـــر على الفور ما إن سمعت صوته الواثق النابع من القلب.

قال بصوتٍ عالٍ: "حسناً، كيف حالنا اليوم؟".

أجبت بصوتٍ مشوّش: "أشجّع نفسي".

أكمـــل بصوتٍ حثيث: "لا داعي للقلق. لقد مزّقتَ وتراً. سنعيد وصـــله، ونـــسترجع التـــرابط. هذا كل ما في الأمر... لا شيء على الإطلاق".

قلت ببطء: "ولكن...". ولكنه كان قد غادر الغرفة بالفعل.

كنت خائر القِوى وكسولاً بسبب الأدوية، ولهذا تطلّب مني قرعُ الجرس لاستدعاء الأخت جهداً كبيراً.

قالت: "ما الأمر؟ لماذا استدعيتني؟".

قلـــت متلفّظاً كلماتي بوضوح: "الدكتور سوان... لم يمكث إلا قليلاً. لقد دخل وخرج. بدا في عجلة كبيرة من أمره".

أجابـــت بحنق: "حسناً، إنه رجلٌ مشغول جداً. أنت محظوظ لأنه وجد وقتاً ليزورك".

كـــان طبـــيب التخدير قد طلب مني أن أعدّ بصوتٍ عالٍ، أثناء حقـــني بالبنـــتوثال IV. راقبته بلا حراك وقد أدخل الحقنة إلى الوريد وســـحب بعض الدم للتأكّد ومن ثمّ حقنني ببطء. لم ألاحظ شيئاً؛ لم يكن هناك أي ردّ فعل من أي نوعٍ كان. عندما وصلت بالعدّ إلى الرقم تسعة، جعلني دافعٌ ما أنظر إلى ساعة الحائط. أردت أن أمسك بلحظتي الأخـــيرة من الوعي وأن أبقى فيها ببقائي مُركّزاً. ما إن نظرت، حتى رأيت أنّ شيئاً كان غير صحيح.

قلـــت كالمخمـــور: "عقرب الثواني... هل توقّف بالفعل، أم أنني واهم؟".

ألقـــى طبيب التخدير نظرةً سريعة على الساعة وقال: "نعم، لقد توقّف. لا بدّ أنه علق".

كانت هذه الذكرى الأخيرة لي قبل أن أفقد الوعي.

أمـــا الذكرى التالية لي، أو الذكرى الأولى لاستعادتي الوعي، فلا تـــستحق تمامـــاً كلمة "التالية". كنت مستلقياً في السرير، وشعرت أنّ أحدهم يهزّني أو يدعوني باسمي. فتحت عينَيّ، ووجدت الطبيب المُقيم منحنياً فوقي.

قال: "كيف تشعر؟".

أجبت بصوتٍ أجشّ وعنيف بالكاد ميّزته على أنه صوتي:"كيف أشـــعر؟ سأخبركَ عن شعوري! إنه فظيع! بالله عليك ما الذي يجري؟ قبل بضع دقائق كانت ركبتي بخير، **والآن**، هي تؤلمني بشدة!".

ردّ الطبـــيب: "لم يكن هذا قبل بضع دقائق يا دكتور ساكس. كان ذلك قبل سبع ساعات. لقد خضعت لعملية جراحية، كما تعرف".

قلـــت مـــشدوهاً: "يـــا الله!". لم يخطر لي أنني قد خضعت، أو قد أخـــضع، لعملـــية. لم يكـــن هناك أي إحساس من أي نوعٍ كان بالزمن "التالي" أو "الوسطي"، أو بأنّ الزمن قد مرّ، أو بأنّ أيّ شيء قد "حدث".

قلت برزانة: "حسناً، حسناً. كيف كانت؟".

أجاب بهدوءٍ: "جيدة. لا مشاكل على الإطلاق".

"وركبتي، هل استُكشِفت بشمول؟".

تـــردّد الطبيب، أو بدا أنه تردّد، ثم قال أخيراً: "لا تقلق. يجب أن تكون الركبة بخير. لم نتعرّض لها. شعرنا أنها بحالة جيدة".

لم يطمئني قوله ولا النبرة التي قيل بها، وقد كانت فكرتي الأخيرة قبل أن أسترسل في النوم مرةً أخرى، هي أنهم ربما أغفلوا إصابةً حاسمةً للركبة، ويُحتمَل أنني لم أكن في أيدٍ جديرة بالثقة.

بصرف النظر عن الحديث مع الطبيب المُقيم، وهو حديث تذكّرته بدقّة، وسجلّته حرفياً، فإنّ ذكرياتي للثماني والأربعين ساعة التالية للعملية كانت شبه منعدمة. كنت محموماً، ومصدوماً، وسُمِّياً، وكان هناك ألمٌ شديد في ركبتي. تمّ إعطائي جرعات من المورفين كل ثلاث ساعات. مررت بفترات هذيان لا أذكر منها شيئاً. شعرت بالغثيان على نحوٍ فظيع، وكان إحساسي بالعطش شديداً، ولكن لم يُسمَح لي إلا برشفات قليلة من الماء. لم أستطع أن أتبول، وكان لا بدّ من إقحام قثطار. كان هذان اليومان يومَين ضائعَين.

لم أستفق فعلياً حتى مساء الأربعاء، أي بعد يومين من عمليّتي الجراحية؛ كانا يومَين ضائعَين تماماً، على الأقلّ في ما يتعلّق بأي وعي مترابط أو متتابع. عدتُ إلى الوعي على نحوٍ مفاجئ إلى حدٍّ ما، حيث تلاشت الحمّى واختفى الهذيان، وخفّ الألم إلى حدٍّ كبير أمكن معه إيقاف حقن المورفين، كما تمّ انتزاع القثطار، تلك الأداة البغيضة، وأصبح بإمكاني أن أتبول بحرية. شعرت بالانتعاش عقلياً وجسدياً بشكلٍ رائع، الأمر الذي قد يبدو غريباً لشخصٍ خضع لعملية جراحية كبيرة، وصُدِم نتيجةً لتلف النسيج، وعانى من الحمّى والهذيان خلال كل ذلك، ولكن تلك هي الطريقة: يرتدّ المرء فجأةً، كما يقولون، ثم يُنشَّط، ويتجدّد. يصبح المرء تقريباً رجلاً جديداً.

هبّ نسيمٌ عليل خاطف من خلال النافذة. كان نسيماً مسائياً عذباً، يحمل معه أصوات الطيور تزقزق زقزقات المساء في الساحة الرباعية خارجاً. أخذت نفساً عميقاً بسرور، وغمغمت دعاء الشكر لهذا الشفاء السريع والجميل. بعد أن حمدت الله، شكّرت الجرّاح والموظّفين لمساعدتي على اجتياز محنتي، وكل الرجال الطيّبين في النرويج الذين أوصلوني إلى برّ الأمان. فكّرت في أنني قبل ست وتسعين ساعة

من الآن كنت أتلمّس طريقي في الغسق على جبل بارد في النرويج، في أرض الظلام وفي ظلّ الموت. حمداً لله أنني عدت مجدداً إلى أرض الحياة!

تمدّدت بتنعُّم، وقد ذكّرني هذا الفعل فجأةً، عندما شددت على الجبس، بأنّ لديّ جبيرة، وساقاً في الجبيرة! حسناً، كانت هناك... أو جـزءٌ صغير منها على أي حال، حيث حافة الفخذ في الأعلى، وقدمي، حمراء وردية ومنتفخة قليلاً، في الأسفل. كان رائعاً أن أفكّر في أنّ الارتباط قد استُرجِع، والوتر أعيد وصله، وكل شيء في وضعه الصحيح. كل شيء كان على ما يرام، وكل شيء سيكون على ما يُرام. سيستغرق الأمر وقتاً بلا شك. عليّ أن أتوقّع شهراً أو نحو ذلك في المستشفى، ثمّ شهرين نقاهة. سيكون هناك بعض الضمور العضلي تحت الجبيرة -كثيراً ما رأيت كم تضمر العضلة الرباعية الرؤوس بسرعة مع الراحة في الفراش وعدم الاستعمال - ولا يمكنني أن أتوقّع عودةً فورية للقوة الكاملة للساق أو لاستعمالها... لقد تفهّمت كل هذا، وتقبّلته؛ تقبّلته بسرور. كان ثمناً صغيراً لأدفعه مقابل إنقاذي من الموت أو من عجزٍ مدمِّرٍ دائم. ولكنّ النقطة الأساسية كانت، بالطبع، هذه: أنني قد نجوت، بما يشبه المعجزة، من الموت، وأنّ إصابتي قد عولجت بواسطة جرّاح بارع، وأنّ بحثاً دقيقاً خلال العملية لم يجد شيئاً تالفاً باستثناء الوتر، وأنّ استرداد العافية سيكون سهلاً، وأنه لم تحدث أي "مضاعفات" من أي نوعٍ، وليس من المُتوقَّع حدوثها.

سيكون جميلاً أن أشدّ العضلة الرباعية الرؤوس مرة أخرى، وأن أشعر مُجدّداً بقوّتي وسيطرتي، اللتين فُقدتا على نحوٍ مقلقٍ جداً عندما مُزِّق الوتر. الآن كان الوتر موصولاً مرة أخرى، وسأجعل العضلة تعمل من جديد، وسأبنيها بأقصى سرعة ممكنة. أنا أعرف جيداً كيف

أبني قوّتي وعضلاتي، كوني متمرّساً في ذلك منذ أيامي في رفع الأثقال. سأُدهش الجميع، وأتباهى بما يمكنني فعله!

متفائلاً ومبتسماً، شددت العضلة الرباعية الرؤوس، وعلى نحو لا يمكن تفسيره، لم يحدث شيء... **لا شيء على الإطلاق**. أو على الأقلّ لم أشعر بأي شيء، ولكنني لم أكن أنظر. ربما كان هناك انقباض صغير فقـــط. حاولت مرةً أخرى - شددت بقوة هذه المرة - مراقباً العضلة الـــرباعية الرؤوس بإمعان أعلى الجبيرة. مرة أخرى، لم يحدث شيء؛ لا شـــيء واضح أبداً، ولا أثر لأي انقباض على الإطلاق. قبعت العضلة خاملـــة وســـاكنة، ولامبالـــية بـــإرادتي. مرتجفاً، وضعت يدي عليها لأتحسّـــسها. أتاحـــت لي الجبيرة (التي كانت على ما يُفترَض مُحكمة التفـــصيل بعد الجراحة) أن أضع قبضتي بأكملها تحتها. كانت العضلة ضامرة بشكلٍ هائل.

تـــوقّعت بعض الضمور فقط نتيجةً لعدم الاستعمال. ولكن **ما** لم أتـــوقّعه، ومـــا استوقفني على أنه أمرٌ غريب ومزعج هو أنني وجدت العـــضلة رخوة كلياً، بشكلٍ رهيب وغير طبيعي، وبصورةٍ لا يمكن أن تنشأ عن عدم الاستعمال فقط. وبالفعل، لم تبدُ كعضلة على الإطلاق، بـــل كانـــت أشبه بجبنٍ أو هلامٍ طري تعوزه الحيوية. كانت تفتقر إلى نابضية وتوتّر العضلة الطبيعية. لم تكن "مترهِّلة" فقط، بل كانت **واهنة** كلياً.

انـــتابني إحساسٌ مفاجئ بالرعب، وارتعدت. ثمّ كُبِح انفعالي هذا علـــى الفور أو كُبت. كان من السهل جداً أن أحوِّل انتباهي إلى أمورٍ أخرى أكثر إسراراً. سأجد، من دون شكّ، أنني كنت مخطئاً بطريقةٍ أو بأخرى - مثل وضع المفتاح بشكلٍ مقلوب في القفل - وسأكتشف في الصباح أنّ كل شيء يعمل بصورة جيدة.

سيأتي والدي وأصدقائي لزيارتي قريباً. كنت قد سألت الموظّفين أن ينشروا خبر تماثلي للشفاء واستعدادي للاستقبال. وبالنسبة إلى ذلك الهــراء المتعلّق بالساق، فليس إلا مجرّد هراء. سيأتي المعالج الفيزيائي في الصباح، وسنختبر معاً قوة تلك الساق اللعينة.

أمضيت أمسية رائعة، كانت بمثابة احتفال بالفعل. كم كان جميلاً أن أحظــى بأصدقائي حولي، أصدقائي الذين "حلمت بشأنهم" عندما ظننت أنــني كنت أموت على الجبل (أخبرتهم القصة، ولكنني لم أخبرهم **ذلك**). كانت أمسية جميلة سعيدة بهيجة تقاسمنا فيها الشراب، بالرغم من اعتراض وغــضب المــشرف الليلي في المستشفى. كما كانت أيضاً مُطَمئِنة جداً لأصــدقائي، لأنني اعتذرت عن رؤيتهم مساء الأحد، ولكنني اتصلت بهم، مــرعوباً، طالــباً منهم أن يكونوا منفّذي وصيّتي في حال حدوث شيء. حــسناً، لم يحدث شيء، وكنت مفعماً بالحياة إلى أقصى حدّ. كنت حياً، وكانــوا أحياء. كنا جميعاً نبنض بالحياة... متعاصرين، ومتعايشين، كرفاق سـفرٍ في رحلــة الحياة. في تلك الأمسية، في الثامن والعشرين من الشهر، وســط ابتسامات أصدقائي وضحكاتهم (وأحياناً دموعهم)، شعرت، كما لم أشــعر أبــداً من قبل، بما عنته الحياة؛ ليس أن تكون حياً فقط، بل أن تتقاســم الحياة، وأن تكون حياً **مع الغير**. كانت وحدتي على الجبل، بمعنىً من المعاني، أكثر حزناً من الموت.

بلغت روعة الأمسية وبهجتها حداً جعلنا كارهين للانفصال.

"كم تظنّ أنّ ساقك ستبقى في هذه الجبيرة؟".

"ولا دقيقة أكثر من اللازم؛ حالما أستطيع التخلّي عنها. يجب أن أكون قادراً على المشي في غضون أسبوعين".

استلقيت في وهجٍ من الشعور الجيد والرفقة الجيدة عندما غادروا، ثمّ استغرقت في النوم خلال بضع دقائق.

لكـــن، داخلاً في أعماقي، لم يكن **كل** شيء على ما يرام. كان لديّ بالفعل إحساسٌ خاطف مخيف بشأن ساقي، ولكنني قد تدبّرت – ظنـــنت أنـــي فعلـــت ذلـــك بنجاح – أن أصرفه عن ذهني على أنه "ســخيف" أو "غير صحيح"، وهو، بالطبع، لم يلقِ بظلّه على روحي المعـــنوية في أمسيتنا البهيجة. كنت قد "نسيته" بالفعل... نسيت كل شيء بشأنه. ولكنه كان لا يزال كامناً في أعماقي.

في الليل، عندما هبطتُ إلى الأعماق (أو عندما ثارت الأعماق وبرزت إلى السطح)، رأيت حلماً رهيباً، زاد من رهبته أنه بدا واقعياً جـــداً وغـــير شبيه بالأحلام. كنت على الجبل مرةً أخرى، أكافح عاجـــزاً لتحـــريك ساقي والوقوف عليها. لكن – كان هذا، على الأقل، دمجاً لا يحدث إلا في الأحلام – بدا أنّ هناك خلطاً غريباً بين الماضـــي والحاضر. كنت قد وقعت لتوّي ومع ذلك كانت الساق مخـــيطة – حيث كان بإمكاني أن **أرى** صفّ الغُرَز الدقيقة الصغيرة. فكّـــرت: "رائع! لقد عاد الارتباط. لقد جاؤوا بالمروحية، وخاطوا ســـاقي في الموقـــع! لقـــد أعيد وصلي، وأنا جاهزٌ للمتابعة!" لكنّ الساق، لسببٍ ما، لم تتزحزح إطلاقاً، بالرغم من أنها كانت مخيطة بشكلٍ دقيق وبارع. عندما حاولت أن أستعمل ساقي وأقف عليها، لم يكـــن هناك أي شدّ، ولا حتى حركة ضئيلة لليفٍ عضلي واحد. وضـــعت يدي على ساقي وتحسّست العضلة. كانت طرية ورخوة، مـــن دون توتّـــر أو حـــياة. قلت في حلمي: "يا الله! ثمة شيء في الموضوع؛ شيء مفزع تماماً. لقد **قُطعت أعصاب** العضلة بطريقة أو بأخرى. ليس الوتر فقط هو الذي مُزِّق؛ لقد تلاشى إمداد العصبٍ!" شـــددت وشـــددت، ولكن من دون فائدة. قبعت العضلة ساكنةً وخاملة، كما لو كانت ميّتة.

صحوت من هذا الحلم، مرعوباً، والعرق يتصبّب مني، وحاولت فعلياً أن أشدّ العضلة الرخوة (كما كنت، ربما، أفعل في حلمي). لكن من دون جدوى؛ كانت خاملةً كما في الحلم تماماً. وقلت لنفسي: إنه الشراب. أنت هاذٍ ومُثار. أو ربما لست صاحياً، ولكنك في حلمٍ آخر. عد إلى النوم- نومٍ عميق مريح – وستجد أنّ كل شيء على ما يُرام في الصباح".

استغرقت في النوم مجدّداً، ولكنني دخلت أرض الأحلام مرةً أخرى. كنت على ضفة نهر مكسوّة بأشجار مُورقة هائلة رقّشت ظلالها مياه النهر المترقرقة. كان الجو هادئاً بصورةٍ لا مثيل لها، هادئاً بشكلٍ ملموس، وقد لفّني ذلك الهدوء العميق مثل عباءة. كنت قد خرجت لأرقب سمكة جديدة استثنائية، قيل إنها سمكة رائعة بالرغم من أنّ قلّة من الناس قد رأوها، وقد بلغ مسامعي أنها سُمِّيت "الخرافية". انتظرت بصبر، بجانب وِجارها، لبعض الوقت، حاملاً معي منظاري وآلة التصوير، ثمّ صفّرت وصفّقت، ورميت حجراً في الماء، لأرى إن كان بإمكاني أن أُوقِظ السمكة الكسولة.

على نحوٍ مفاجئ جداً، رأيت حركةً في الماء، أو إثارةً بدا أنها صادرةٌ من أعماق لا يمكن تخيُّلها. بدت المياه كما لو كانت تُمتَصّ في الوسط، تاركةً حيّزاً شاسعاً. تفيد الأسطورة أنّ بإمكان "الخرافية" أن تبتلع النهر بأكمله بجرعة واحدة. في هذه اللحظة تغيّر انشداهي إلى رعب، لأنني أدركت أنّ الأسطورة كانت حقيقية بالفعل. من الحيّز الشاسع الذي أنشأته، ظهرت "الخرافية" من الأعماق بروعةٍ جلالية، بيضاء متغضّنة، مثل موبي ديك، باستثناء رأسها الذي برز منه قرنان، ووجهها الشبيه بوجه حيوان ضخم متفرِّس.

الآن، حـــوّلت الـــسمكة، غاضـــبةً، نظرتها المحدِّقة إليّ، بعينين ضخمتين منتفختين، مثل عينَيّ ثور، ولكنه ثور قادرٌ على سحب النهر بأكملـــه إلى داخـــل فمه، وبذيلٍ حرشفي ضخم بقدر ضخامة شجرة أرز.

عـــندما أدارت وجههـــا الضخم ناحيتي، وحدّقت بـــي بعينيها المنتفخـــتين، تملّكني ذعرٌ جامح ورهيب، وحاولت مسعوراً أن أقفز إلى الخلـــف نحو الأمان، **أعلى** ضفة النهر خلفي. لكنني لم أستطع أن أثب. صـــدرت الحـــركة مني بصورةٍ غير صحيحة، وبدلاً من أن تقذفني إلى الخلـــف قذفتني بعنفٍ إلى الأمام، تحت ما رأيت الآن أنه كان **حوافر** السمكة...

أدّى عـــنف حركتي المفاجئة إلى إيقاظي مرتجّاً، ووجدت أنني قد قبـــضت أوتـــار المأبض بشكلٍ عنيف للغاية في أثناء نومي... إلى الحدّ الأقصى. كان عقبـــي الأيمن قد رفس ردفي فعلياً، بينما كان عقبـــي الأيسر مرتطماً بحافة الجبيرة. كان صباحاً مشرقاً ساطعاً. هذا ما أمكنني أن أراه، لأنّ الـــضوء يمكن أن يدخل من دون أن يخبر شيئاً عن الريح، والأصوات، والروائح (كانت السقالة التي ارتفعت خارج النافذة على بُعـــد قـــدمٍ (30 سنتيمتراً) على الأكثر منها، تحجب الرؤية، والنمط، والتفاصيل). كان صباح خميس مشرقاً، وكان بوسعي أن أسمع صوت عـــربة الشاي في الرواق، وأشمّ رائحة الخبز المحمّص بالزبدة! وشعرت فجـــأةً بشعورٍ رائع؛ كان هذا صباح الحياة: استنشقت الهواء المنعش، ونسيت أحلامي الفظيعة.

سألتني الممرّضة الجاويّة الصغيرة: "شاي أو قهوة دكتور ساكس؟".

أجبـــتها: "شـــاي. إبـــريق كامل من الشاي! وعصيدة، وبيض مسلوق، وخبزٌ محمَّص بالزبدة مع مربّى!".

نظـــرت إليّ مندهشة بعينين فاغرتين، لوزيتين، وعذبتين. قالت: "حسناً. أنت **أحسن** حالاً اليوم! لم ترد شيئاً في اليومين الفائتين سوى بـــضع رشـــفات مـــن الماء. أنا مسرورة جداً لأنك تشعر بالارتياح مُجدّداً".

نعـــم، هكـــذا كنت. شعرت بارتياح وسرور، ونشاط متجدّد، ورغبة في التمرين والحركة. كنت دائماً نشيطاً، وكان النشاط أساسياً بالنـــسبة إلي. أحببت كل الحركة... حركة الجسم السريعة، وكرهت فكرة الاستلقاء بكسلٍ في الفراش.

وقـــع نظـــري على قضيب معدني معلّق من الحافة العليا للسرير، شـــبيه بأرجـــوحة البهلوان. مددت يديّ إليه، وقبضت عليه بإحكام، وأدّيـــت تمرين رفع الذقن عشرين مرة. حركة جميلة، وعضلات جميلة، كان لفِعلها تأثير بهيج على نفسي. استرحت، وأدّيت مجموعةً أخرى - ثلاثـــين هـــذه المرة - ومن ثم استلقيت على ظهري مستمتعاً بالشعور الجيد.

نعـــم، لا أزال لائقاً بدنياً، بالرغم من الإصابة، والجراحة، وتلف النسيج. كانت تأديتي لتمرين رفع الذقن خمسين مرة أمراً جيداً للغاية، بالنظـــر إلى أنني كنت هاذياً ومصدوماً قبل خمس عشرة ساعة فقط. لم يمـــنحني ذلـــك السرورَ فحسب، بل الثقة أيضاً؛ الثقة بجسدي الجيد، وقوّته، ومرونته، واستعداده لاسترداد عافيته.

أُخبرت أنّ المعالجة الفيزيائية ستأتي بعد الفطور. كانت من الطراز الأول حـــتماً، كما قال الجميع، وسنبدأ العمل معاً، لنجعل ساقي تلك قـــويةً، وحسنة النظام، ومنسجمة مع بقية الجسد. **شعرت** بطريقة ما مـــثل ســـفينة عندما قلت لنفسي "حسنة النظام *ship-shape*"؛ سفينة حـــية... ســـفينة الحياة. أحسست أنّ جسدي كان بمثابة السفينة التي

جُلــت بهــا الحياة، بكل أجزائها: أضلاع قوية، وبحّارة مهرة يعملون بتناغم معاً، تحت توجيه وتنسيق القائد، الذي هو أنا.

جاءت المعالجة الفيزيائية بعد التاسعة بقليل. كانت امرأةً رياضية ذات لكنة لانكشرية، ترافقها مساعِدةٌ أو طالبة، هي فتاة كورية رزينة ذات عينين مُسبلتَين.

زأرت بصوتٍ يمكن أن ينتقل صداه عبر حقلٍ بأكمله: "الدكتور ساكس؟".

قلت بهدوء، حانياً رأسي: "سيدتي!".

مدّت يدها نحوي، وقالت بصوت أقلّ علوّاً: "يسعدني لقاؤك".

أجبتها بصوتٍ رخيم، مصافحاً: "يسعدني **لقاؤك**".

"كــيف حــال الــساق العتيدة؟ كيف تشعر؟ لا بدّ أنها تؤلمك بشدة".

"لا، لا تؤلمني كثيراً الآن؛ مجرد التماع بين الحين والآخر. ولكنها تبدو مضحكة نوعاً ما، فهي لا تعمل كما يجب".

فكّــرت ملياً للحظة، ثم قالت: "حسناً، دعنا نلقي نظرة عليها، ونشرع في العمل".

أزاحــت الملاءة، كاشفةً الساق، وبينما فعلت ذلك، رأيت نظرة فــزعٍ مفاجــئة على وجهها. ولكنها استُبدِلت على الفور بتعبيرٍ رزين جــدّي يــنمّ عن اهتمام احترافي. بدت فجأة أقلّ مرحاً وأكثر هدوءاً ومنهجية. أخرجت شريط قياس، وقاست الفخذ ثمّ الجانب السليم من أجــل المقارنــة. بدت مُنكِرةً للقياسات، وأعادت القياس مرةً أخرى، مُلقيةً لمحة سريعة على الفتاة الكورية الصامتة.

قالــت أخيراً: "نعم يا دكتور ساكس. لديك ضمورٌ لا بأس به. لقد ضمرت العضلة الرباعية الرؤوس حوالى ثمانية عشر سنتيمتراً، كما تعرف".

قلت: "يبدو هذا كثيراً. ولكنني أفترض أنها ضمرت بسرعة جداً نتيجةً لعدم الاستعمال".

بدا أنّ سماعها لكلمة "عدم الاستعمال" قد أراحها. وغمغمت لنفسها: "نعم، عدم الاستعمال. أنا أكيدة بأنّ كل هذا الضمور يمكن أن يُعزَى إلى عدم الاستعمال".

وضعت يدها على الساق مرةً أخرى، وجسّت العضلة، وللمرة الثانية ظننت أنني رأيت نظرة فزعٍ وقلق على وجهها، وربما أثراً لاشمئزازٍ مكشوف، كما عندما يلمس المرء شيئاً يكون طرياً ومتلوّياً على نحوٍ غير متوقّع. حين رأيت هذا التعبير - الذي تلاشى على الفور، كما في المرة السابقة، وحلّ محلّه تعبيرٌ احترافي لطيف - عادت إليّ جميع مخاوفي، التي كنت قد كبحتها، مُضاعفَةً.

قالت بذلك الصوت الهادر: "حسناً، حسناً. دعنا من كل هذا؛ الجسّ، والقياس، والحديث، وما شاكل. دعنا **نفعل** شيئاً".

سألتها بهدوء: "ماذا؟".

"اقبض العضلة؛ ما رأيك؟ أريدك أن تشدّ العضلة على هذا الجانب. لستُ بحاجة إلى أن أخبرك كيف. شدّ العضلة فحسب. حرّكها للأعلى الآن؛ حرّكها للأعلى مباشرةً تحت يدي. هيا، أنت لا تحاول. افعل ذلك مع الساق الأخرى".

شددت العضلة على الجانب الأيمن بقوةٍ وسرعة. ولكن لم يكن هناك أي أثرٍ للشدّ، أو الحركة، عندما حاولت ذلك على الجانب الأيسر. حاولت مراراً وتكراراً من دون نتيجة.

قلت بصوتٍ خفيض: "يبدو أنني لست بارعاً في هذا".

ردّت بصوتٍ هادر: "لا يصيبنّك الإحباط. هناك الكثير من الطرق المختلفة. يجد العديد من الناس الشدّ - الانقباض المتقايس

(الإيـــسومتري) - عويصاً. يحتاج المرء إلى أن يفكّر في الحركة نفسها، ولـــيس بالعضلة. لا تنسَ أنّ الناس يتحرّكون، **يقومون** بأشياء. هم لا يشدّون عضلاتهم. ها هي الرضفة، مباشرة تحت الجبيرة". طرقت على الجـــبيرة بأظافـــرها القوية، وانبعث منها صوتٌ غريب طباشيري غير عـــضوي. قالت: "حسناً، شدّها فقط نحوك. شدّ أعلى ركبتك للأعلى مباشرةً؛ لن تجد صعوبةً الآن بعد وصل الوتر".

شـــددت. ولكـــنّ شيئاً لم يحدث. شددت مرةً أخرى، وأخرى. شددت حتى بدأت ألهث وأنخر بسبب الإجهاد. ولكن لم يحدث شيء، لا شيء على الإطلاق، ولا حتى رعشة أو رجفة. قبعت العضلة ساكنةً مثل بالون مفرّغ من الهواء.

بدأت المعالجة الفيزيائية تبدو مهتاجةً ومُحبطة. قالت لي، محتدّةً، بصوتها المصمِّم: "أنت لا تحاول يا ساكس! أنت لا تحاول فعلاً!".

أجبـــتها بضعف وأنا أمسح العرق عن جبيني: "بدا لي أنني بذلت الكثير من الجهد".

قالت مُكرهةً: "نعم، بدا مثل عملٍ شاق. ولكن لم يحدث شيء! حـــسناً، لا تقلق، فلدينا طرق أخرى! إنّ شدّ الرضفة لا يزال متقايساً بطـــريقة ما، وقد يكون أصعب لأنك لا تستطيع أن **ترى** رضفتك". قامـــت بالطرق على الجبيرة العاتمة ببراجمها هذه المرة، كما لو كانت تقرع باباً للدخول.

قلت مقترحاً: "سيكون جميلاً أن يصنعوا جبائر شفّافة".

أومأت برأسها بقوة: "والأفضل من ذلك أن لا يستخدموا جبائر علـــى الإطلاق. إنها أشياء خرقاء للغاية، وتسبّب جميع أنواع المشاكل. ســـيكون مـــن الأفضل كثيراً أن يمنعوا المفاصل من الحركة باستخدام رِباط، ولكنك لا تستطيع أبداً أن تقول هذا لمجبِّر عظام.كم يعرفون عن

العـــلاج الفيزيائي!" توقّفت فجأة مُحرَجةً، وقالت بصوت مختلف جداً عـــن صـــوتها المصمِّم: "لم أقصد قول ذلك. لقد زلّ لساني فحسب! ولكـــن...". تردّدت قليلاً، ولكنها تابعت بعد أن رأت نظرتي المتفهّمة والمـــشجّعة: "أنا لا أقول شيئاً ضدّ مجبِّري العظام - هم يقومون بعملٍ رائـــع - ولكن لا يبدو أبداً أنهم يفكّرون في شأن الحركة أو الوضعية؛ الطـــريقة الـــتي **تتحـــرّك** بها ما إن يكون التركيب البنيوي للعضو قد صُحِّح".

فكّـــرت في زيـــارة سوان الخاطفة قبل الجراحة، وبقوله: "سنعيد وصـــله، ونسترجع الترابط. هذا كل ما في الأمر". وجدت نفسي أميل إلى هذه المعالجة الفيزيائية الجيدة.

قلـــت مُلقـــياً نظرةً سريعة على البطاقة التي تحمل اسمها: "الآنسة برســـتون. أعـــتقد أنّ ما تقولينه منطقي جداً، وأتمنى لو أنّ المزيد من الأطـــباء يفكّرون مثلك. لقد وضع معظمهم رأسه في جبيرة" - والآن كان دوري لأطرق على الإسطوانة الطباشيرية تأكيداً لقولي - "ولكن بالعودة إليّ، ماذا عليّ أن أجرّب الآن؟".

قالـــت: "أنـــا آســـفة. لقد جرفتني الحماسة... دعنا نقوم بجولة أخـــرى. سيكون الأمر سهلاً ما إن تبدأ العضلة بالتحرّك. كل ما أنتَ بحاجة إليه هو انقباضٌ صغيرٌ واحد. إنها تلك الانتفاضة العضلية الصغيرة الأولى، ومـــن ثمّ ســـتتابع من هناك. سأخبرك ماذا سنفعل..."، وهنا أصبح صوتها متعاطفاً وودوداً، "كان من المفترض أن تقوم فقط بتمارين تقايـــسية الـــيوم، ولكن من المهم جداً أن تحقّق نجاحاً. أعرف كم هو مـــزعج بالنسبة إليك أن تستمر في المحاولة من دون نتيجة. من السيئ جداً أن تنتهي بإحساس تعيس بالفشل. سنجرّب انقباضاً **فعالاً**، وشيئاً يمكـــنك أن تتصوره. أنت لا تريد أن ترفع ساقك، ولكنني سأتحمّل كل

الثقل. سأرفع ساقك اليسرى بلطفٍ ورفق عن السرير، وكل ما عليك فعلـــه هو أن تشارك وتساعدني... يجب أن تكون في وضع جلوس". وأومـــأتْ إلى الطالبة الكورية الشابة، التي سارعت إلى وضع الوسائد خلـــف ظهـــري بـــشكلٍ أصبحتُ فيه بوضع جلوس. "نعم، يجب أن يـــساعد هذا في حدوث فِعل العضلة القابضة الوركية بشكلٍ لطيف. مستعد؟".

أومأتُ برأسي شاعراً أنّ هذه المرأة تفهم بالفعل، وستساعدني من دون غيرها في تحريك ساقي. حضّرت نفسي لبذل مجهودٍ خارق.

ضـــحكت الآنـــسة برستون: "لا داعي لأن تستجمع قِواك بهذا الـــشكل. أنت لا تحاول أن تحطم رقماً قياسياً في رفع الأثقال. كل ما ستفعله الآن هو أن ترفع معي... إلى الأعلى، إلى الأعلى... افعل ذلك معي... المزيد من الجهد بعد... نعم، ها هي ستتحرك...".

لكـــن لم يـــبدُ أنهـــا تتحرّك. لم تتحرّك... لا شيء تحرّك على الإطلاق. كان بإمكاني أن أرى هذا في وجه الآنسة برستون، كما رأيته في الـــساق، التي كانت ثقلاً ميتاً في يديها، من دون أيّ قوة أو حياة؛ مثل هلام، أو بودنغ، معبّأ في جبيرة. رأيتُ قلقي وخيبة أملي مكتوبَين بـــشكلٍ واضح مكشوف على وجه الآنسة برستون، الذي فقد مظهره الدالّ على اللامبالاة الاحترافية، وأصبح مفعماً بالحياة ومنفتحاً، وشفّافاً وصادقاً.

قالت بصدق: "**أنا** آسفة. ربما لم تحاول كما يجب هذه المرة. دعنا نحاول مرةً أخرى".

حاولـــنا مـــرةً بعد أخرى. ومع كل إخفاق، وكل خيبة، كانت فـــرص الـــنجاح تتضاءل شيئاً فشيئاً، وكان إحساسي بالعجز وانعدام الجدوى يزداد قوة.

قالـــت: "أعرف كم تحاول. ومع ذلك، يبدو الأمر كما لو كنت لا تحـــاول علـــى الإطلاق. أنت تبذل كل هذا الجهد، ولكنّ الجهد، بطريقة أو بأخرى، لا يتدبّر **فعل** شيء".

كـــان هذا هو ما شعرت به أنا أيضاً. شعرت أنّ الجهد يهدر بلا جـــدوى، وبلا تركيز، إذا جاز التعبير. وشعرت أنّ ما أقوم به لم يكن "محاولةً" فعلاً، و لم يكن "إرادةً" فعلاً، لأنّ كل "الإرادة" هي الرغبة في **شـــيء**، وقـــد كـــان ذلك الشيء بالضبط هو المفقود. كانت الآنسة برســـتون قد قالت لي في بداية جلستنا: "شدّ العضلة الرباعية الرؤوس. لـــست بحاجة إلى أن أخبرك كيف". ولكن لقد كانت هذه "الكيفية"، هـــذه الفكـــرة نفسها، هي المفقودة بالضبط. لم يعد بإمكاني أن أفكّر كيف أقبض العضلة الرباعية الرؤوس. لم يعد بإمكاني أن "أفكّر" كيف أشدّ الرضفة، ولا أن "أفكّر" كيف أقبض الورك. وبالتالي، فقد انتابني إحساسٌ بأنّ شيئاً قد حدث لقوة "تفكيري"، بالرغم من أنه متعلّق فقط بهـــذه العـــضلة وحدها. شاعراً بأنني قد "نسيت" شيئاً - شيئاً واضحاً تمامـــاً، واضحاً على نحوٍ سخيف، ولكنه غاب عن ذهني بطريقة ما - جرّبت بالساق اليمنى. لم أجد صعوبةً على الإطلاق. وبالفعل لم يكن علـــيّ أن "أحـــاول" أو أن "أفكّر". لم تكن هناك ضرورة لأي جهد إرادي أو فكري، فقد قامت الساق بكل شيء بشكلٍ طبيعي وسهل. حاولـــت أيـــضاً، بناءً على اقتراح الآنسة برستون - "التسهيل" كما أسمته - أن أرفع كلتا الساقين في وقتٍ واحد، على أمل حدوث بعض "التدفّق" أو "الانتقال" من الساق السليمة. ولكن، واحسرتاه، ولا أي أثر! لا "تسهيل" من أي نوعٍ كان!

بعـــد أربعين دقيقة من المحاولات الفاشلة التي أصابتنا أنا والآنسة برستون بالإنهاك والإحباط، كففنا عن العضلة الرباعية الرؤوس. شعرنا

بالارتـــياح عندما بدأت الآنسة برستون في تمرين العضلات الأخرى في الـــساق، حيث جعلتني أحرّك قدمي وأصابعي، وأقوم بحركات أخرى عـــند الـــورك؛ إبعاد عن المحور، تقريب نحو المحور، تمديد، إلخ. عملت جمـــيع العضلات بشكلٍ تلقائي، وفوري، وتامّ، خلافاً للعضلة الرباعية الرؤوس التي لم تعمل على الإطلاق.

كان لجلستي مع الآنسة برستون تأثيرٌ كئيب ومقيت عليّ. فغرابة الأمـــر بأكمله، والهاجس الذي انتابني - والذي كنت قد تدبّرت أن "أنساه" في اليوم السابق، بالرغم من أنه عاد في أحلامي - اكتنفني الآن بكامل قوّته، و لم يعد بإمكاني أن أنكره. استوقفتني كلمة "كسولة" التي كانـــت قـــد اســـتعملتها الآنسة برستون على أنها سخيفة، نوع من الكلمات الدارجة العديمة المحتوى، التي لا معنى واضح لها على الإطلاق. كـــان هـــناك شيء خاطئ، شيء خطير، شيء لا سابق له في تجربتي بأكملـــها. كانت العضلة **مشلولة**؛ لماذا تُوصَف بأنها "كسولة"؟ كانت العـــضلة عديمة التوتّر، كما لو كانت النبضات الداخلة والخارجة، التي تحفـــظ توتّر العضلة طبيعياً وتلقائياً، قد توقّفت كلياً. لقد توقّف السير العـــصبـــي، إذا صحّ التعبير، وكانت شوارع المدينة مهجورة وصامتة. كانـــت الحياة - الحياة العصبية - متوقّفة حالياً، هذا إذا لم تكن كلمة "مـــتوقّفة" متفائلة جداً. تسترخي العضلات في أثناء النوم، ولاسيّما في أثـــناء الـــنوم العميق، ويخفّ السير العصبـــي، ولكنه لا يتوقّف أبداً. تـــستمر العـــضلات في العمـــل ليلاً ونهاراً، بنبضٍ حيوي ودورة من النبضات الدقيقة، التي يمكن إيقاظها في أي لحظة إلى نشاطها الكامل.

حـــتى في الغيبوبة تحتفظ العضلات ببعض النشاط. فهي لا تزال تعمـــل بمعـــدّل بطيء جداً. إنّ العضلات، مثل القلب، لا تتوقّف أبداً خـــلال الحـــياة. ولكـــنّ عـــضلتي الرباعية الرؤوس قد توقّفت، وفقاً

لتقديـــري. كانـــت عديمة التوتّر كلياً ومشلولة، كما لو كانت ميّتة، وليست مجرّد "نائمة". وبما أنها "ميّتة"، فليس بالإمكان "إيقاظها". لا بدّ من **تنشيطها**، من أجل إعادتها إلى الحياة. يقظ ونائم: حيّ وميّت.

لقـــد كان موت العضلة هو ما أثار أعصابـــي. وقد كان الموت شـــيئاً مطلقـــاً، خلافاً للتعب أو المرض. كان هذا هو ما قد شعرت به وكتمته في الأمسية السابقة: الإحساس، أو الهاجس، بأنّ العضلة كانت ميّـــتة. كان صمتها، قبل أي شيء آخر، هو ما أعطاني هذا الانطباع؛ صـــمتٌ كلـــي ومطلق، صمت الموت. فحين كنت أنادي العضلة، لم يكـــن هـــناك جواب لندائي. لم يكن ندائي يُسمَع... كانت العضلة صمّاء. ولكن هل هذا كل ما في الأمر؟ هل يكفي هذا لإعطائي انطباع "الـــصمت"؟ عـــندما ينادي المرء، فهو يسمع نفسه ينادي، حتى لو لم يُلتفَت إلى النداء، أو وقع النداء على آذان صمّاء. ولكن - وقد جعلتني هذه الفكرة أرتعد، وبدا أنها تنقلني إلى عالمٍ آخر، عالمٍ ذي احتمالات أكثر جدّية وغرابة - ألا يُحتمَل أن يكون هذا "الصمت" الذي أتكلّم عنه، هذا الإحساس "بعدم حدوث شيء"، يعني أنني **لم** أكن أنادي فعلياً (أو إذا كنت قد ناديت، فلم يكن بإمكاني أن أسمع نفسي أنادي)؟ لقد كانت هذه الفكرة، أو ما شابهها - المُحذِّرة والمُنذِرة - في بالي بالطبع خلال جلستي مع الآنسة برستون. عمل "المحاولة" العجيب هذا، الذي لم يكـــن محاولـــةً فعلاً، عمل "الإرادة" هذا، الذي لم يكن إرادةً فعلاً، عمـــل "التفكير" هذا، الذي لم يكن تفكيراً فعلاً، عمل "التذكّر" هذا، الذي لم يكن تذكُّراً فعلاً...

مـــا الذي كان يحدث لي؟ لم يكن بإمكاني أن **أحاول**، ولم يكن بإمكـــاني أن أشاء، أو أفكّر، أو أتذكّر. لم أستطع أن أفكّر أو أتذكّر كيف أقوم بحركات معيّنة، كانت "جهودي" المبذولة لفعل ذلك وهمية

للغايــــة وباعثة على السخرية، لأنني فقدت القدرة على "استدعاء" أو "إيقاظ" جزء من نفسي... بدا لي الآن، في أثناء تأمّلي الذي كان يزداد كآبــةً أكثــر فأكثر، أنّ المسألة كلها كانت أكثر تعقيداً، وغرابةً، مما يسعني إدراكه. شعرت بالهاوية تفتح أسفل مني...

صحيحٌ أنّ العضلة كانت مشلولة، و"صمّاء". وصحيحٌ أنّ تدفّقها النبــضي الحــيوي، أو "قلبها"، كان متوقّفاً، وأنها كانت، باختصار، "ميّـــتة"، إلا أنّ كل هذه الأمور، بالرغم من أنها مقلقةٌ بحدّ ذاتها، بدت عديمة الأهمية عند مقارنتها بما كان يتّضح أمامي الآن على نحوٍ مرعب للغايــــة. كانت كل هذه الأمور، بالرغم من بشاعتها، ظواهر موضعية ومحيطــية بالكامـــل، وبالــتالي فهي لا تؤثّر في وجودي الأساسي – **نفــسي** – أكثر من تأثير فقد بعض الأوراق، أو الأغصان، على حياة الــشجرة وجذورها وتدفّق النسغ فيها. ولكن ما كان يتّضح الآن على نحــوٍ مفزع وصارخ، هو أنّ ما حدث، أياً كان، لم يكن فقط موضعياً أو محيطياً أو سطحياً – الصمت الرهيب، النسيان، العجز عن النداء أو التذكّــر؛ بل **كان** جذرياً، ومركزياً، وأساسياً. ما بدا، في البداية، أنه مجـــرد انفصال وتعطّل محيطي موضعي، أبرز نفسه الآن بشكلٍ مختلف ورهــــيب، كانهــــيار في الذاكرة، وفي التفكير، وفي الإرادة؛ **ليس مجرد تلــف في عــضلتي، وإنما تلف فيّ شخصياً**. إنّ صورة نفسي كسفينةٍ حــيةٍ؛ الأضــلاع القوية، والبحّارة المهرة، والقائد الموجّه، أنا – التي عــبرت ذهني صباحاً بصورة مفعمة جداً بالحياة، أعادت تقديم نفسها الآن بــشكلٍ متّــسم بالرعب. ليس الأمر أنّ بعضاً من تلك الأضلاع القــوية كان رديئاً ومتزعزعاً، وأنّ البحّارة المتمرّسين كانوا صمّاً، أو متمــرِّدين أو مفقــودين، بل أنني، أنا القائد، لم أعد قائداً. كنت، أنا القائــد، مــتلف الدماغ على ما يبدو، وأعاني من اختلالات وخيمة،

واضــطّراب شــديد في الذاكرة والتفكير. استغرقت على نحوٍ مفاجئ جداً، ورحيم، في نومٍ شبيه بالإغماء.

بالرغم من أنّ نومي كان عميقاً، إلا أنه قُطِع فجأةً، على نحوٍ فظّ ومـــربِك من قِبَل الممرّضة الجاوّية الصغيرة، الرزينة عادةً، التي اندفعت داخل غرفتي وهزّتني مُوقِظةً إياي. كانت قد اختلست نظرةً من خلال لـــوح الباب الشفّاف، قبل أن تجلب لي الغداء، وما رأته جعلها تُسقط الصينية من يدها وتندفع من خلال الباب.

صاحت مذعورة مرتعدة: "دكتور ساكس، دكتور ساكس. انظر فقط أين هي ساقك؛ ستُوقِع ساقك بأكملها على الأرض!".

قلـــت بكـــسل وأنا لا أزال نصف نائم: "هراء! ساقي هنا تماماً، أمامي، حيث يجب أن تكون".

قالـــت: "ليست كذلك! إنّ نصفها واقعٌ عن السرير. لا بدّ أنك قد تحرّكت في أثناء نومك. أنظر فقط أين هي!".

قلتُ مبتسماً من دون اكتراث: "هيا! الدعابة هي دعابة".

"دكتور ساكس، لست أمزح! ارفع نفسك رجاءً، وانظر للأسفل وشاهِد بنفسك".

ظاناً أنها لا تزال تخدعني - تشتهر أجنحة المستشفيات شهرةً سيّئة بمقالبها - قمت برفع نفسي. كنت نائماً مسطّحاً على ظهري. نظرت، ونظـــرت بإمعـــان. لم تكـــن الساق هناك! على نحوٍ مُحالٍ ولا يمكن تصديقه، لم تكن الساق هناك!

أيـــن **كانت**؟ رأيت الاسطوانة الطباشيرية بعيدةً إلى يساري، وقد صـــنعت زاوية مضحكة مع جذعي، وبالفعل، كان أكثر من نصفها، كما قالت الممرّضة، واقعاً عن السرير. لا بدّ أنني قد رفستها إلى هناك بـــساقي الـــسليمة، مـــن دون أن أعرف، أثناء نومي. انتابني إحساسٌ

مفاجئ بإرباك كليّ. لقد شعرت بالساق أمامي - أو، على الأقلّ، لقد افترضت أنها هناك (كانت هناك قبلاً، ولم تردني أي معلومات تفيد العكس) - ولكن كان بإمكاني أن أرى الآن أنها لم تكن هناك على الإطلاق، ولكنها انزاحت ودارت تسعين درجة تقريباً. انتابني إحساسٌ مفاجئ بعدم التوافق، والتنافر العميق، بين ما تخيّلت أنني شعرت به وما رأيته بالفعل، بين ما "ظننته" وما وجدته الآن. شعرت، للحظة مشوِّشة مدوِّخة، أنني قد خُدِعت، وضُلِّلت للغاية، من قِبَل حواسي: وهم - يا له من وهم! - لم أعرف مثله من قبل.

قلت بصوت وجدته مرتجفاً: "أيتها الممرّضة، هل يمكنك رجاءً أن تعيدي الساق إلى مكانها؟ يصعب عليّ أن أزيحها، وأنا ممدّد بهذا الشكل".

"بالطبع دكتور ساكس - وفي الوقت المناسب أيضاً! إنها فوق الحافة تقريباً - وأنت لم تفعل شيئاً غير الكلام".

انتظرتها كي تحرّكها، ولكنها، لدهشتي، لم تفعل شيئاً. انحنت فقط فوق السرير، ثم استقامت وتوجّهت ناحية الباب.

صرخت: "الممرّضة سولو!"؛ وكان دورها هذه المرة أن تجفل. "ما الذي يجري؟ لا زلت بانتظارك، رجاءً، كي تعيدي ساقي إلى مكانها".

التفتت نحوي، وعيناها اللوزيتان فاغرتان انذهالاً.

"**أنت** من يمزح الآن دكتور ساكس! لقد أعدت ساقك بالفعل إلى مكانها!".

لأولّ مرة، وجدت نفسي عاجزاً عن الكلام. أمسكت بقضيب البهلوان وسحبت نفسي إلى وضع جلوس. لم تكن الممرّضة تمزح؛ لقد أعادت الساق إلى مكانها بالفعل! أعادتها إلى مكانها، ولكنني لم أشعر بها تفعل ذلك. ما الذي كان يجري؟

قلـــتُ بصوتٍ هادئ جداً وخفيض: "الممرّضة سولو. أنا آسف لاهتياجي. هل تسدين لي معروفاً؟ هل تسمحين رجاءً، بما أنني أجلس الآن وأســتطيع أن أرى، أن تمسكي الجبيرة من الكاحل، وتحرّكينها؛ حرّكيها فقط، لو سمحت، في أيّ اتجاه تريدين".

راقبـــتها باهـــتمام وتركيـــزٍ وهي تفعل ذلك؛ ترفعها للأعلى، وتخفـــضها، وتحرّكها إلى كلا الجانبين. كان بإمكاني أن أرى كل هذه الحركات، ولكنني لم أستطع أن أشعر بها على الإطلاق. راقبتها بإمعان عـــندما أخذت الساق وحرّكتها؛ قليلاً إلى الأعلى، وقليلاً إلى الأسفل، وقليلاً إلى كل جانب.

"الآن، بعض الحركات الكبيرة فعلاً، يا ممرّضة سولو، رجاءً".

بما أنّ الساق كانت ثقيلة، وخاملة، وصعبة المأخذ، ومرتخية، فقد رفعـــتها بشجاعةٍ إلى الأعلى، ثم قامت بثنيها بزاوية قائمة، ثم حرّكتها إلى الجانـــب، بزاويةٍ قائمة مرة أخرى. كان بإمكاني أن أرى كل هذه الحركات، ولكنني لم أستطع أن أشعر بها على الإطلاق.

"اختـــبار واحد قصير وأخير، يا ممرّضة سولو، إذا لم يكن لديك مانـــع". اتّخـــذ صوتي نبرةً هادئة، وواقعية، و"علمية"، أخفت الخوف البغيض، أو الهاوية المفتوحة، التي شعرت بها.

أغمـــضت عينَـــيّ، وطلـــبت منها أن تحرّك الساق مرةً أخرى؛ حركات صغيرة في البداية، ثمّ، إذا لم أقل شيئاً، حركات كبيرة كما في السابق. حسناً، سنرى! إذا حرّكتَ ذراع رجُلٍ بينما ينظر إليك، فقد يجـــد من الصعب أن يميّز الإحساس عن الرؤية، لأنهما مرتبطان بشكلٍ طبيعـــي جـــداً بحيث إنّ المرء غير معتاد على تمييز أحدهما عن الآخر. ولكن إذا طلبتَ منه أن يغمض عينيه، فلن يجد صعوبةً في تقدير أصغر الحـــركات السلبية؛ على سبيل المثال، انحراف الإصبع مسافة جزء من

المليمتر. وبالفعل، فإنّ هذا "الإحساس العضلي"، كما كان يُسمَّى قبل أن يستقصيه شرينغتون ويسمّيه "الاستنباه الذاتي"، المعتمد على النبضات من العضلات، والمفاصل والأوتار، هو الذي يُغفل عنه عادةً لأنه لا شعوري طبيعياً. إنها هذه "الحاسة السادسة" الأساسية التي يعرف بها الجسم نفسه، ويقدّر بدقة مثالية، وتلقائية، ولحظية موقع وحركة كل أجزائه المتحرّكة، وعلاقتها بعضها مع بعض، وتراصفها في المكان. كان هناك مصطلح قديم آخر، لا يزال يُستخدَم في كثيرٍ من الأحيان، هو *kinaesthesia* أو حسّ الحركة، ولكنّ "الاستنباه الذاتي"، الأحسن وقعاً في الأذن، يبدو مصطلحاً أفضل، لأنه يقتضي ضمناً حسّاً بما هو "صحيح": ذلك الحسّ الذي به يعرف الجسم نفسه، ويعامل نفسه مثل "ملكية". قد يُقال أنّ المرء "يملك" أو "يمتلك" جسمه - على الأقلّ أطرافه وأجزاءه المتحرّكة - بفضل تدفّق مستمرّ من المعلومات الواردة، الناشئة بلا توقّف، طوال الحياة، من العضلات، والمفاصل والأوتار. المرء يملك نفسه، والمرء **هو** نفسه، لأنّ الجسم يعرف نفسه، ويؤكّد نفسه، في جميع الأوقات، بواسطة هذه الحاسة السادسة. تساءلتُ كم من الثنائية السخيفة للفلسفة منذ زمن ديكارت كان من الممكن تجنّبها من خلال فهمٍ صحيح "للاستنباه الذاتي". يُحتمَل بالفعل أنّ بصيرةً كهذه كانت تحوم في عقل لايبنيز، عندما تحدّث عن "الإدراكات الحسّية الدقيقة" المتوسّطة بين الجسم والروح، بالرغم من أنّ...

صاحت الممرّضة سولو بصوت حاد نافد الصبر: "دكتور ساكس! ظننت أنك نمت أو شيئاً من هذا القبيل. ذراعاي المسكينتان تؤلمانني، ولم يصدر عنك أي صوت. لقد تمرّنت جيداً بجبيرتك الثقيلة هذه، وحرّكتها في كل اتجاه. والآن، لا تقل لي أنك لم تشعر **بذلك**!".

قلت برصانة: "الممرّضة سولو، لم أشعر بأيّ شيء على الإطلاق. في الحقيقة، إنني كنت بانتظارك كي تبدأي!".

هـــزّت الممرّضة سولو رأسها، شاعرةً أنها قد ساعدتني بشهامة، وأســـتأذنت بالانصراف، وقد بدا عليها الارتباك وعدم الفهم. تخيّلتها تقول لنفسها: "بدا لطيفاً جداً، وطبيعياً جداً، وعاقلاً جداً هذا الصباح. والآن يتصرّف بغرابة!". كانت ستكون أكثر تشوّشاً بكثير لو أنها رأت أفعالي من خلال لوح الباب الشفّاف، وأكثر من ذلك لو أنها أدركت مـــا أفكّـــر فيه، وأختبره، وأشعر به. كانت ستجد أنّ كلمة "غريب" ضـــعيفة جـــداً لوصف حالتي. وبالفعل، ما كانت لتجد أي كلمة في لغـــتها، أو لغـــتي، أو أي لغة، لتنقل الخصائص المميزة غير المفهومة لما كنت أختبره.

مـــا إن استأذنت بالانصراف - كنت قد أشرت إلى أنني فقدت شهيتي للغداء - حتى التفتُّ على الفور إلى ساقي، بانتباه حاد، وفزِع، وعنـــيف تقريباً. في تلك اللحظة، لم أعد أعرفها. في تلك اللحظة، في تلك المواجهة الأولى، **لم أعرف ساقي**. كانت غريبة تماماً وغير مألوفة؛ ليـــست لي. حـــدّقت فيها بعدم تمييز مُطلق. اختبرت أحياناً - جميعنا اختبرنا - لحظات مفاجئة شاذة من عدم التمييز. هي لحظات غريبة في أثناء حدوثها، ولكنها تمرّ بسرعة، ونعود إلى العالم المعروف والمألوف. لكنّ هذه اللحظة لم تمرّ، بل ازدادت عمقاً، وقوةً، وغرابة.

كلما حدّقت أكثر بالاسطوانة الطباشيرية، بدت لي غريبة ومبهمة أكثـــر. لم يعد بإمكاني أن أشعر بها كجزء مني، أو أشعر أنها "لي". بدا أن لا علاقـــة لها بـــي من أي نوعٍ كان. كانت حتماً **ليست لي**، ومع ذلك، كانت، على نحوٍ مستحيل، موصولةً بـــي، وعلى نحوٍ مستحيل أكثر، "متصلة" بـــي.

قلت لنفسي، لا بدّ أنها الجبيرة. إنّ شيئاً كبيراً كهذا يمكن أن يشوِّش أي إنسان، بالرغم من أنه كان مستغرباً أن تزعجني **الآن** فقط إلى هذا الحدّ. كانوا قد وضعوا لي جبيرةً في مستشفى أودا يوم السبت. لماذا لم أجدها إلا الآن – الخميس التالي – غريبةً جداً، مثل "جسمٍ" ثقيل لا علاقة له بي. لم أنظر إليها على هذا النحو عندما وُضِعت لي في أودا. أتذكّر بوضوح تام أنني لم أجدها واقية ومريحة فحسب، بل أيضاً ودودة ومضيافة ودافئة، مثل بيت جميلٍ دافئ ومريح سيأوي ساقي المسكينة إلى أن تتحسّن. والآن، لم تبدُ "ودودة"، أو "مضيافة"، أو "دافئة" على الإطلاق. لم يكن بإمكاني أن أفهم كيف كانت كذلك في أي وقت مضى. ومن جهة أخرى، لم تبدُ "بغيضة"، أو "غير ودّية"، أو "عدائية"؛ لم تبدُ أي شيء: ليس لها خواصّ على الإطلاق.

لم تعد تبدو، تحديداً، أنها في "بيتها". لم أستطع أن أتصوّرها "تأوي" أي شيء، ناهيك عن جزءٍ مني. كان لدي إحساسٌ بأنها إمّا مصمتة تماماً، أو فارغة، ولكن، في كلتا الحالتين، كان إحساسي أنها لا تحتوي على أي شيء على الإطلاق. نظرت إلى حتار اللحم الفاقد الحسّ أعلى الجبيرة، ومن ثمّ أقحمت يداً في الداخل. كان هناك حيّزٌ كبير بالفعل، يتّسع لكلتا يديّ. كانت التجربة مريعة وغريبة بشكلٍ لا يُصدَّق. عندما حاولت بالأمس أن أضع يدي على الساق وأجسّ العضلة الرباعية الرؤوس، وجدتها "كريهة إلى أقصى حدّ"؛ مترهّلة وليّنة، مثل نوعٍ من الهلام أو الجبن الطري المفتقر إلى الحيوية. لكنّ الإشمئزاز لم يكن شيئاً مقارنةً بما شعرت به الآن. فعندما لمستها بالأمس، أحسست، على الأقلّ، أنني لمست **شيئاً**. صحيحٌ أنه كان، ربما، غير متوقّع، وغير طبيعي، وتعوزه الحياة، ولكنّه، بالرغم من كل ذلك، كان شيئاً. أما اليوم، وعلى نحوٍ مستحيل، فأنا لم ألمس شيئاً على

الإطلاق. لم يبدُ اللحم تحت أصابعي مثل لحم. لم يعد يبدو مثل مادة أو شـــيء مادي. لم يعد يشبه أي شيء. كلما حدّقت فيه أكثر، وعالجته أكثر، كان "وجوده" يقلّ أكثر، وكان يصبح "سراباً" أكثر، آتياً من لا مكان. كان ميّتاً، ووهمياً، ولم يكن جزءاً مني؛ ليس جزءاً من جسمي، أو من أي شيء آخر. لم يكن "ينتمي" إلى أي مكان. ليس له مكان في العالم.

ذاك الــذي ليس جسماً ليس جزءاً من العالم... وبما أنّ الكون هو كل شيء، فإنّ ذاك الذي ليس جسماً هو سراب؛ ولا مكان له.

(هوبز)

لقد فقدت شيئاً؛ كان هذا واضحاً. بدا أنني قد فقدت "ساقي"، وهـــو مـــا كان أمراً سخيفاً لأنها كانت هناك، داخل الجبيرة، سليمة ومعافاة. كانت تلك "حقيقة". كيف يمكن أن يكون هناك أي شكّ في المـــسألة؟ ومـــع ذلك، كان الشكّ موجوداً. ففي مسألة "امتلاكي" أو "حيازتي" لساق، كنت شاكّاً بشدة، وغير واثق بشكلٍ جوهري.

عـــندما أغمضت عينَيّ، بدايةً، لم يكن لديّ أي إحساس من أي نوعٍ بمكان ساقي: لم أشعر أنها كانت "هنا"، بالمقارنة مع "هناك"، ولم أشـــعر أنها كانت في أي مكان؛ لا إحساس على الإطلاق. وما الذي يمكـــن أن يُحَـــسّ، أو يُفترَض، بشأن شيء "غير موجود"؟ بدا بالفعل كما لو أنّ هذا التشوّش العميق للاستنباه الذاتي، الذي اكتُشف وتبدّى بمحض الصدفة فقط، بالرغم من أنه استُقصِي باهتمام من قِبَل الممرّضة سـولو ومـــن قِبَلي، كان بالفعل "القشّة الأخيرة"، بطريقة أو بأخرى. كانت قد أُثيرت بالفعل أسئلة ومشاكل خطيرة، تتعلّق، بصورة خاصة، بعـــضلتي المصابة: ضمورها الكبير، وتراخيها، وشللها الظاهر. أُثيرت أيضاً أسئلةٌ من نوعٍ "أعلى"، قبل أن أستغرق في النوم مباشرةً؛ التعطّل

الواضح في "الدراية" و"الفكرة"، بحيث إنه لم يعد بإمكاني أن "أفكّر" أو "أتذكّر" كيفية القيام بحركات عضلية أستخدم فيها عضلتي المصابة. كان هناك بالفعل شيء غريب يجري عند هذه المرحلة. لكن تبع ذلك مباشرةً تعطّلٌ كامل، ومطلق، و"وجودي"، بدا أنه عُجِّل باكتشاف تعطُّل الإحساس والشعور، لأنه لم يكن إلا حينها فقط، أن اتّخذت الساق طبيعة مخيفة، أو بتعبيرٍ أدقّ وأقلّ إثارةً، خسرت كل طبيعتها، وأصبحت **شيئاً** أجنبياً لا يتصوّره العقل، كنت أنظر إليه وألمسه من دون أي إحساس بالتمييز أو الارتباط. كان حينها فقط أن حدّقت بها وشعرت أنني لا أعرفها، وأنها ليست جزءاً مني، وأيضاً أنني لا أعرف هذا "الشيء"، فهو ليس جزءاً من أي شيء. **لقد فقدتُ ساقي.** أرجع مراراً وتكراراً لهذه الكلمات الثلاث: كلمات عبّرت عن حقيقة جوهرية بالنسبة إلي، بغضّ النظر عن السخافة التي قد تبدو بها لأي شخصٍ آخر. لقد فقدت ساقي، إذاً، بمعنىً من المعاني. لقد تلاشت... اختفت... قُطعت من الأعلى. كنت الآن مبتوراً. مع ذلك، لم أكن مبتوراً عادياً. لأنّ الساق موضوعياً وخارجياً كانت هناك، ولكنها تلاشت ذاتياً وداخلياً. وبالتالي فقد كنت، إذا جاز القول، مبتوراً "داخلياً". كانت هذه هي الحقيقة الصامتة من وجهة نظر علم الأعصاب وعلم النفس العصبي. لقد فقدت الصورة الداخلية، أو التمثيل، لساقي. كان هناك تشويش أو طمس، لتمثيلها في الدماغ؛ لهذا الجزء من "صورة الجسم" كما يقول أطباء الأعصاب. كان جزءٌ من "الصورة الفوتوغرافية الداخلية" لي مفقوداً. كان بإمكاني أيضاً أن أستخدم بعض مصطلحات "سيكولوجيا الأنا"، التي تتوافق بشكلٍ أكثر من تزامني مع مصطلحات علم الأعصاب. كان بإمكاني القول إنني قد فقدت الساق "كشيء داخلي"، مثل "أمجيّة *imago*" رمزية ومؤثّرة. بدا

بالفعل أنني كنت بحاجة إلى مجموعتَيّ المصطلحات على حدٍّ سواء، لأنّ الخسارة الداخلية كانت "فوتوغرافية" و"وجودية" في الوقت نفسه. وهكذا، كان هناك نقص إدراكي حسّي وخيم من ناحية، بحيث إنني فقدت كل الإحساس بالساق. من ناحية أخرى، كان هناك نقص "عاطفي"، بحيث إنني فقدت معظم إحساسي **تجاه** الساق. اشتملت المصطلحات التي استخدمتها على الاثنين معاً؛ الإحساس بحقيقتي الشخصية، والنابضة بالحياة، والبهيجة لقد استُبدِلت بحقيقةٍ هي ميّتة واصطناعية وأجنبية.

ما الذي يمكن أن يسبّب مثل هذا التغيُّر العميق والفاجع، مثل هذا التعطُّل الكلي للإحساس بالشيء والإحساس تجاهه، مثل هذا التعطُّل الكلي للصورة العصبية؛ **والأمجيّة**؟ تبادرت إلى ذهني ذكرى منسية منذ زمنٍ طويل عندما كنت طالباً، أو "موظّفاً"، في أجنحة طبّ الأعصاب في المستشفى. اتّصلت بي إحدى الممرّضات وهي مرتبكة للغاية، وأخبرتني تلك القصة الغريبة على الهاتف: هناك مريض جديد شاب تمّ إدخاله إلى المستشفى في صباح ذلك اليوم، وقد بدا لطيفاً جداً، وطبيعياً جداً طوال اليوم، إلى ما قبل بضع دقائق عندما استيقظ من نومة خفيفة. بدا حينئذ منفعلاً وغريباً، ولا يشبه نفسه على الإطلاق. كان قد وجد طريقةً ما ليسقط عن السرير، وكان الآن يجلس على الأرض، وهو يتصرّف باهتياج ويصيح ويرفض العودة إلى سريره. هل بإمكاني، رجاءً، أن أحضر وأكتشف ما كان يحدث؟

عندما وصلت، وجدتُ المريض متمدّداً على الأرض بجانب سريره وهو يحدّق في إحدى ساقيه. كان تعبيره مزيجاً من الغضب، والذعر، والارتباك، واللهو، ولكنّ الارتباك طغى عليه مع شيء من الذعر. سألته إن كان سيرجع إلى سريره، أو إذا كان بحاجةٍ إلى مساعدة، ولكنه بدا

منـــــزعجاً من هذه الاقتراحات وهزّ رأسه. جلست القرفصاء بجانبه، وأخــذت بياناً بالماضي الطبــي له ونحن بهذا الوضع. قال إنه دخل إلى المستشفى في ذلك الصباح من أجل بعض الاختبارات. لم يكن يشكو مـــن شيء، ولكنّ أطباء الأعصاب رأوا ضرورة دخوله إلى المستشفى لأنهم شعروا أنّ لديه ساقاً يسرى "كسولة"، وتلك هي الكلمة بالضبط الـــتي اســـتخدموها لوصـــف حالة ساقه. شعر أنه بخير طوال اليوم، واســـتغرق في النوم نحو المساء. وعندما استيقظ شعر أيضاً أنه على ما يـــرام، إلى أن تحـــرّك في الـــسرير، حيث وجد، وفقاً لتعبيره، "ساق أحـــدهم" في الـــسرير؛ كانت **ساقاً بشرية مفصولة**... شيء رهيب! أجفـــل في البداية منذهلاً باشمئزاز، فهو لم يختبر بحياته ولم يتصوّر أبداً شيئاً لا يُصدَّق كهذا. تحسّس الساق بحذرٍ شديد. بدت مكتملة الشكل ولكنها "غريبة" وباردة. وهنا خطرت له تلك الفكرة المفاجئة، وأدرك علـــى الفور ما حدث: **كان كل ذلك مجرد دعابة!** دعابة بشعة تماماً وغـــير ملائمـــة، ولكنها مبتكرة! كانت ليلة رأس السنة وكان الجميع يحـــتفل. كـــان المشهد كرنفالياً يكثر فيه المزاح وتتطاير فيه المفرقعات الصغيرة وقطع الحلوى. بدا واضحاً أنّ واحدة من الممرِّضات ذات روح دعابة مخيفة قد دخلت خلسة إلى غرفة التشريح، واختطفت ساقاً، ومن ثمّ دسّـــتها تحت شراشف سريره بينما كان لا يزال مستغرقاً في النوم. وقـــد شـــعر بارتياح كبير لهذا التفسير، ولكن، شاعراً أنّ الدعابة هي دعابـــة، وأنّ هذه الدعابة كانت ثقيلة بعض الشيء، فقد قذف الساق البغيـــضة مـــن فراشه، ولكن - وهنا هجره أسلوبه التحادثي الطبيعي وأخـــذ يرتجف فجأة وأصبح وجهه شاحباً كشحوب الموتى - **عندما رماهـــا مـــن السرير، وجد نفسه بطريقة ما يقع معها، وكانت الآن موصولةً به.**

صاح مشمئزاً: "انظر إليها! هل شاهدت أبداً شيئاً كريهاً وفظيعاً كهذا؟ لقد حسبتها جثّة. ولكنها غريبة! وشبحية نوعاً ما؛ تبدو عالقةً بـــي!"، وأمسك بها بكلتا يديه بعنف استثنائي، وحاول أن ينتزعها من جسمه، وعندما فشل في ذلك، أخذ يلكمها مهتاجاً.

قلـــت: "هوِّن عليك! إهدأ! لا بأس عليك! ما كنت لألكم تلك الساق بهذا الشكل".

سأل مهتاجاً: "وما المانع!".

أجبته: "لأنها ساقك. ألا تعرف ساقك؟".

حـــدّق بـــي بنظرة هي مزيجٌ من الانشداه، والشكّ، والرعب، واللهـــو، ولا تخلـــو من ارتياب هزلي من نوعٍ ما. قال: "دكتور! أنت تخـــدعني! أنت متآمرٌ مع تلك الممرّضة. لا يجدر بك أن تمازح مرضاك بهذا الشكل!".

"إنني لا أمزح. تلك ساقك!".

حين رأى من تعبير وجهي أنني كنت جاداً تماماً، نظر إليّ برعب شديد وهو يقول: "أتقول إنها ساقي يا دكتور؟ ألن تقول أنّ أي إنسان يجب أن يعرف ساقه؟".

أجبـــته: "حتماً. كل إنسان **يجب** أن يعرف ساقه. لا أستطيع أن أتخيل أحداً لا يعرف ساقه. ربما **أنت** من كان يمازحنا طوال الوقت!".

"أقـــسم بـــالله أنني لم أفعل... **يجب** على كل إنسان أن يعرف جـــسمه، مـــا له وما ليس له؛ ولكن هذه الساق، هذا **الشيء**"، وهنا أخذته رعدة أخرى مشمئزّة، "لا تبدو صحيحة، ولا تبدو حقيقية، ولا تبدو حتى جزءاً مني".

ســـألته بحيرة، وقد أصبحت في هذه اللحظة مرتبكاً مثله: "كيف تبدو؟".

أعاد كلماتي ببطء: "كيف تبدو؟ سأخبرك كيف تبدو. **لا تبدو مثل أي شيء على الأرض.** كيف يمكن لشيء كهذا أن يخصّني؟ لا أعرف حتى **لأي شيء** يمكن أن ينتمي شيءٌ كهذا...". وتلاشى صوته تدريجياً. بدا مرعوباً ومصدوماً.

قلت: "اسمع. لا أعتقد أنك على ما يرام. أرجو أن تسمح لنا بإعادتك إلى السرير. لكنني أريد أن أسألك سؤالاً واحداً أخيراً. إذا كانت هذه - هذا الشيء - ليست ساقك اليسرى" (كان قد أسماها ساقاً زائفة في أثناء حديثنا، وعبّر عن دهشته لأن يتكبّد أحدهم عناء "صنع نموذج طبق الأصل" عنها)، "أين هي، إذاً، ساقك اليسرى؟".

مرة أخرى شحب وجهه إلى حدّ أنني حسبته سيُصاب بإغماء. قال: "لا أعلم. لا فكرة لدي. لقد اختفت. تلاشت. لا يمكن إيجادها في أي مكان...".

كنت مشوَّشاً للغاية بسبب هذه القصة، وبلغ تشوُّشي حدّاً جعلني أنساها لأكثر من خمس عشرة سنة. بالرغم من أنني أدعو نفسي طبيب أعصاب، إلا أنني نسيت هذا المريض كلياً، وغاب عن إدراكي تماماً، إلى أن وجدت نفسي، على ما يبدو، في وضعه نفسه مختبِراً (بالكاد يمكنني الشكّ في ذلك) ما اختبره **هو**، وشاعراً، مثله، بالفزع والإرباك اللذين تغلغلا في صميم وجودي. كان واضحاً أنّ أعراضي كانت، إلى حدّ ما، متطابقة مع أعراض هذا الشاب، وأنّ جميعها قد ترافقت لتؤلّف "متلازمةً" متطابقة.

وُصفت هذه المتلازمة لأول مرة في القرن التاسع عشر من قِبَل أنتون، ويُشار إليها بين الحين والآخر باسم "متلازمة أنتون"، بالرغم من أنه لم يحدِّد إلا بعضاً من سماتها المميّزة. أما معظم سماتها فقد وُصفت من قِبَل طبيب الأعصاب الفرنسي الشهير، بابنسكي، الذي ابتكر مصطلح

"عمه المرض *anosagnosia*" للدلالة على عدم الإدراك الاستثنائي الذي يميّز مرضى كهؤلاء. أعطى بابنسكي أوصافاً بارزةً للعرض العجيب والهزلي تقريباً في بعض الحالات: مرضى كانت العلامة الأولى للسكتة الدماغية فيهم هي عجزهم عن تمييز جانبٍ واحد من جسدهم، وشعورهم بأنه كان لأحدٍ آخر، أو "مجسّماً"، أو دعابةً، بحيث إنهم يمكن أن يلتفتوا إلى شخصٍ يجلس إلى جانبهم في قطار، قائلين عن يدهم: "عذراً، أيها السيد، أنت تضع يدك على ركبتي!"، أو قد يقولون لممرّضة ترفع طعام الفطور: "أوه، وتلك الذراع هناك - خذيها مع الصينية!" فكّرت في أمثلة فريدة صادفتها بنفسي: على سبيل المثال، المريض في ماونت كارمل الذي "اكتشف" شقيقه المفقود منذ زمن طويل في فراشه، وقال بحنق: "لا يزال موصولاً بي! يا لصفاقته! ها هي ذراعه!"، رافعاً بيده اليمنى ذراعه اليسرى. أشار بابنسكي أيضاً إلى أنّ العديد من هؤلاء المرضى قد اعتُبِروا مجانين. وبالفعل، فإنّ هناك فئة جنون خاصة مكيّفة لأجلهم، هي عقلية جسدية تخيليّة *somatophrenia phantastica*، في اللغة الاصطلاحية لكرايبلين. لكنّ هذا الجنون كان خاصاً وثابتاً بشكلٍ استثنائي في سماته، ولم يحدث فقط، على نحوٍ مفاجئ غالباً، في أناس متّزنين لم يُظهروا علامات لأي جنون سابقاً، بل ترافق أيضاً، بصورةٍ خاصة، مع إصابات الدماغ، ولا سيّما في الأجزاء الخلفية لنصف الكرة الدماغية الأيمن، الذي يسيطر على الإدراك العام، أو المعرفة *gnosis*، للجانب الأيسر من الجسم. أغنى بوتزل من فيينا هذه الأوصاف وربما ناقش طبيعتها مع فرويد، مُظهراً أوجه الشبه والاختلاف مع الأوهام الجسدية. بالنسبة إلى فرويد، الذي كان طبيب أعصاب بارعاً في شبابه (ابتكر بالفعل مصطلح "العمه *agnosia*" في العام 1891) والذي احتفظ باهتماماته في علم الأعصاب حتى النهاية، فإنّ هذه الأوصاف

لمتلازمة بوتزل (*optic-kinaesthetic allaesthesia*) كانت ستحظى باهتمامه الشديد، وأيضاً باهتمام ابنته آنا، المتفوِّقة فعلياً لدراساتها المبكرة في سيكولوجيا الأنا. ما كان سيذهل فرويد وابنته هو وجود متلازمة فسيولوجية مرضية خاصة مترافقة مع تلف في النصف الدماغي الأيمن الخلفي، يمكن أن تُحدث تغيّرات استثنائية وخاصة في هويّة الجسم، بحيث إنّ المريض قد يجد طرفاً من جسمه غير مألوف، أو يكون عاجزاً عن عزوه إلى نفسه أو ربطه بها، وقد يعزوه (من خلال التسويغ والدفاع)، ولو مؤقّتاً، إلى شخصٍ آخر. أوضح بوتزل أيضاً أنّ هناك تغييرات غريبة وخاصة في **الشعور** - كما كان واضحاً بالفعل في الوجه المنافي للعقل (والهزلي غالباً) للحالات الطبية - عندما يقوم المرضى، كما أشرنا، بإزاحة الطرف بعيداً، سائلين الممرّضة أن تتكرّم وتأخذه مع صينية الفطور. هؤلاء المرضى، الذين أظهروا ردود فعل ومشاعر طبيعية تماماً في جميع الأوجه الأخرى، قد يُظهرون لامبالاة استثنائية تجاه الأطراف المصابة. لقد كان هذا، كما أشار بابنسكي، واحداً من الأسباب وراء تشخيص مرض العديد منهم على أنه هستيريا، أو فصام، أو اضطّراب "انفصالي". **كان** هناك بالفعل "انفصال" لافتٌ للغاية، ليس فقط من الناحية العصبية، وإنما من الناحية العاطفية و"الوجودية" أيضاً. ومع ذلك، لم يكن هذا بسبب "كبح" مفهومٍ وشعور، بل بسبب تتابعٍ من الانفصال العصبي.

في وقتٍ مبكرٍ جداً من حياته المهنية، كتب فرويد، بناءً على اقتراح شاركوت، ورقةً علمية كلاسيكية حول تمييز الشلل العضوي والهستيري، وكان اهتمامه سيُثار بشدة لأن يجد قرب أواخر حياته - وُصِفت متلازمة بوتزل في العام 1937 - أنّ **بعض** السمات التي كان من الممكن بسهولة أن تؤخذ على أنها هستيرية - الانفصال المتميّز

واللامـــبالاة الهزلية - كانت في هذه الحالة عضوية بالكامل، أو بتعبيرٍ أدقّ، كـــيف كان يستجيب الشخص وتركيبه الأنويّ - الذي يُعرِّف الحـــدود بـــين ما هو "أنا" وما "ليس أنا" - عندما يواجه عمه جسد جـــسيماً. ألم يقل فرويد نفسه، الذي كان متخصّصاً في الفسيولوجيا والأحياء، أنّ "الأنا أولاً وقبل كل شيء هي أنا جسدية؟".

حـــسناً، ماذا الآن؟ هل كنت مصاباً بمتلازمة بوتزل؟ بدت حالتي بكل تأكيد متعذِّرة التمييز عنها! من الممكن جداً أن أُستخدَم كعرضٍ توضـــيحي في صـــفّ دراســـي لهذا المرض "الوجودي العصبي" النادر والفريد، وتخيّلت نفسي للحظة، البروفيسور الدكتور أنتون-بابنسكي-بوتزل-ساكس أوضِّح عملياً حالةً مذهلة لهذه المتلازمة على نفسي! ثمّ، كما على الجبل، أدركت فجأةً أنّ هذه "الحالة المذهلة" **كانت** حالتي، وليـــست مجـــرد 'حالة' للدكتور أنتون -بابنسكي- بوتزل-ساكس ليوضّـــحها عملياً ويكتب عنها، وإنما مريض فزِع للغاية، بساقٍ مصابة خـــضعت لعملـــية جراحية لكنها أصبحت عاجزة بصورة مضاعفة، وعديمة النفع بالفعل، لأنها لم تعد جزءاً من "الصورة الداخلية" لنفسي، حـــيث تمّ محوها من صورة جسدي، ومن أَنَويّتي، بسبب مرضٍ ما من نوعٍ خطير للغاية ولا يمكن تفسيره.

بالنـــسبة إلى مريـــضي المسكين، الذي عاينته في ليلة رأس السنة المـــشهودة تلـــك، فقد كانت وحدة الجراحة العصبية في الطوارئ قد كشفت عن ورمٍ وعائي كبير يعلو الفصّ الجداري الأيمن للدماغ. لقد بـــدأ ينـــــزف فعلياً أثناء نومه، بحيث إنه عندما أيقظ المريض "منطقة الـــساق" - ذلـــك الجـــزء من الدماغ الذي يُمثَّل فيه موقع ووجود الـــساق - كانـــت المـــنطقة قد طُمست فعلياً. نتيجةً لذلك كان من المستحيل بالنسبة إليه أن يشعر بساقه بشكلٍ طبيعي؛ أن يشعر بها على

أنها "موجودة" أو "جزء منه"، وهكذا عندما اكتشفها بدت مثل شيء غــريب وُضِع في فراشه: "ساق شخصٍ آخر"، أو "ساق جثّة"، وأخيراً ساق "زائفة" غريبة لامادية من نوعٍ ما...

ماذا، إذاً، عن نفسي؟ كان واضحاً أنني أنا الآخر، مثل مريضي، أعــاني مــن متلازمة بوتزل، بساقٍ يسرى "منطفئة"، وأنني أنا الآخر، أعــاني، من دون شكّ، من مرض جسيم ما في الفصّ الجداري الأيمن. لقــد درسنا "الفسيولوجيا، والتشريح، وعلم أسباب الأمراض"، وجال ذهــني الهــادئ والــبارع بــسرعة خاطفة على هذه المجالات. مثّلت الفــسيولوجيا اخــتلال وظيفة النصف الدماغي الأيمن. مثّل التشريح، بــشكلٍ متوافق، "تلفاً" كبيراً في هذه المنطقة. أما علم أسباب المرض، فمــاذا كــان؟ لم يكــن بإمكاني أن أشكّ بالأمر للحظة واحدة: لقد تشكّلت سدادة، أو انخفض ضغط دمي، تحت التخدير، وأُصبتُ نتيجةً لــذلك باحتــشاءٍ مخّيٍّ، أو "سكتة دماغية" جسيمة في نصفي الدماغي الأيمــن الخلفــي. "مضاعفة ناتجة عن التخدير"، هذا ما سيكتبونه في الملاحظات...

فكّــرت: تُرى هل نجوت بمعجزة من الموت أو من عجزٍ كارثي علــى الجبل، وجيء بــي بصعوبةٍ لامتناهية إلى أفضل أجنحة جراحة العظم في العالم، فقط لأختبر سكتةً دماغية تاليةً للجراحة! وتصوّرت في مــشهدٍ وحــيد شــامل، مفعم بأدقّ التفاصيل وأكثرها إيلاماً، الحياة البائسة التي تنتظرني مع سكتة دماغية جسيمة إلى هذا الحدّ؛ محجوز في كرسي مدولب، ومعتمد على غيري بصورة مذلّة، وبساقٍ عديمة النفع و"غريبة"، ومبتورة داخلياً، بحيث سيكون من الأفضل والأبسط أن تُبتَر خارجياً أيضاً، لأنّ ذلك سيريحني على الأقل من جرّ طرفٍ عديم النفع كلــياً، وفاقد الوظيفة، و"ميّت" بالفعل. يجب أن تُزال كما يزيل المرء

ســاقاً غنغــرينية (مصابة بالغنغرينا)، لأنها **كانت** في الواقع غنغرينية: كانت ميّتة عصبياً، ووظيفياً، ووجودياً.

تمــدّدت مستغرقاً في هذه الرؤية، غير شاعر بالوقت، وقد انتابني نــوعٌ من اليأس الجليدي المشؤوم، متأوّهاً وعابثاً بأصابع قدمي. **أصابع قدمــي!** لقــد نــسيت؛ **كانت أصابع قدمي سليمة!** ها هي، وردية ونابــضة بالحياة، تفتل مبتعدة، كما لو كانت تفتل ضاحكةً على قطار أفكاري السخيفة! ولكن بالرغم من أنني، ربما، كنت موسوساً بالمرض علــى نحــوٍ مقــيت وكئــيب، إلا أنني لم أكن جاهلاً بعلم التشريح العــصبــي الأساســي. إنّ ســكتة دماغية هائلة إلى حدّ تعطيل بقية الــساق، كانــت من دون شكّ ستعطّل القدم أيضاً. ما إن عبر هذا الخاطــر ذهني، حتى انفجرت ضاحكاً من القلب. كان دماغي سليماً؛ أنا لم أختبر سكتة دماغية. لا أعرف بالفعل ما الذي أعاني منه، ولكنني لا أعاني من سكتة.

رننت الجرس، وظهرت الممرّضة سولو من جديد، وقد بدا القلق بوضوح على وجهها الهادئ الشاب.

"ما الأمر دكتور ساكس؟ هل أنت بخير؟".

قلــت: "أنــا بخير. رائع. لم أكن أبداً أفضل حالاً! أجد أنني قد استعدت شهيّتي مرة أخرى. هل بإمكانك أن تجلبــي لي شطيرة أو ما شابه؟".

"قالــت: "يــا الله! كــم تغيّرت بالفعل! عندما غادرتك بدوت فظــيعاً. كنت شاحباً، ومرتجفاً، وفزِعاً. والآن تبدو بخير! كما كنت وقت الفطور".

"حــسناً، كنت أفكّر قليلاً. وقد أزعجت نفسي... إذا كان من الصعب جلب شطيرة، فلا بأس بكوب شاي وبعض الكعك".

"لكــــن يمكنك أن تحصل على غدائك كاملاً دكتور ساكس. هم لم ينتهوا من تقديمه بعد".

"حقاً؟ كم مضى من الوقت منذ أن كنت تختبرين الساق معي؟".

نظــــرت إلى ســــاعتها بسرعة وقالت: "أقلّ من عشر دقائق. هل بدت أكثر؟".

أقـــلّ من عشر دقائق! بالكاد أمكنني أن أصدِّق ما أسمعه. بدا لي أنــــني في تلك الدقائق العشر قد اجتزت تجربة حياة كاملة. لقد جلت كــــوناً كاملاً من الأفكار. لقد سافرت بعيداً جداً، ولا زالوا يقدّمون طعام الفطور!

جلــــبت الممرّضة سولو الصينية. وجدت نفسي جائعاً بنهم، وهو مــــا بدا طبيعياً جداً، بعد جهودي الفيزيائية والميتافيزيقية هذا الصباح. كنت جائعاً، وحسِّياً، توّاقاً إلى كل الأشياء الجيدة في العالم.

اســــترجع ذهني، في أثناء تناولي الطعام، كلمات المريض الشاب الذي "فقد" ساقه اليسرى بسبب الورم في نصفه الدماغي الأيمن. لحسن حظّــــه أنّ الورم كان حميداً، وأدّت مداخلةٌ جراحية فورية إلى استعادة الوظــــيفة المخّية الكاملة. لعلّه لا يزال حياً الآن، ويقرأ هذه الكلمات! كــــنت قد ذهبت لزيارته بعد عدة أسابيع، عندما كان في دور النقاهة، لأرى كــــيف حاله، وما إذا كانت لديه أي ذكريات، أو مشاعر، عن ليلة رأس السنة تلك.

أخــــبرني أنّ التجربة كانت الأغرب والأفزع في حياته، وما كان ليصدِّق أنها ممكنة لولا أنه اختبرها بنفسه. قال – مكرّراً الكلمة – أنها كانــــت تجربةً "مجنونة"، وغير معقولة. كان أكثر ما أخافه أن يكون قد جُنَّ كلياً. لقد تفاقم شعوره هذا عندما حاول أن يتحدّث مع الموظّفين، الــــذين ظلّــــوا يخبرونه بأنه "واهم"، وأن لا يكون "سخيفاً". لقد كان

مسروراً وممتناً للغاية كوني على الأقلّ استمعت إليه، لأنه بالرغم من أنني كنت طالباً في ذلك الوقت، و"لا أعرف أي شيء"، إلا أنني حاولت أن أفهم. قال إنه كان مسروراً، بطريقة ما، عندما طمأنه جرّاحو الأعصاب (الذين استدعيتهم) بأنّ ما يختبره كان "حقيقياً"، وليس "وهماً من صنع خياله"، لكنه مع ذلك كان فزِعاً جداً لأن يفكّر في أنّ لديه ورماً دماغياً يحتاج إلى جراحة. لكن بالرغم من أنّ آلية "الانطفاء" قد شُرِحت، مع احتمال "استعادة ساقه" عند إزالة الضغط، إلا أنه وجد أنه لا يستطيع تصديق ذلك. حاول أن يشرح لي بأنّ خسارته لم تكن خسارة عادية؛ كما عندما تضع شيئاً في غير موضعه في مكان ما. ما كان فظيعاً جداً بشأن هذا النوع من الخسارة هو أنّ الساق لم "توضع في غير موضعها"، ولكنها في الواقع أضاعت مكانها. وبما أنه لم يعد هناك أي مكان يمكنها الرجوع إليه، فلم يستطع أن يرى كيف **يمكن** فقط لساقه أن تعود. والحالة هذه، فإنّ أحداً لم يستطع أن يبعث الاطمئنان في نفسه، وحين كانوا يقولون إنّ الساق "ستعود"، كان يومىء برأسه فقط ويبتسم.

نعم، كان هذا وضعي؛ وضعي بالضبط. لقد تلاشت الساق، آخذةً "موضعها" معها. وبالتالي، بدا أنه لا توجد إمكانية لاستعادتها، بصرف النظر عن المرض المسبِّب. هل يمكن للذكرى أن تفيد، حيث عجز الأمل؟ لا! لقد تلاشت الساق، آخذة "ماضيها" معها! لم يعد بإمكاني أنّ أتذكّر امتلاكي لساق. لم يعد بإمكاني أن أتذكّر كيف مشيت أبداً وتسلّقت. شعرت على نحوٍ لا يُصدَّق أنني فُصِلت عن الشخص الذي كان قد مشى، وركض، وتسلّق الجبل قبل خمسة أيام فقط. كانت هناك استمرارية "شكلية" فقط بيننا. كانت هناك فجوة – فجوة مطلقة – بين ذلك الحين والآن. وفي تلك الفجوة، في ذلك

الفـــراغ، كـــان قد تلاشى "شخصي" السابق؛ "شخصي" الذي كان بإمكانه أن يقف، ويركض ويمشي بطيش، الذي كان واثقاً بجسمه كلياً وبشكلٍ طائش، الذي لم يستطع أن يفهم كيف يمكن للشكوك أن تنشأ بشأن ذلك... في تلك الفجوة، في ذلك الفراغ، خارج المكان والزمان، قد مرّت حقيقة وإمكانيات الساق، وتلاشت. كثيراً ما كنت أنظر إلى عـــبارة "تلاشى كأنه سراب" على أنها منافية للعقل، وفي الوقت نفسه ذات مغزى على نحوٍ غامض. لقد تلاشت ساقي مثل "سراب"، كما لو كانـــت تـــوبّخني لـــشكّي، ومثل المريض الشاب ذي الورم الدماغي الـــنازف، لم أستطع أن أتخيل أنها سترجع بأي طريقة "طبيعية" أو فيزيائية، لأنهـــا اختفت من المكان والزمان، اختفت آخذة مكانها وزمانها معها. إذا كانـــت ســـاقي قد دخلت الفجوة، الفراغ، "السراب"، فلا بدّ لها من أن تخـــرج مـــن الفجوة، الفراغ، "السراب": يمكن موافقة الغموض المخيف المـــذهل لـــذهابها بغمـــوضٍ مكافئ لمجيئها أو صيرورتها. لقد تجاوزت الوجود (بصرف النظر عمّا عناه المرء بكلمة "وجود"). وللسبب نفسه، لا بـــدّ لها، بطريقة أو بأخرى، من أن تعود إلى الوجود. تشوّش عقلي بأفكـــار الانحـــلال والتجديد تلك. أصبحت المياه أعمق وأعمق طوال الوقت. لم أجرؤ على التفكير كثيراً، تحسّباً من أن تُطبق عليّ.

كأنمـــا لتـــبديد هذا الضباب الغيبـــيّ، ظهر فجأةً في عين عقلي الـــشكل القـــوي والنـــشيط للدكتور جونسون. لقد استقدمه عقلي اللاواعي ليوقظني من كابوسٍ باركلياني. رأيته بوضوح استثنائي وأحببته علـــى الفـــور، كما أحببت حسّه السليم القوي. عندما سئل عن رأيه بـــشأن "المـــذهب الباركلياني" – افتراض وهمية الأشياء المادية – كان جـــوابه هو توجيه ركلةً قوية لحجر، قائلاً: "باه! **هكذا** أدحضه!". لقد اعتبرت هذا الجواب دوماً مثالياً تماماً؛ نظرياً، وعملياً، ودرامياً، وهزلياً:

كـــان الشيء البديهي والوحيد الذي يمكن فعله، ولكنه تطلّب عبقريةً جونسونية لفعله، لأنّ الجواب لهكذا سؤال يُعطى من خلال **الأفعال**.

تـــراءت لي صورة ذهنية حيّة لجونسون يركل الحجر. كانت حيّة جداً، ومضحكة جداً، إلى حدّ أنني واصلت الضحك. لكن كيف يمكن أن أطـــبِّق "اختبار" جونسون على نفسي؟ تقتُ إلى توجيه ركلة قوية لحجـــر، وبالتالي إلى إظهار حقيقة الساق الراكلة والحجر. لكن كيف يمكنني أن أركل بساقي "اللامادية" التي لا يمكن تصوُّرها؟ ليس بإمكاني أن أُحـــدِث أيّ اتّـــصال مع الحجر. هكذا فإنّ "الاختبار" الجونسوني سيأتي بعكس النتائج المرجوّة، وسيؤدّي فشله، أو "العجز عن تطبيقه"، إلى تأكـــيد وهمية الساق، وإغراقها أكثر في الدائرة الباركليانية. هكذا بهـــتت صـــورة بطلي القوي والشجاع. فحتى سام جونسون الحكيم نفسه، سيكون عاجزاً عن دحض وهمية الساق، لو أنه كان مكاني.

الآن، أُخِذ مكان جونسون، على خشبة مسرحي الذهنية، من قِبل ويتجنـــستين، وتخـــيّلت أنّ الرَجلَين المختلفَين جداً على ما يبدو، قد يتفّقان على نحوٍ جيد (أنا أخترع باستمرار لقاءات وحوارات خيالية). سمعـــت بصوت ويتجنستين الكلمات التي افتتح بها عمله الأخير، **حول** اليقين *On Certainty*: "إذا كان بإمكانك أن تقول، هذه ساق **واحدة**، فسنضمن لك كل الباقي... السؤال هو ما إذا كان من المنطقي الشكّ فيها" (وقد أدركت لاحقاً فقط أنّ ذاكرتي، أو تخيُّلي، قد استبدل كلمة "يـــد" بكلمة "ساق"). بالنسبة إلى ويتجنستين، فإنّ أساس اليقين هو يقـــين الجـــسد. لكنّ أساس يقين الجسد هو الفعل. إنّ الجواب لسؤال ويتجنـــستين المـــتعلّق بإمكانية تيقُّن المرء من يده، كان أن يرفعها أو يضرب بها وجه أحدهم، تماماً كما كان جواب صموئيل جونسون هو توجيه ركلة لحجر.

كـــان جونسون وويتجنستين متّفقَين تماماً: المرء موجود، وبوسعه أن يُظهـــر وجـــوده من خلال أفعاله، لأنه يستطيع أن يرفع حجراً أو يــركله. فكّــرت فجــأةً: لا يــستطيع رجلٌ بطرفٍ شبحي - ساقٍ شبحية - أن يركل حجراً.

أصبحت فجأةً وحيداً ومهجوراً، وشعرت - للمرة الأولى، ربما، مـــنذ دخولي المستشفى - بالوحدة المميِّزة للمريض... بنوع من العزلة الـــتي لم أشـــعر بمـــثلها علـــى الجبل. رغبت بشدةٍ الآن في التواصل، والطمأنة، مثل المريض الشاب الذي قد أوضح، بصعوبة وإحراج، نوع الأمـــر الذي كان قد حدث معه. لقد احتجت أنا نفسي إلى التواصل أولاً وقـــبل كل شيء مع طبيبـــي وجرّاحي: كنت بحاجة إلى أن أقول له ما كان قد حدث معي، كي يقول لي: "نعم، بالطبع، أنا أفهم".

اســـتغرقت في الـــنوم، وأيقظني وصول عمّتي الحبيبة. كنت قد رجوت نوعاً ما أن تأتي، ولكنني استبعدت ذلك لأنه كان يوم ذكرى ميلادها. مقدامة في الثانية والثمانين من عمرها، وبعد فطور وغداء مع الـــصديقات - قالت إنّ المزيد منهن سيأتين للعشاء - قطعَت شوارع لندن لتتناول شاي ذكرى ميلادها معي، لأنني لا أستطيع، كالعادة، أن أذهـــب لتناوله معها. متذكّراً فجأةً، عند الفطور، أنه كان يوم ذكرى مـــيلادها، فقـــد أقنعت الممرّضة سولو بصعوبة أن تأتيني بكتاب أقدّمه هديـــةً لعمـــتي، مخـــتاراً، بعد تردُّد، كتاب **العمة العانس في الحقيقة والخيال**. قدّمت لها الكتاب متخوِّفاً، قائلاً إنني لم أقرأه، وأنه قد يكون فظـــيعاً (بالـــرغم ممـــا قيل بأنه رائع)، وأنها قد لا تحبّ فئة "العمّات العانسات".

هـــتفت وهـــي تأخذ الكتاب: "ولكنني **أحبّه!** أحبّ كوني عمّةً عانـــساً. مـــا كنت لأكون أي شيء آخر. وخاصةً عمّة عانس بسبعة

وثمـــانين من أولاد الإخوة والأخوات، وبمئتين وثلاثين من أولاد أولاد الإخوة والأخوات، وكل الأطفال الذين قد علّمتهم - أطفالي - لستين سنة! طالما أنّ الكتاب لا يُظهرنا كنساء متبلّدات أو وحيدات!".

قلت: "إذا فعل ذلك، فسأرجعه إلى المؤلّف!".

أخـــذت تفتّش في حقيبتها، وأخرجت رزمة مغلّفة. قالت: "وقد أحـــضرت لك أنا أيضاً كتاباً هدية بمناسبة ذكرى ميلادك. كنتَ بعيداً في يوم ذكرى ميلادك، هناك في الأعالي في القطب الشمالي. أنا أعرف أنك تحبّ كونراد. هل قرأت **هذا**؟".

نـــزعتُ ورق التغليف، ووجدت كتاب **المتجوِّل**. قلت: "لا، لم أقرأه، ولكنّ العنوان يعجبني".

قالـــت: "نعـــم. إنـــه يلائمك. لقد كنت دائماً متجوِّلاً. هناك مـــتجوِّلون، وهناك مستقرّون، ولكنك متجوِّلٌ قطعاً. يبدو أنك تدخل في مغامرة غريبة تلو الأخرى. أتساءل إن كنت ستجد غايتك أبداً".

في أثـــناء جلسة الشاي الجميلة والهادئة - كانت عمّتي الطيّبة قد أقـــنعت الأخـــت البغيضة عادةً لتأتينا بشطائر الرشاد وإبريق كبير من الـــشاي - وبـــتأثير النظرة المحدّقة الحنونة والصادقة لعمّتي، حكيت لها بعضاً من اكتشافاتي في ذلك اليوم.

اســـتمعت إليّ بتركيز واهتمام، من دون أن تنبس بكلمة. قالت عندما أنهيت كلامي: "عزيزي أوليفر، لقد مررت بمحنٍ كثيرة، ولكنّ هـــذه المحـــنة هـــي الأشدّ". بدا أنّ سحابة حزن قد عبرت وجهها. غمغمت قائلة: "محنة شديدة جداً. شديدة وغريبة وكئيبة. أتساءل..." ولكـــنني لم أعـــرف أبداً ما الذي فكّرت فيه في تلك اللحظة، لأنها خـــرجت من ذهولها فجأة، ناظرةً إليّ مباشرةً في الوجه، وقالت: "لا يمكنني أن أبدأ بالفهم، ولكنني متأكّدة أنّ الأمر **يمكن** أن يُفهم، وأنك

بعـــد أن تجـــول فيه بعقلك ذهاباً وإياباً، ستصل إلى فهْم. عليك أن تكـــون واضـــحاً جـــداً وقوياً وجريئاً. عليك أيضاً أن تحني رأسك، وتكون متواضعاً، وتعترف أنّ هناك أشياء كثيرة تتجاوز الفهم. يجب ألاّ تكون متعجرفاً، ويجب ألاّ تكون ذليلاً. ويجب ألاّ تتوقّع الكثير من الجـــرّاح. أنا أكيدة بأنه رجلٌ جيد، وجرّاح من الطراز الأول، ولكنّ ما تقوله يتجاوز دائرة اختصاص الجراحة. يجب ألاّ تغضب إن هو لم يفهمـــك بشكلٍ كامل. لا يفترض بك أن تتوقّع المستحيل منه. يجب أن تتوقّع، وتحترم، نقاط الضعف. سيكون لديه نقاط ضعف من جميع الأنواع؛ نحن جميعاً كذلك. نقاط ضعف مهنية، ونقاط ضعف عقلية، ونقـــاط ضعف عاطفية، وتحديداً..." توقّفت وقد أسرتها ذكرى أو فكـــرة، ثمّ قالـــت أخيراً: "الجرّاحون في موقعٍ غريب. هم يواجهون تـــضاربات خاصـــة. كانت أمك..."، تردّدت متفحّصةً وجهي، ثم أكملت: "كانت أمك جرّاحة مخلصة، وإنسانة حساسة ولطيفة للغاية. كان من الصعب أحياناً بالنسبة إليها أن توفّق بين مشاعرها الإنسانية وعملها الجراحي. كان مرضاها أعزاء عليها جداً، ولكنها، كجرّاحة، كانت مضطّرةً لأن تراهم كمشاكل تشريحية وجراحية. عندما كانت أصـــغر سناً، كانت تبدو أحياناً قاسية تقريباً، ولكنّ هذا بسبب شدة مـــشاعرها التي كانت ستطغى عليها إن هي لم تبقَ متحفّظة. لم يكن إلا لاحقـــاً أن وصلت إلى توازن؛ ذلك التوازن الأساسي بين التقنيّ والشخصي".

نصحتني قائلة: "كن لطيفاً يا أوليفر! لا تبدِ **ردّ فعل** تجاه الدكتور ســـوان. لا تدْعُـــه "الجرّاح". لا يبدو ذلك إنسانياً! تذكّر أنه إنسان؛ إنسان مثلك تماماً. ربما أكثر إنسانيةً منك وحتى أكثر خجلاً منك. كل المشاكل تبدأ عندما ينسى الناس أنهم بشر".

كلمـــات خيِّـــرة، حكيمة، بسيطة! لو أنني فقط التفتّ إليها! لو كانت لديّ فقط تلك الوداعة النادرة وتلك الشهامة اللتان ميّزتا عمتي الطّيّبة، ذلك الصفاء الداخلي والطمأنينة اللذان أتاحا لها أن تواجه كل شيء بمزاج عذب متوازن، وأن لا تبالغ، أو تحرِّف، أو تنبذ أبداً.

بعد إبريق الشاي الثاني، أصبحت المحادثة أكثر طلاقةً، وسطحيةً، وعفويةً، وبدا أنّ الظلال الكئيبة، أو الجدّية البغيضة، التي شعرت بها في بدايـــة حديثنا، قد ذابت وتلاشت في الهواء البهيج، عاجزةً عن تحمّل أجواء الهزل.

بيـــنما هـــيّأت نفسها للمغادرة، أخبرتني عمّتي، على نحوٍ مفاجئ جـــداً، وفي تـــتابعٍ سريع، ثلاث نكات، انفجرتُ على إثرها ضاحكاً بعـــنف، إلى حـــدّ أنـــني خشيت انفكاك الغُرَز. وبينما كنت أضحك نهضت عمّتي وغادرت.

نعـــم، نعم! سيُفهَم كل شيء، ويُصحّح، ويُعتنَى به. كل شيء كـــان علـــى ما يُرام، وكل شيء سيكون على ما يُرام! كانت هناك مـــضاعفة صـــغيرة يمكن عزوها إلى الجراحة، أو الصدمة، أو كليهما. كانـــت طبيعة المضاعفة غامضة قليلاً بالنسبة إلي، ولكن سيتّضح كل شـــيء في الصباح عند زيارتي من قِبَل الدكتور سوان. علمتُ أنه رجلٌ جيد، ولديه سنوات من الخبرة التجبيرية، ولا بدّ أنه قد رأى هذا الأمر الحـــادث معـــي مئات المرات من قبل. يمكنني أن أتوقّع بثقة تشخيصاً وتكهّـــناً بعاقـــبة المرض بسيطاً ومُطَمئناً. سيقول... حسناً لا أعرف بالـــضبط ماذا سيقول، ولكنه سيقول الشيء الصحيح، وسيكون كل شيء جيداً. نعم! يمكنني أن أئتمنه بثقةٍ على حياتي. كان يجب أن أفكّر في هذا من قبل، بدلاً من استنفاد نفسي في جهدٍ شديد وتفكيرٍ منعزل. مفكّراً في مساعدة نفسي، أفرطت في إزعاجها من دون داعٍ.

أيّ نوعٍ من الرجال سيكونه سوان؟ عرفت أنه كان جرّاحاً جيداً، ولكن ليس الجرّاح هو من ستكون بينه وبيني علاقة، بل الشخص، أو، بالأحرى، الرجل الذي رجوت أنّ الجرّاح والشخص سينصهران فيه بشكلٍ كامل. كان لقائي بالجرّاح الشاب في مستشفى أودا مثالياً بطريقته. كان مثالياً لذلك الحين، ولتلك اللحظة. لكنّ وضعي الآن كان أكثر تعقيداً وغموضاً، وسيقع عبء أكبر على السيد سوان. لا يمكنه أن يدخل الغرفة، ويرقص، ويبتسم، ويخرج. فعليه مسؤولية ثقيلة: عبء الاعتناء بي ربما لأسابيع أو أشهر. يجب ألاّ أطالبه بالكثير، أو أحمّله عبء شدّة كربي. إذا كان رجلاً حسّاساً فسيدرك كربي على الفور ويبدّده، بصوت النفوذ الهادئ. ما لا أستطيع أن أفعله لنفسي في مئة سنة، بالضبط لأنني عالق في مرضي ولا يمكنني أن أقف خارجه، ما بدا لي صعباً على نحوٍ لا يُقهَر، بإمكانه **هو** أن يختصره بإجراء واحد، بمشْرَط التجرّد، والبصيرة، والنفوذ. ليس عليه أن يشرح، عليه فقط أن يتصرّف. لست بحاجة إلى عبارة تأمينية مثل "نحن نرى هذه المتلازمة في 60 بالمئة من الحالاتً. لقد تمّ عزوها على نحوٍ مختلف لـ س، وص، وع. ويُقدَّر معدّل الشفاء بكذا وكذا، اعتماداً على كذا وكذا، وغيرها من الأشياء المقدَّرة التي لا يمكن قياسها بدقّة". أنا بحاجة فقط لصوت النفوذ، وبساطته، وإقناعه: "نعم، أنا أفهم. يحدث هذا أحياناً. لا تقلق. افعل هذا! صدّقني! ستكون قريباً على ما يرام". أو كلمات لها نفس التأثير؛ كلمات مباشرة تماماً وشفّافة، كلمات من دون أي أثرٍ للمراوغة أو المخادعة.

إذا لم يستطع حقيقةً أن يطمئنني بكلمات كتلك، فسأريد اعترافاً صادقاً بالحقيقة. سأحترم نزاهته ونفوذه على حدّ سواء إن هو قال: "ساكس، يؤسفني أن أخبرك أنني لا أعرف ما لديك. لكننا سنبذل

أقـــصى جهدنا لنعرف". وإذا أظهر خوفاً - خوفاً صريحاً - فسأحترم ذلك أيضاً. سأحترم أيّ شيء يقوله طالما أنه صريح وأظهر احتراماً لي، ولكـــرامتي كـــرجل. إذا كان صريحاً ورجولياً، بإمكاني أن أتقبّل أي شيء.

حـــين فكّـــرت في زيارة سوان، وتفهّمه، وطمأنته لي، استطعت أخـــيراً أن أشـــعر براحة عميقة. كان يومي هذا أكثر أيام حياتي غرابةً وإثـــارةً للقلـــق؛ أكثر غرابةً وإقلاقاً، بطريقته، من يومي على الجبل. فبالـــرغم مـــن أنّ مخاوفي هناك كانت قصوى، إلا أنها كانت طبيعية وحقيقـــية، حيث استطعت أن أواجه فكرة الموت وقد واجهتها فعلاً. ولكنّ ما واجهني الآن كان **غير** طبيعي **وغير** حقيقي. كانت هنا حيرة من نوعٍ رهيب... ولكنّ سوان سيفهم هذا، لأنه قد واجهه حتماً من قبل: يمكنني أن أتوقّع بثقة أنه سيقول الشيء الصحيح. كم من المرات أسكتُّ أنا، كطبيب، مخاوف مرضاي بشكلٍ غامض: ليس من خلال المعرفة، أو المهارة، أو الخبرة، بل ببساطة من خلال الاستماع إليهم. لا أســـتطيع أن أمـــنح نفسي الراحة، لا أستطيع أن أكون طبيب نفسي، ولكنّ غيري يستطيع. سيكون سوان طبيبـــي غداً...

هكـــذا انتهـــى يومي بنومٍ واثقٍ عميق... نوم عميق وخالٍ من الأحلام، على الأقلّ لنصف الليل. لكنني دخلت بعد ذلك في تتابعٍ من الأحـــلام الأكثر بشاعة وغرابة، أحلام لم أرَ مثلها أبداً من قبل، لا في حالة القلق، أو الحمّى، أو الهذيان، أبداً... كنت لساعات ضحية هذه الأحـــلام بازديـــاد. كنت أستفيق منها لفترة وجيزة فزعاً مجفلاً، فقط لأدخل فيها مجدّداً في اللحظة التي أستغرق فيها في النوم مرة أخرى. من ناحيةٍ ما، كانت بالكاد مثل الأحلام، حيث اتّسمت برتابة، أو بثبات، غـــيرٍ شـــبيه بـــالأحلام علـــى الإطلاق. كانت أشبه بتكرار حقيقةٍ

فسيولوجية ثابتة، لأنّ كل ما حلمت به كان الساق؛ أو اللاساق. حلمت تكراراً أنّ الجبيرة كانت مصمتة، وأنّ لديّ ساقاً من الطباشير أو الجصّ أو الرخام... ساقاً غير عضوية. كنت أرى نفسي جالساً في كرسي في أثناء العشاء ربما، أو جالساً على مقعدٍ في متنزّه مستمتعاً بالشمس. كانت أجزاء الأحلام هذه بسيطة وغير مثيرة، ولكن مهما كان الذي أفعله، فلم يكن أبداً وقوفاً أو مشياً، حيث كانت هناك دوماً تلك الإسطوانة الحجرية البيضاء التي حلّت مكان ساقي، ثابتةً وساكنة مثل تمثال. وأحياناً لم تكن جصّاً أو رخاماً، وإنما شيء سهل التفتّت وغير متماسك، مثل الرمل أو الإسمنت. اشتملت تلك الأحلام أيضاً على خوفٍ إضافي: لم يكن هناك شيء يمسك الكتلة الرملية معاً... لم يكن هناك تركيب داخلي أو التصاق، بل مجرد سطح خارجي، مرئي من دون مادة. حلمت تكراراً أنّ الساق المقولبة كانت مجوّفة بصورة مثالية، بالرغم من أنّ كلمة مجوّفة لا تفي بالمعنى تماماً: لم تكن مجوّفة كثيراً إلى حدّ فراغها كلياً، بل كانت مثل غلافٍ طباشيري، أو مجرّد قوقعة، تحيط بسراب أو فراغ. كانت أحياناً ساقاً مصنوعة من السديم، احتفظت، بالرغم من ذلك، بشكلها الثابت الساكن. وأحياناً – وهو الأسوأ – كانت ساقاً مصنوعة من الظلام أو الظلّ... أو ساقاً مصنوعة على نحو مُحال من لا شيء. لم يكن هناك أيّ تغيُّر في أحلام تلك الليلة. أو بالأحرى كانت هناك تغيُّرات محيطية أو تصادفية فقط، بأمور ثانوية تتعلّق بالمكان والزمان والمشهد. وفي مركز كل حلم، كان هناك هذا الشيء الساكن والفارغ واللامادي. لم يبدُ أنّ أياً من الأحلام كان يُخبر "قصة". كانت أحلاماً ثابتة وساكنة، مثل الديوراما أو التابلوه، المصمّمين فقط، إذا جاز التعبير، لعرض تحفتهما المملّة المرعبة... هذا السراب، هذا الشبح، الذي لا يمكن قول أي شيء عنه.

كنت أستفيق منها لفترة وجيزة - لا بدّ أنني رأيت دزينات منها في تلك الليلة - وأرشف قطرات من الماء، ثمّ أشعل النور، وهناك، مواجِهةً لي، كانت تقبع الحقيقة، أو اللاحقيقة، الطباشيرية الجوفاء لأحلامي، لم تغيّر منها اليقظة شيئاً. وقد كان في واحدة من هذه الاستفاقات - كانت إلماعات الفجر الرملية قد بدأت تظهر الآن من خلال النافذة - أن أدركت فجأةً أنّ أحلامي هذه كانت أحلاماً عصبية، لا تخلو من العوامل المحدِّدة الاستحواذية الفرويدية، ولكنها مركَّزة على عامل محدِّد عضوي غير متغيِّر. وقد أدركت فجأة أنه بالرغم من أنني لم أرَ أحلاماً كتلك قبل الآن أبداً، إلا أنني سمعت عن أحلامٍ مطابقة لها من مرضاي: مرضى بسكتات دماغية، وبشللٍ نصفي، وباعتلالات عصبية وخيمة؛ ومبتورون يعانون من أطراف شبحية؛ ومرضى بأمراض وإصابات مختلفة، ولكنهم جميعاً يعانون من اضطّرابات وخيمة لصورة الجسد. ما كان يحلم به مرضى كهؤلاء ليلة بعد ليلة - كما كان يحدث معي تماماً - استند إلى اضطّرابات صورة الجسد لديهم، وما تولّده من صور زائفة، وأطراف شبحية. بدا لي الآن أنّ أحلامي الخاصة قد أكّدت ما يلي: إنّ ذلك الجزء لصورة الجسد وأنا الجسد قد مات ميتةً باردة. صاحب هذا الاستنتاجَ ذعرٌ عظيم، وارتياح عظيم، وعلى الفور نمت مجدّداً نوماً عميقاً خالياً من الأحلام أفسح المجال مع اقتراب الصباح لكابوس أشد غرابةً، بالرغم من أنه بدا، في البداية، كمجرّد كابوس "تقليدي". كنا في الحرب، ولكن لم يكن واضحاً أبداً من هو الطرف الآخر أو سبب النزاع. ما كان واضحاً، أو ما كان على لسان الجميع، هو تخوّفنا من امتلاك العدوّ لسلاح نهائي، يُدعى قنبلة نقص الإدراك. يمكن لهذه القنبلة، كما قيل، أن **تفجِّر ثقباً في الحقيقة**. بإمكان الأسلحة العادية أن تدمّر المادة الممتدّة

خلال حيّز معين: أما **هذه** القنبلة فبإمكانها أن تدمّر التفكير، وحيّز التفكير نفسه. لم يعرف أحدٌ منا ماذا يفكّر أو يتوقّع، نظراً لأنّ التأثير، كما أُخبرنا، لا يمكن تصوّره.

مثل العديد من الناس في حلمي، شعرت بحاجة إلى أن أكون خارجاً في الهواء الطلق، وكنت أقف مع عائلتي في حديقة منزلنا. كانت الشمس مشرقة، وبدا كل شيء طبيعياً، باستثناء السكون الغريب حولنا. انتابني فجأة إحساسٌ بأنّ شيئاً قد حدث، أو أنّ شيئاً كان يبدأ في الحدوث، بالرغم من أنه لم تكن لديّ فكرة عمّا كان. ثم أدركت أنّ شجرة الأجاص في حديقتنا قد اختفت. كانت إلى اليسار قليلاً حيث كنت أنظر، والآن لم يعد هناك شجرة أجاص. لم تكن شجرة الإجاص هناك!

لم ألتفت برأسي لأتحقّق من هذا الأمر أكثر. لسببٍ ما، لم يخطر لي أن أحوّل نظرتي. لقد اختفت شجرة الأجاص، ولكنّ اختفى معها أيضاً المكان الذي كانت تنتصب فيه. لم يكن هناك إحساسٌ بمكان تمّ إخلاؤه، بل ببساطة لم يعد المكان هناك. لم يعد؟ هل بإمكاني أن أتأكّد أنه **كان** هناك؟ ربما ليس هناك شيء مفقود. ربما لم يكن هناك شجرة أجاص أبداً. ربما كانت ذاكرتي أو مخيّلتي تخدعني. سألت أمّي، ولكنها كانت مرتبكة مثلي تماماً، وبالطريقة نفسها: فهي أيضاً لم يعد بإمكانها أن ترى الشجرة، ولكنها شكّت أيضاً ما إذا كانت قد وُجدت هناك أساساً. هل كان هذا بتأثير قنبلة نقص الإدراك، أم أنّ خوفنا يولّد أوهاماً مضحكة؟

الآن كان جزءٌ من جدار الحديقة مفقوداً، بما فيه البوّابة التي تقود إلى طريق إكستر. أو هل **كانت** مفقودة فعلاً؟ ربما لم يكن هناك أبداً أي جدار حديقة. ربما لم تكن هناك أي بوّابة تواجه طريق إكستر، ولا

وجـــود لطـــريق إكستر أساساً. **ربما لم يكن هناك أي شيء أبداً إلى اليسار**. أما أمي نفسها، التي قد انتقلت من مكانها بحيث أصبحت الآن تقـــف مباشـــرةً أمامي، فبدت **منشطرة نصفين** بطريقة استثنائية. لقد قُطعت في المنتصف... لم يكن لها نصف أيسر. ولكن... ولكن... هل بإمكـــاني أن أتأكّد أنه كان لديها نصفٌ أيسر؟ ألم يكن تعبير "نصف أيـــسر" عـــديم المعنى في حدّ ذاته؟ واستحوذ عليّ فجأة غثيان فظيع. شعرت أنني سأتقيّأ...

فُتِح الباب فجأةً، ودخلت الممرّضة سولو وقد بدت قلقة جداً.

قالت: "آسفة للدخول على هذا النحو المفاجئ، ولكنني استرقت نظـــرة من خلال لوح الباب الشفّاف، وبدوتَ شاحباً بشكلٍ رهيب، كما لو كنت مصدوماً. كان صدرك يعلو وينخفض. ظننت أنك على وشك التقيّؤ. هل تشعر أنك بخير؟".

أومأتُ بخدر، محدِّقاً بها.

"لماذا تحدّق بـــي على هذا النحو؟".

قلـــت: "آه... إمـــم... لا شيء. لقد استفقت من حلمٍ مزعج لـــتوّي". لم أهـــتمّ أن أخـــبر الممرّضة سولو، التي نالت كفايتها من الـــصدمات بالفعـــل، **بأنها** كانت منشطرة نصفين، وأنّ نصفها كان مفقـــوداً. وفي دقائـــق الاستيقاظ الأولى تلك - أو هل كنت لا أزال نصف نائم - كان لديّ إحساسٌ غريب بأنها، ربما، كانت كاملة كما هـــي. تذكّـــرت قولها بالأمس أنها كانت "نصف مؤهّلة فقط"، وقد ربطـــتُ، للحظـــة، قولها ذاك بمظهرها. ثمّ على نحوٍ مفاجئ، وبارتياحٍ هائـــل غايةً في الروعة، أدركت أنني كنت أختبر واحدةً من نوبات ألم نـــصف الـــرأس. **كنت قد فقدت كلياً حقلي البصري إلى اليسار، وفقـــدت معـــه، كما يحدث أحياناً، الإحساس بأنّ هناك أي عالمٍ إلى**

اليـــسار. كانت **عُتمة** ألم نصف الرأس لديّ قد حدثت خلال النوم، وشـــكّلت الحقيقة الفسيولوجية لقنبلة نقص الإدراك والاختفاء الغريب لـــشجرة الأجـــاص، وجـــدار الحديقـــة، والنـــصف الأيسر لأمي. وباســـتيقاظي، وجدت هذا الحلم حقيقةً، أو بالأحرى وجدتُ أنّ ما كان حقيقةً في الحلم، كان حقيقياً الآن بالقدر نفسه وأنا مستيقظ.

أصـــرّت الممرضة سولو: "ولكنك تبدو بالفعل شاحباً ومريضاً"، لقد تكلّمت بشكلٍ طبيعي تماماً بالرغم من أنها بنصف وجه فقط.

قلت مقهقهاً: "حسناً، نعم. لقد استفقت وأنا أختبر نوبةً من نوبات ألم نصف الرأس". بدت الرؤية النصفية، أو **العمى الشقّي** ***hemianopia***، مـــضحكاً نـــوعاً مـــا وقد عرفت الآن ما كان، وأنه سيتلاشى قريباً. أكملـــت: "لكـــنني سأكون بخير. لا بأس بكوب شاي وبعض الخبز المحمّـــص بعد بضع دقائق، عندما تكون معدتي وبصري..."، قهقهت مرة أخرى، "قد استقرّا".

مُطمئنّةً، استدارت الممرّضة سولو إلى الباب، مستعيدة أثناء فعلها لذلك شكلها الكامل غير المنشطر.

لكن بالرغم من معرفتي بأنني كنت أعاني من عمىً شقّي، مع عدم انتباه نصفي للجانب المصاب، إلا أنّ معرفتي لذلك فكرياً لم تفعل شيئاً لتغيير الثغرة في الإدراك، أو، بالأحرى، الثغرة في الإحساس، أو الشعور بعـــدم وجـــود أي شيء غير ما رأيته، وبالتالي لم يكن هناك أي معنى للنظر إلى، أو البحث عن، ما يسمّى النصف "الأيسر" من الغرفة. بجهد إرادةٍ عنـــيف، مـــثل رجلٍ يُكره نفسه على التحرّك ببطء في كابوس، أدرتُ رأســـي نحـــو اليـــسار. وهناك، الحمد لله، رأيت بقية سريري، والـــنافذة نصف المغطّاة، والطباعة الحجرية المعتمة (مُظهرة اللورد لستر يخـــنق مريضاً على ما يبدو)، والجدار الأيسر للغرفة و- آه! من الجميل

أن أعـــرف أنها لا تزال لديّ - ذراعي اليسرى ممدودة على الوسادة. شاعراً بالارتياح على نحوٍ سخيف لإيجادي كل شيء في مكانه، أدرت رأســـي مـــرة أخـــرى إلى الموضع الأمامي المباشر، متسلياً بالاختفاء التدريجـــي، مـــرة أخرى، للنصف الأيسر من حقلي البصري؛ النصف الأيسر للغرفة، النصف الأيسر للعالم، وفكرة "اليسار".

نعم! أمكنني أن أرى ذلك مسلّياً ومثقّفاً **الآن** - بعد أن عرفت ما كان يجري وأنه مؤقّت - ولكنني كنت قد وجدته مرعباً جداً في حلمي وفي دقائق استيقاظي الأولى، قبل أن أدرك ما كان ما حدث. تذكّرت أنني كنت كطفلٍ أجد هذه النوبات مرعبة بشكلٍ لا يمكن تصوّره. لقد أصـــبحت في سنوات طفولتي تلك حسّاساً بشدّة لأمرين: أولاً، لأقلّ تغيُّر أو اضطّراب في إدراكاتي الحسّية، وثانياً، لمخاطر "إظهار" أي تغيُّر كهذا للناس غير الملائمين، تحسُّباً من أن يُعتبروا "مخترعين" أو "مجانين".

عـــبرت هـــذه الأفكار ذهني بسرعة، بينما كنت لا أزال مختبِراً للعمى الشقّي، وتبعها إحساسٌ نافذ مفاجئ من القياس والبصيرة: "نعم، هـــذا هـــو نفسه ما يحدث مع الساق! كيف أمكنني أن أكون مغفّلاً هكذا؟ أنا أعاني من **عُتمة** للساق! إنّ ما أختبره بنصف حقلي البصري هو أساساً مشابهٌ لما أختبره بساقي. لقد فقدت "حقل" ساقي تماماً كما فقدت جزءاً من حقلي البصري.

شـــعرت بارتياحٍ عظيم عندما أصبحت الفكرة واضحةً في ذهني. بقـــيت جمـــيع الشكوك والأسئلة الأخرى بأنواعها غير محلولة - بما في ذلـــك الـــسؤال الحاســـم حول ما إذا كانت الساق ستتحسّن أبداً - ولكنها أعطتني دعامة أساسية وبصيرة أتمسّك بها.

الآن - نعـــم - ثمـــة شـــيء كان يحدث في النصف الأعمى من عـــتمتي. لقد ظهر نمطٌ بالغ الدقة خلال تأمّلي، أكثر دقةً وشفافيةً من

أدقّ شبكة لعنكبوت، ومع نوعٍ من الحركة الباهتة، المرتعشة، المرتجفة، والمــضطّربة. أصــبح أكثــر وضوحاً وسطوعاً... شبكية من الجمال الهندســي الرائع، المؤلّفة كلياً من أشكالٍ سداسية تغطي نصف الحقل بأكملــه مثل غشاء رقيق من الدانتيل. أصبح النصف المفقود من الغرفة ظاهــراً الآن، ولكنه بقي بأكمله محتوىً ضمن غشاء الدانتيل الرقيق، بحــيث بدا هو نفسه مشبكياً في تركيبه: فسيفساء من القطع السداسية الــشكل، متعاشقة ومتجاورة تماماً بعضها مع بعض. لم يكن هناك أي إحساس بالمكان، أو بالصلابة أو الامتداد. لا إحساس بالأشياء باستثناء كــونها سطيحات متجاورة هندسياً. لا إحساس بالمكان، ولا إحساس بالحركة أو الزمن.

هنا، عندما كنت أستمتع بنوعٍ من الاهتمام المتجرّد اللاشخصي والرياضــي بهــذه الرؤية الفسيفسائية الساكنة اللاحيّزية (التي اختبرتها بــشكلٍ عَرَضــي سابقاً)، دخلت الممرّضة سولو وهي تحمل كوباً من الشاي وبعضاً من الخبز المحمّص. قالت: "تبدو أفضل حالاً **بكثير**. أنت تبدو نصف ميّت في لحظة، ونابضاً بالحياة في اللحظة التالية. لم يمرّ عليّ أبداً مريضٌ متغيّر بهذا الشكل".

شــكرتها لإحضارها الشاي، الذي وضعته على الطاولة المجاورة لــسريري إلى اليمين، ومن ثمّ سألتها، من دون تفكير، إن كان وقتها يسمح بدقيقة.

قالت مبتسمة: "ماذا الآن؟"، مفكّرةً بتجاربــي العجيبة في اليوم السابق.

أجبــتها: "ليس كثيراً. لن أطلب منك أن **تفعلي** أي شيء. لكن، إذا سمحت، هل يمكنك أن تذهبــي إلى الجانب الآخر من الغرفة، ربما بجانب النافذة، أو بجانب تلك الصورة الشريرة للّورد ليستر؟".

عبرت الغرفة، وقد تحوّلت فجأةً أثناء فعلها لذلك إلى فسيفساء: كانت هناك لحظة مذهلة، تماماً في المنتصف، عندما كان نصفٌ منها فسيفسائياً، والنصف الآخر **حقيقياً**. وقفت ساكنة بجانب النافذة، مُنارة من الخلف بنور الصباح الذي ترشّح من خلال النافذة؛ وفي تلك اللحظة، بينما كانت نصف ظلّية ونصف مُنارة... أحسست فجأة بالخوف. لقد أصبحتْ غير عضوية، جزءاً من الفسيفساء! كيف أدرك الحركة، والحياة، في هذا العالم البلوري؟

طلبت منها أن تنظر إلى الصورة، أو تتحدّث، أو تومىء، أو تقطّب، أو تفعل أي شيء يشتمل على حركة. والآن، أدركت بمزيج من السرور والانزعاج، أنّ الزمن كان متكسّراً بقدر المكان تماماً، لأنني لم أرَ حركاتها كشيء متّصل، بل كتتابعٍ من "الصور الساكنة"... تتابع من الأشكال والمواقع المختلفة، ولكن من دون أي حركة بينها، مثل تذبذب فيلم دائرٍ ببطء شديد. بدت متحجّرةً في هذه الحالة الفسيفسائية السينمائية، التي كانت أساساً محطّمةً، ومتفكّكة، ومتنافرة الأجزاء. لم أستطع أن أتخيّل كيف يمكن لهذا العالم الفسيفسائي المُكسَّر أن يصبح عالماً ذا استمرارية وتماسك. لم أستطع أن أتخيّل؛ ولكنه، على نحوٍ مفاجئ، أصبح كذلك فعلاً! تلاشت الفسيفساء والذبذبة في لحظة واحدة، وهناك وقفت الممرّضة سولو، التي لم تعد متحللة في المكان والزمان، بل حقيقية ومجسّمة، ودافئة ونابضة بالحياة، ورشيقة وجميلة، لقد عادت مرة أخرى إلى دفق النشاط والحياة. كان هناك جمالٌ رياضي في العالم البلوري، ولكن لا وجود لجمال النشاط أو جمال الرشاقة فيه.

قلت مسروراً: "هذا كل شيء. أظنّ أنك ساعدتني في إبعاد النسمة (*aura*)! وقد تلاشى الغثيان كله. الآن – نعم، **الآن** – أرغب في تناول سمك الرنكة المقدّد ذاك الذي شممت رائحته قبل قليل".

تناولت فطوراً هائلاً مترفاً، لدهشة الممرّضة سولو، التي كانت قد رأتـــني شاحباً كشحوب الموتى وعلى وشك التقيُّؤ قبل أقلّ من ساعة. ولكـــن بعـــد نوبات كتلك "يستفيق المريض كائناً مختلفاً" (كما كتب الدكـــتور ليفينغ الشهير)، وشعرت بالفعل أنني كائن مختلف، بُعِث من جديـــد بعـــد ليلة الرعب وألم نصف الرأس تلك. لكن ما جعل هذا الانبعاث والتجدّد الروحي أكثر بهجةً هو شعوري أنني قد وصلت من خـــلال القياس إلى بعض الفهم لحالة "ساقي". ليس لهذا الفهم أي تأثير علـــى الحقيقة الفسيولوجية، ولكنه انتزعها من عالَمي اللامفهوم وما لا يـــصحّ ذكره؛ يمكنني أن أناقش الأمر مع الدكتور سوان. كنت أكيداً بأنه سيكون منذهلاً بشدة، وسيتمكّن بالتالي من طمأنتي بشأن النقطتين اللتين استأثرتا باهتمامي: ما الذي سبّب **عتمتي** وكم ستستمرّ؟ كانت هناك أسئلة أخرى رغبت في طرحها عليه، إذا سمح الوقت بذلك: كم مـــن المرات رأى **عتمات** كتلك في مرضاه، وهل كانت موصوفة جيداً في المنـــشورات والمطبوعات الطبية؟ نعم، لن أحصل فقط على الطمأنة التي كنت بأمسّ الحاجة إليها، ولكن ستسنح لي الفرصة لتبادل حديث رائـــع مع زميلي، الأمر الذي سيوضِّح لكلينا هذا الحقل المذهل الواقع عند حدود جراحة التقويم والتجبير وطبّ الأعصاب.

جعلـــني الأمل متحمّساً جداً، بحيث إنني تناولت فطوري الضخم في حالـــة مـــن الذهول، مقدّراً لاشعورياً فقط سمك الرنكة المقرمش اللذيذ.

في الوقت المناسب، دخلت الأخت.

قالت مؤنِّبة إياي بروحٍ طيِّبة: "أنظر إلى الفوضى التي أنت فيها يا دكتور ساكس! ما كل هذه الكتب والرسائل والأوراق المبعثرة حولك في كل مكان. أعتقد بالفعل أنك قد **لطّخت** الملاءات بالحبر!".

قلت معتذراً: "إنه قلمي الحبر. إنه يسرِّب أحياناً".

"حسناً، يجب أن يكون كل شيء نظيفاً ومرتَّباً بعد الفطور. هناك جـــولات كـــبرى الـــيوم. سيكون الدكتور سوان هنا في تمام الساعة التاسعة!".

أومأت برأسها مبتسمةً، ثم اندفعت خارجةً من الغرفة.

فكّرت: "إنها جيدة. قاسية بعض الشيء، وصارمة بعض الشيء، ولكـــن هكـــذا يجـــب أن تكون الأخت. تحت ذلك الصوت الأجشّ والمظهر المرعب، هناك إنسانة طيبة القلب...".

رُفِـــع إبريق الشاي قبل أن أتناول فنجاني الثالث، وأحضرت لي الممرّضة سولو "طشتاً" وقالت: "أسرع! احلق!".

أزلت الشعر المُهمَل النامي على مدى ستة أيام - هل كانت ستة أيـــام فقط منذ أن انطلقت في رحلتي على الجبل؟ - وشذّبت لحيتي، ثمّ نظّفت أسناني، وتغرغرت بالماء.

ســـاعدتني الممرّضـــة سولو على الجلوس في كرسي، ووضعت ملاءات نظيفة على السرير ونظّفت الغرفة. ثمّ ساعدتني على العودة إلى الـــسرير وهي تقول: "تحب الأخت أن يكون المرضى مُسنَدين، مباشرةً في المنتصف. حاول أن تبقى في المنتصف. لا تمِل إلى جانبٍ واحد!".

وافقت على اتّباع تعليماتها وطلبت منها أن تُبقي الباب مفتوحاً، لأنـــي سمعت أصوات الجناح بأكمله وهو يُنظِّف ويُرتِّب، وقد كانت أصـــواتاً اســـتثنائية للغاية بحيث إنني أردت أن أسمعها بوضوح أكثر. كانت الأخت تزعق والمعاوِنات يركضن جيئةً وذهاباً، وكلّ المهملات والفـــضلات المبعثرة تُزال بسرعة خاطفة. كان هناك إحساسٌ بتفتيش عسكري نصف جدِّي ونصف هزلِي: كل شيء جاهز وتامّ.

كان الصخب والصياح والضحك رائعاً. وتمنّيت لو كان بإمكاني أن أراه، لا أن أسمعـــه فقط. كان كل شيء في هذه الجلبة الهائلة يصبح منظّماً تحت نفوذ صوت الأخت وعينها. ونظرتُ الآن إلى الجناح كسفينة كبيرة يتمّ تحضيرها وترتيبها لأمر ما، وليس كمكان للاستعراض.

بـــدا فجـــأةً أنّ الـــصخب واللغطً قد توقّف، واستُبدِل بسكونٍ استثنائي. سمعت همساً، وغمغمةً، لم أستطع أن أميّز منهما شيئاً.

دخـــل ســـوان إلى الغرفة ترافقه الأخت حاملةً أدواته الجراحية والاحتفالية على صينية، وتبعه الرجسترار (الطبيب المُقيم) الأعلى رتبة (*Senior Registrar*) وأطباؤه الأقلّ رتبة بمعاطف بيضاء طويلة. أخيراً دخل الطلاب بمعاطف بيضاء قصيرة، وقد بدوا مستكينين على نحوٍ غير مألـــوف. وعلـــى نحوٍ رسمي ومهيب مثل موكبٍ ديني، دخل الرئيس وحاشيته غرفتي.

لم ينظر سوان إليّ ولم يلقِ التحيّة عليّ، ولكنه أخذ لوحة البيانات المعلّقة عند أسفل سريري ونظر إليها بإمعان.

قال مخاطباً الأخت: "حسناً، كيف حال المريض اليوم؟".

أجابـــت: "لا حمّى الآن يا سيدي. نـــزعنا القثطار يوم الأربعاء. وهو يتناول طعامه عن طريق الفم. ليس هناك انتفاخ في القدم".

قال السيد سوان: "يبدو هذا جيداً"، ثمّ التفت إليّ، أو، بالأحرى، إلى الجبيرة أمامي. طرق عليها بحدّة ببراجمه.

قال: "حسناً يا ساكس. كيف تبدو الساق اليوم؟".

أجبت: "تبدو بخير يا سيدي، من الناحية الجراحية".

قال: "ماذا تعني بقولك من الناحية الجراحية؟".

"حـــسناً، إممـــم..."، نظـــرت إلى الأخت، ولكنّ وجهها كان متحجّراً. "ليس هناك ألمٌ كثير، و- إرر - ليس هناك انتفاخ في القدم".

قال وقد بدا عليه الارتياح: "رائع. لا توجد مشاكل إذاً؟".

"حسناً، هناك مشكلة واحدة فقط". بدا سوان متجهّماً، وبدأت أتمتم: "إنه... إنه... لا أبدو أنني قادرٌ على قبض العضلة الرباعية الرؤوس... و، إرر... ويبدو أنّ العضلة عديمة التوتّر. و... و... أجد صعوبةً في تحديد موقع الساق".

خامرني شعورٌ أنّ سوان بدا فزِعاً للحظة، ولكن ذلك كان خاطفاً جداً، وعابراً، بحيث إنني لم أستطع أن أتأكّد.

قال بحدّة وبصورة حاسمة: "هراء يا ساكس. لا شيء مهمّ. لا شيء على الإطلاق. لا شيء لتقلق بشأنه. لا شيء على الإطلاق!".

"ولكن...".

رفع يده، مثل شرطي يُوقِف السير، وقال بشكلٍ حاسم: "أنت مخطئ كلياً. لا يوجد خلل في الساق. أنت تفهم هذا، أليس كذلك؟".

بحركة فظة ونزقة، كما بدت لي، اتّجه نحو الباب، وقد تفرّق أطباؤه الأقل رتبة باحترام أمامه.

حاولت أن ألمح تعبير وجوههم عندما استداروا، ولكنّ وجوههم كانت متكتّمة و لم تخبرني شيئاً. وبسرعة خاطفة، غادر الموكب الغرفة.

كنت مشدوهاً. كل المخاوف والشكوك المعذّبة، كل العذاب الذي عانيت منه منذ أن اكتشفت حالتي، كل الآمال والتوقّعات التي علّقتها على هذا اللقاء؛ والآن هذا! وفكّرت: أي نوعٍ من الأطباء، أي نوعٍ من الأشخاص هذا؟ إنه حتى لم يستمع إليّ. لم يُظهر أي اهتمام. هو لا يستمع إلى مرضاه، ولا يهتمّ البتّة. إنّ رجلاً كهذا لا يستمع أبداً إلى مرضاه، ولا يتعلّم منهم. هو ينبذهم، ويحتقرهم، ويعتبرهم لا شيء. ثمّ فكّرت: يجب ألاّ أكون ظالماً هكذا. لقد كنت استفزازياً، من دون قصد، عندما قلت "من الناحية الجراحية". فضلاً عن ذلك، كنا كلانا

خـــلال حيّـــز معين: أما **هذه** القنبلة فبإمكانها أن تدمّر التفكير، وحيّز التفكير نفسه. لم يعرف أحدٌ منا ماذا يفكّر أو يتوقّع، نظراً لأنّ التأثير، كما أُخبرنا، لا يمكن تصوّره.

مـــثل العديـــد من الناس في حلمي، شعرت بحاجة إلى أن أكون خارجـــاً في الهواء الطلق، وكنت أقف مع عائلتي في حديقة منـــزلنا. كانـــت الـــشمس مـــشرقة، وبدا كل شيء طبيعياً، باستثناء السكون الغـــريب حولنا. انتابني فجأة إحساسٌ بأنّ شيئاً قد حدث، أو أنّ شيئاً كان يبدأ في الحدوث، بالرغم من أنه لم تكن لديّ فكرة عمّا كان. ثم أدركت أنّ شجرة الأجاص في حديقتنا قد اختفت. كانت إلى اليسار قلـــيلاً حـــيث كنت أنظر، والآن لم يعد هناك شجرة أجاص. لم تكن شجرة الإجاص هناك!

لم ألتفت برأسي لأتحقّق من هذا الأمر أكثر. لسببٍ ما، لم يخطر لي أن أحـــوّل نظرتي. لقد اختفت شجرة الأجاص، ولكنّ اختفى معها أيـــضاً المكان الذي كانت تنتصب فيه. لم يكن هناك إحساسٌ بمكان تمّ إخلاؤه، بل ببساطة لم يعد المكان هناك. لم يعد؟ هل بإمكاني أن أتأكّد أنـــه **كان** هناك؟ ربما ليس هناك شيء مفقود. ربما لم يكن هناك شجرة أجاص أبداً. ربما كانت ذاكرتي أو مخيّلتي تخدعني. سألت أمّي، ولكنها كانت مرتبكة مثلي تماماً، وبالطريقة نفسها: فهي أيضاً لم يعد بإمكانها أن تـــرى الشجرة، ولكنها شكّت أيضاً ما إذا كانت قد وُجدت هناك أساســـاً. هـــل كان هذا بتأثير قنبلة نقص الإدراك، أم أنّ خوفنا يولّد أوهاماً مضحكة؟

الآن كان جزءٌ من جدار الحديقة مفقوداً، بما فيه البوّابة التي تقود إلى طـــريق إكستر. أو هل **كانت** مفقودة فعلاً؟ ربما لم يكن هناك أبداً أي جدار حديقة. ربما لم تكن هناك أي بوّابة تواجه طريق إكستر، ولا

III. عالم النسيان

عالم النسيان

لقــد اختبرت **العُتمةَ** وأصداءها؛ صوراً من العدم مفزعة فارغة، جاشــت في داخلي وغمرتني، خاصةً في الليل. وكوقاءٍ ضدّها - كنت قــد رجوت وافترضت - سيأتيني الفهم والدعم المُحْيِيان من طبيبــي. سيطمئنني، ويساعدني، ويعطيني موطئ قدمٍ في الظلام.

لكنه، عوضاً عن ذلك، فعل العكس. بعدم قوله أي شيء، بقوله "لا شيء"، أخذ مني موطئ قدم، موطئ القدم الإنساني، الذي كنت في أمــسّ الحاجــة إليه. الآن، على نحوٍ مضاعَف، ليس لديّ ساقٌ لأقف علــيها. وبمــا أنني غير مُسنَد، فقد دخلت، على نحوٍ مُضاعَف، العدم وعالم النسيان.

... إنّ **العُتمة** هي حفرة في الحقيقة نفسها، حفرة في الزمن بقدر مــا هي حفرة في المكان، وبالتالي **لا يمكن** اعتبار أنّ لها مدّة أو نهاية. وكمــا تحمل خاصيةَ "حفرة الذاكرة"، والنسيان، فكذلك تحمل حسّاً بالخلود، واللاحدود. إنّ خاصية الخلود، والنسيان، متأصّلة في **العُتمة**.

يمكــن لهذا أن يكون محتملاً، أو محتملاً أكثر، إذا كان بالإمكان البوح به إلى الآخرين، وأصبح موضوعاً للتفهُّم والتعاطف، مثل الحزن. لقد حُرِمت من هذا عندما قال الجرّاح "لا شيء"، بحيث إنني قُذِفت... في حرمان التواصل، واجتاحني إحساسٌ من اليأس المطلق.

شــعرت بنفسي أغرق. ابتلعتني الهاوية. وبالرغم من أنّ **العُتمة** تعــني "الظلّ" أو "الظلام" - وهذا هو الرمز المعتاد للرعب والموت - إلا أنني كنت حسّياً وروحياً متأثّراً أكثر بالصمت. واظبت على قراءة

الدكـــتور فاوســـتوس في هذا الوقت... "لا يمكن لإنسان أن يسمع نغمـــته الخاصة" من جهة، ومن جهة أخرى الضجيج والجلبة... لقد طُـــبِّق هـــذا حرفياً في الغرفة التي لا حيِّز فيها، الزنـــزانة، التي قبعت فـــيها، محـــروماً من الموسيقى، ومسحوقاً بالضجيج. لقد تقت، بنهمٍ وعطش ويأس، إلى الموسيقى، ولكنّ الراديو الصغير البغيض خاصتي لم يـــستطع أن يلـــتقط أي شـــيء، بسبب المبنى والسقالة التي حجبت الاستقبال. من ناحية أخرى، كانت هناك المثاقب الهوائية شغّالة طوال اليوم، حيث كان العمل يُنجَز على السقالة على بعد أقدام (أمتار) من أذنَيّ. إذاً، كان هناك، خارجياً، صمتٌ وضجيج، وفي الوقت نفسه، كان هناك، داخلياً، صمت داخلي ميت، صمت الخلود، والسكون، **والعُـــتمة**، متـــرافقاً مـــع صمت عدم التواصل والمحظور. عاجزاً عن التواصـــل مع الآخرين، ومنفرداً في زنـــزانتي، كان إحساسي بالعزلة والحـــرمان يـــتفاقم. حافظت على سطح أنيس وقابل للتوجيه، بينما غذّيت يأساً داخلياً وسرّياً.

كتب نيتشه: "إذا حدّقت في الهاوية، فستحدّق بك بالمقابل".

الهاويـــة هـــي فجوة، أو صدع لامتناه، في الحقيقة. إذا لاحظتها فقـــط، فقد تفتح أسفل منك. عليك إما أنْ تبتعد عنها، أو تواجهها، بشكلٍ عادل. أنا عنيدٌ جداً، بغضّ النظر عن النتيجة. إذا استحوذ شيء علـــى انتباهي، فليس بإمكاني أن أتحرّر منه. قد يكون هذا قوةً عظيمة، أو ضـــعفاً. فهو يجعلني متقصّياً، ويجعلني مهووساً. لقد جعلني، في هذه الحالة، **مستكشفاً** للهاوية...

لقـــد أحبـــبت دومـــاً أن أرى نفسي كعالمٍ بالتاريخ الطبيعي أو كمستكـــشف. لقـــد استكشفت العديد من الأراضي السيكولوجية العصبية الغريبة؛ أبعد المناطق القطبية والإستوائية للاضطّراب العصبـــي.

لكنني قرّرت الآن - أو هل أُكرِهت على ذلك - أن أستكشف أرضاً بلا خريطة وراء نطاق متناول كل الخرائط. الأرض التي واجهتني كانت لا أرض ولا مكان.

كــل القِــوى المعرفية والفكرية والتخيُّلية التي ساعدتني سابقاً في استكشاف أراضٍ سيكولوجية عصبية مختلفة كانت عديمة النفع والمعنى كلياً في عالم نسيان اللامكان. لقد انسحبت من خريطة، أو عالَم، كــل مــا هو قابلٌ للمعرفة. لقد انسحبت من المكان، ومن الزمان أيضاً. لا يمكن لأي شيء بعد أن يحدث أبداً. لم يعنِ الذكاء، والمنطق، والفهــم شيئاً. لم تعنِ الذاكرة، والتخيُّل، والأمل شيئاً. لقد فقدت كل شــيء زوّدني بموطئ قدم سابقاً. ودخلت، طوعاً أو كرهاً، ليلةً مظلمةً للروح.

اشــتمل هــذا، في الــبداية، علــى خوف عظيم جداً. لأنني اضــطّررت إلى التخلّــي عــن كل القِوى التي أُسيطر عليها عادةً. اضــطّررت، أولاً وقــبل كل شيء، إلى التخلّي عن حسّ وشعور **النشاط**. اضطّررت إلى إفساح المجال - وقد بدا هذا رهيباً - لحسّ وشــعور **الهمود**. لقد وجدت هذا مُذلاً في البداية، وإماتةً لنفسي؛ تلــك الــنفس الرجولية الآمرة التي ساويتها مع علمي، واحترامي لنفــسي، وعقلي. ثمّ، وعلى نحوٍ غامض، بدأت أتغيّر، مُجيزاً هذا التخلّــي عــن النشاط ومرحِّباً به. بدأت أدرك هذا التغيّر في اليوم الثالث من عالم النسيان.

بالنسبة إلى الروح الضائعة، المُربَكة، في الظلام، وفي الليل الطويل، فــلا الخرائط، ولا العقل الصانع للخرائط كان مفيداً، ولا حتى **مزاج** صــانع الخــرائط أيــضاً؛ "إحساس رجولي قوي... مغامرة... يقظة ونشاط" (كما كتب كاتبٌ معاصر عن الكابتن كوك). قد تكون هذه

الخواص النشيطة ذات قيمة لاحقاً، ولكن في هذه المرحلة لم يكن لديها شيء لتعمل عليه. فحالتي في الليلة المظلمة كانت حالةً متّسمة بالهمود، همود شديد ومطلق وأساسي، سيكون فيه الفعل - أي فعل - إلهاءً ومن دون جدوى. كانت كلمة السرّ في هذا الوقت هي "كن صبوراً؛ تحمّل... انتظر، كن ساكناً... لا تفعل شيئاً، لا تفكّر!" يا له من درسٍ صعب ومتناقض للتعلُّم!

كن ساكناً، وانتظر من دون أمل
لأنّ الأمل سيكون أملاً بالشيء الخطأ. انتظر من دون حُبّ
لأنّ الحبّ سيكون حباً للشيء الخطأ...
انتظر من دون تفكير، لأنك غير مستعد للتفكير...

(إليوت)

كان عليّ أن أبقى ساكناً، وأن أنتظر في الظلام، وأن أشعر به على أنه مفعَمٌ بقوة خارقة، وليس مجرّد عمىً وحرمان (بالرغم من أنه اقتضى بالفعل عمىً وحرماناً كاملَين). كان عليّ أن أذعن، وحتى أن أكون مسروراً، أنّ تفكيري السليم كان مُربكاً، وأنّ قواي وقدراتي ليس لها موضع فِعل ولا يمكن بذلها لتغيير حالتي. لم أسعَ وراء هذا، ولكنه حدث، ولهذا عليّ أن أقبله، عليّ أن أقبل هذا الهمود الرهيب والليل، هذه **العُتمة** الغريبة للحواس وسلامة التفكير، ليس بغضبٍ، أو برعب، بل بامتنان وسرور.

كان هذا، إذاً، هو التغيُّر بدءاً من اليوم الثالث لدخولي عالم النسيان، الذي نقلني من إحساسٍ بالمقت الشديد واليأس، إحساسٍ بجهنم بشعة لا توصَف، إلى إحساسٍ بشيء مختلف على نحوٍ كلي وغامض - ليل لم يعد مقيتاً ومظلماً، بل مشعّاً، سرّاً، بضوءٍ يسمو على الإحساس - ورافق هذا فرحٌ غريب متناقض ظاهرياً:

في الظلام وآمناً، بجانب السلّم السرّي، متنكِّراً - آه، فرصة سعيدة!
في الظلام وفي الإخفاء، منــزلي الآن ساكناً.
في الليل السعيد، سراً، حيث لم يرني أحد،
ولا أنــا نظرت البتّة. من دون ضوء أو هداية، باستثناء ذاك الذي اشتعل في قلبـــي.
هــذا الضوء هداني. بكل تأكيد أكثر من ضوء منتصف النهار إلى المكان حيث كان ينتظرني...

(John of the Cross)

كـــنت قد فكّرت، في أوج سلامة تفكيري، وفي ضوء منتصف النهار لصوابـــي، أنّ كل ما يستحق الإنجاز في الحياة يمكن أن يُنجَز من خــلال الــتفكير الــسليم والإرادة، ومن خلال "الإحساس الرجولي القوي... المغامرة... اليقظة والنشاط" التي ميّزت مساعيّ سابقاً. الآن، للمـــرة الأولى في حياتي ربما، تذوّقت، أو أُجبِرت على أن أتذوّق، شيئاً مختلفاً تماماً؛ أن أختبر في مرضي الهمود الأعمق، وأن أدرك أنّ هذا كان الموقف الصحيح الوحيد في ذلك الحين...

اجتماعياً، حاولت أن أكون نشيطاً وراشداً، وأن أتجنّب الاعتماد على الآخرين إلا بالحدّ الضروري الأدنى. لكن روحياً - وهو ما كان داخلــياً ولــيس اجتماعــياً - كـــان عليّ أن أتخلّى عن كل قدراتي وطمـــوحاتي، وكل نشاطاتي ومغامراتي الراشدة والرجولية، وأن أكون مـــثل الأولاد، صـــبوراً وهامداً في الليل الطويل، حيث كان هذا هو الموقف الصحيح الوحيد في ذلك الحين. كان عليّ أن أنتظر، أن أكون ساكناً، لأنه كان ينتظرني...

كـــان قائد الطائرة، وهو رجلٌ صريح ودود، مليء بالعزم وحب المغامـــرة، وذو حـــسّ رجولي قوي، قد قال لي: "أول درسٍ يجب أن تتعلّمه بشأن كونك مريضاً، هو الصبر!"، وفي الأيام الأولى لإقامتي في

المستشفى، قال لي واحدٌ من الأطباء المُقيمين الجراحين (وا حسرتاه أنه ليس جرّاحي)، وقد رآني مغتاظاً، ونـــزقاً، ونافد الصبر، وقلقاً: "هوّن عليك! إنّ الأمر كله، واجتيازه، هو رحلة طويلة بالفعل".

هكـــذا فإنّ عالم نسياني - الذي استمرّ لعشرة أيام خالدة - بدأ كعـــذاب، ولكنه تحوّل إلى صبر. بدأ كجهنم ولكنه أصبح ليلاً طاهراً مظلمـــاً، لقـــد قهرني على نحوٍ رهيب، وانتزع الأمل مني، ولكنه، من ناحية أخرى، أعاده إلّي بلطفٍ وعذوبة، مضاعَفاً آلاف المرات ومحوَّلاً.

في عـــالم النـــسيان هذا، عندما رحلت إلى اليأس ذهاباً وإياباً - رحلـــة للروح، لأن ظروفي الطبية كانت غير متغيّرة، وأسيرةً في الثبات الساكن **للعُتمة**، وفي اتفاق ليس غير ودّي، بين أطبائي ونفسي بأن لا أشير أبداً إلى "أمور أعمق" - في عالم النسيان هذا، في الليل المظلم هذا، لم أستطع أن ألجأ إلى العلم. مُواجَهاً بحقيقة لا يمكن للتفكير السليم أن يحلّها، لجأت إلى الفنّ والدين من أجل العزاء. لقد كان هذان، وهذان فقـــط، همـــا اللذين يمكن أن يناديا خلال الليل، ويمكن أن يتواصلا، ويمكن أن يجعلا الأشياء أكثر منطقية، ووضوحاً، واحتمالاً...

IV. التنشيط

لكن بأي وسائل يمكن للحيوان أن يُحرِّك بقواعد داخلية... بواسطة أي أدوات؟ دعـــنا نقارن بالآلات الذاتية الحركة... هل الروح هي الأداة الأولى للحركة؟ أو هل هي دواعٍ طبيعية، مثل حركة القلب؟

ويليام هارفي، De Motu Locali Animalium

التنشيط

خلال هذه الأيام العشرة، هذه الأيام اللامتناهية والفارغة في آن، لم تتغيّـــر الساق نفسها مثقال ذرّة. بقيت ساكنة كلياً، وعديمة الحياة والإحـــساس، تحت قبرها الطباشيري الأبيض. كان ثباتها المطلق وعدم قابليـــتها للتغـــيير، واســـتبدالها، إذا جاز التعبير، باسطوانة بيضاء غير عـــضوية، وخاصيتها الميّتة المتحجّرة الكلسية، تُعرَض عليّ كل ليلة من جديد، لمرات لا تُعدّ في الليلة الواحدة. أما أحلامي، فهي أيضاً لم تتغيّر مـــثقال ذرّة، ولكـــنها احتفظت بالحيوية الخيالية والتخطيطية نفسها، والغـــياب نفـــسه لأي حركة، أو حدوث، أو حدث، كما كانت في ظهورها الأول.

كانت **فكرة** إحراز أي تقدُّم، أو تغيير، أو أي تلميحٍ أو أملٍ بهما، تُلغَـــى وتُمحَق باستمرار حتى صباح السبت التالي. أُورِد المدخل التالي من دفتر يومياتي:

> **ظواهر جديدة من الساق. ومضات من الألم مفاجئة وحادة ووجيزة للغايـــة من مكانٍ ما في الساق، تشبه الأنبوب الصاعق في شدّتها المُفقِدة للحسّ وقصر مدّتها. "الآلام البارقة" مشابهة... فهي تجعل المـــرء حـــتماً ينتفض أثناء دوامها، ولكنّ مدّتها لا تتجاوز بضعة أجـــزاء مـــن الألف من الثانية. أتساءل بشأن فسيولوجية ومضات الألم الإستثنائية هذه. ما الذي يجري بحقّ السماء؟**
> **لقد بدأت أختبر أيضاً ارتعاشاً لاإرادياً شبيهاً بالومضة في العضلة التي كانـــت سابقاً خاملة وساكنة. كانت الارتعاشات والومضات ذات نوعية شوكية، كما لو كان هناك تأثيرٌ لخلايا حسّية أو حركية منعزلة...**

لقد منحتني شعوراً مزدوجاً، نصفه خوف ونصفه أمل. بدا واضحاً أنهـا مرضـية. وتشير طبيعتها إلى وجود إزالة تعصيب حقيقية. ولكن مظهرها نفسه هو ربما علامة على عودة التعصيب.

لـيس من الممكن بعد القيام، أو التفكير بالقيام، بأي حركة إرادية، ولكنّ هذه الومضات اللاإرادية - الصعقات والتحزُّمات - هي ربما الـشرارات الأولـى للحـياة، وقـد تـشير إلى أنّ العضلة تستعدّ للاستجابة.

تحزُّمات العضلة هذه، التي ليست كلها "خاصة"، بل واضحة تماماً للكل، مثّلت الحقيقة الإيجابية الأولى منذ دخولي المستشفى. كانت هذه الطقطقات والومضات علامةً وأمارةً للشفاء العصبـي... علامة على أنّ بعـض التأثُّرية، بعض "الحياة"، كان يعود إلى العصب والعضلة منذ إصـابتها قبل أسبوعين. وقد منحتني إحساساً قوياً بالنشاط الكهربائي؛ نوع من "الفارادية" التلقائية أو صعق العصب والعضلة؛ إضرام كهربائي للشرارة البطيئة للحياة...

كـان لديّ إحساسٌ قوي بعاصفة كهربائية، بومضات برقية تثب مـن ليف عصبـي إلى آخر، وبدمدمة وطقطقة كهربائية في العصب والعـضلة. و لم يسعني إلا أن أتذكّر وحش فرانكنشتاين موصولاً بمانعة صواعق، ومطقطقاً للحياة بالومضات.

شعرت يومئذ، يوم السبت، بأنني كنت "مكهرَباً"، أو بالأحرى، أنّ جزءاً صغيراً ومحيطياً من الجهاز العصبـي كان يُكهرَب وتُبعَث فيه الحـياة: لـيس أنـا... هـو... لم ألعب أيّ دورٍ في هذه التشنّجات والومضات الموضعية اللاإرادية. لم يكن لها أي علاقة بـي، أو بإرادتي. و لم تترافق مع أي شعورٍ بالعزم أو الإرادة، ولا مع أي فكرة بالحركة. كمـا أنها لم تحفّز فكرةً أو عزماً و لم تُحفَّز بهما أيضاً. وبالتالي فهي لم تُظهـر أي خاصية **شخصية**. لم تكن ومضات وتشنّجات إرادية... لم

تكـــن **أفعالاً**، بل مجرّد ومضات متفرِّقة محيطية، ولكنها مع ذلك علامةٌ واضـــحة وحاسمـــة ومرحَّبٌ بها أقصى ترحيب بأنّ ما حدث أو كان يحـــدث، محيطياً، بدأ الآن يُظهر بعض العودة إلى الوظيفة. صحيحٌ أنها كانـــت وظـــيفة شاذة انتيابية أشبه بالوميض، ولكن أي وظيفة كانت أفضل من لاوظيفة على الإطلاق.

تقت خلال كامل فترة النسيان تلك إلى الموسيقى، ولكنني كنت مُحبطاً بجهودي الفاشلة للحصول عليها. وفي منتصف الأسبوع، كنت ســئماً بالـــراديو البغيض خاصتي، وطلبت من صديق أن يجلب لي آلة تـــسجيل مـــع أشرطة موسيقى. في صباح يوم السبت - يوم السبت نفسه، السابع من الشهر - جلب مسجِّلته مع شريط واحد، مُعرِباً عن أسفه بأنه كان الشريط الوحيد الذي استطاع أن يجده. احتوى الشريط قطعة موسيقية (كونشيرتو) لمندلسون معزوفة على الكمان.

لم أكـــن أبداً معجباً خاصاً بمندلسون، بالرغم من أنني استمتعت دومـــاً بالحـــيوية والخفّة الرائعة لموسيقاه. كان أمراً مدهشاً (ولا يزال) بالنـــسبة إلي أنّ هذه القطعة الموسيقية الساحرة الزهيدة القيمة كان لها مـــثل ذلك التأثير العميق والحاسم عليّ، كما تبيّن لاحقاً. فمنذ اللحظة التي بدأ فيها الشريط، من الفواصل الموسيقية الأولى للكونشيرتو، حدث شـــيء، شـــيء من نوعٍ كنت متلهِّفاً وتوّاقاً له، شيء كنت أبحث عنه بسُعرٍ أكثر فأكثر مع كل يومٍ يمرّ، ولكنه تملّص مني. فجأةً، وعلى نحوٍ رائع، أثارت الموسيقى مشاعري. بدت الموسيقى نابضة بالحياة بصورةٍ رائعـــة وحماسية، ونقلت إليّ شعوراً عذباً بالحياة. شعرت، مع الفواصل الموســـيقية الأولى، بأمـــلٍ وتلمـــيحٍ بأنّ الحياة ستعود إلى ساقي، وأنها ســـتهتزّ، وتهتـــزّ، بحركة أصلية، وتتذكّر أو تعيد ابتداع لحنها الحركي المنـــسي. شـــعرت - يـــا لها من كلمات غير ملائمة لمشاعر من هذا

النوع! - خلال تلك الفواصل الموسيقية المبهجة الأولى كما لو أنّ المبدأ المنـــشِّط والمـــبدع للعالم بأكمله قد كُشِف، وأنّ الحياة نفسها كانت موسيقى، أو مصنوعةً من جوهر الموسيقى نفسه، وأنّ جسدنا المتحرّك الحـــيّ كـــان هـــو نفـــسه موسيقى "صلبة"؛ موسيقى هي جسدية، وجوهـــرية، ومادّيـــة. وبإحـــساسٍ شديد، وشغوف، وصوفي تقريباً، شـــعرت أنّ تلك الموسيقى قد تكونً بالفعل العلاج لمشاكلي، أو على الأقل مفتاحاً من نوعٍ لا غنى عنه.

أعـــدت الاســـتماع إلى الشريط مرةً بعد أخرى. لم أملّ منه: لم أرغـــب في أي شـــيء آخر. كان كل استماعٍ له بمثابة إنعاشٍ وتجديد لروحي. بدا أنّ كل استماع له يفتح آفاقاً جديدة. وتساءلت إن كانت الموسيقى هي المفتاح، أو الوعد بفعلٍ وحياة متجدّدة؟

يومَـــي السبت والأحد - عطلة نهاية الأسبوع الآملة - زال عني إحـــساس اليأس والظلام اللامتناهي. كان لديّ إحساسٌ، ليس بالفجر، بـــل بالإطلالة الأولى للفجر: كان لا يزال منتصف الشتاء، ولكن لعلّ هـــناك ربيعاً سيأتي. كيف؟ لم أعرف. لا يمكن تصوّر هذا الأمر، لأنه لـــيس أمراً يمكن حلّه (أو مسّه حتى) من خلال الحدس أو التفكير. لم يكـــن ما أواجهه مشكلة بل لغزاً؛ لغز بدايةٍ جديدة وتنشيط. ربما كان لا بـــدّ أن يسبق هذا ظلامٌ لامتناهٍ وصمت. ربما كان هذا هو الرحم، رحم الليل، الذي كانت تنتج فيه حياة جديدة.

لم يكن هناك زوالٌ لليأس فحسب في عطلة نهاية الأسبوع تلك، بـــل أيـــضاً نوعٌ من خفة وابتهاج الروح. كان هناك إحساسٌ بتماثلٍ ممكن للشفاء. غمرني إحساسٌ بالتجديد.

في كل مرةٍ كنت أستمع فيها لكونشيرتو مندلسون على المسجّلة، أو في ذهـــني، وفي كـــل مرة كنت أختبر فيها تشنّجاً كهربائياً مفاجئاً

للعضلة، كانت روح الأمل تلك تأسرني مجدّداً. ومع ذلك، كان أملي، إلى حدّ ما، نظرياً: لم يكن واضحاً أنّ لديّ أي شيء لأكون آملاً بشأنه. كنت لا أزال أفكّر في الساق على أنها "منتهية". ما كانت الموسيقى، ما كانت تلك المشاعر الرقيقة، إذا افتقرتُ إلى الآلية، إلى الجهاز؟ كنت في أمسّ الحاجة إلى أن أرى الساق، كي أتأكّد من أنّ مادتها، وحقيقتها، كانت سليمةً لم تمسّ. لحسن الحظ والتوقيت الجيد، كان ذلك سيحدث في اليوم التالي.

في صباح يوم الاثنين، أي في اليوم الرابع عشر بعد الجراحة، كان مقرَّراً أن أنزل إلى غرفة التجبير، من أجل فحص الجرح وإزالة الغُرَز. خلال هذين الأسبوعين، وبالفعل منذ ليلة الحادثة، لم أتمكّن فعلياً من رؤية الساق، لأنها كانت دوماً مغطّاة وموضوعة في جبيرة. كان هناك ثمّة شيء بشأن الجبيرة - انعدام معالمها، وبياضها القبري، وشكلها، الذي كان مثل تقليد ساحر مبهم لساق - طوّقها بالرعب: وبالفعل، فإنّ كونها كذلك جعلها تلعب دوراً كبيراً في أحلامي.

في الليلة السابقة لموعد نزولي إلى غرفة التجبير، وإزالة الجبيرة، بلغت هذه الأحلام ذروة مفزعة: كنت أحلم، وأستفيق لفترة وجيزة، ثمّ أغفو لأرى الأحلام نفسها مرةً أخرى. لا بدّ أنني حلمت مئات المرات بالجبيرة فارغةً، أو مصمتة، أو مليئة بكتلة قذرة مثيرة للاشمئزاز من العظام المتعفّنة، والحشرات، والقيح. تلاشى كل الفرح المندلسوني، والمرح، والابتهاج. وعندما بزغ أخيراً الفجر الرمادي المعتم ليوم الاثنين، شعرت أنني مرتعد وضعيف، ومريض جداً لأتناول فطوري، أو أقول أي شيء، أو أفكّر. استلقيت مثل جثّة في سريري، منتظراً أن يأخذوني إلى غرفة التجبير.

إنّ اسم "غرفة التجبير" نفسه له رنين مفزع ومقيت. وحتى كلمة "تجــبير" اتّخذت معانيَ مزعجة أخرى. وجدتُ صوراً تتزاحم في ذهني مــن تلقــاء نفسها؛ صوراً لغرفة التجبير مثل مكانٍ يصنعون فيه جبائر ويطــرحون أخرى، حيث تتمّ قولبة أطراف جديدةٍ وأجساد بواسطة صانع الجبائر، بينما يتمّ طرح الأطراف القديمة والعديمة النفع. استمرت هذه التخيّلات في التزاحم في عقلي، ولم أستطع أن أصرفها، بالرغم من سخافتها.

شعرت بالارتياح، وبالفزع أيضاً، عندما جاء الممرِّضون أخيراً ووضــعوني علــى نقّالة ومضوا بــي خارج الغرفة. خارج الغرفة! للمــرة الأولى خلال خمسة عشر يوماً. لمحت السماء بنظرةٍ خاطفة بيــنما كنا ننتظر النــزول. السماء! كنت قد نسيتها، نسيتُ العالم الخارجــي، وأنا متمدّد في زنــزانتي الصغيرة الخالية من النوافذ، في حجــزٍ انفــرادي، مُثاراً، ومهووساً، حيث عقلي هو قِدر ضغطية للأفكــارٍ. بــدت قعقعة عربة النقّالة مرتفعة بشكلٍ فظيع، وظلت تقترح لي صوت عربة نقل السجناء المحكومين إلى المقصلة أيام الثورة الفرنــسية... الإحــساس بأنني مُساقٌ إلى موتي، أو شيء أسوأ من المــوت: إلى تحقُّق كابوس بغيض، حيث كل تخيّلاتي حول الغريب، والميت، واللاحقيقي، ستصبح حقيقة.

كانــت غرفة التجبير صغيرة، وبيضاء، وعديمة المعالم، تشبه غرفة جــراحة وورشــة في آن، مع مجزّ وأدوات أخرى معلّقة على الجدار؛ الأدوات الغــريبة المفزعة لفنّ صانع الجبائر. نقلني الممرّضون إلى منصة مــرتفعة في الوســط - بــدت لي كمنصّة تابوت أو كوَضَم جزّار - وخــرجوا، غــالقين الباب وراءهم. كنت فجأةً وحيداً في هذه الغرفة الصامتة الغريبة.

ثمّ أدركـــت أنـــني لم أكن وحيداً. كان صانع الجبائر يقف في زاويـــة مرتدياً رداءً أبيض. كنت بطريقة أو بأخرى قد عجزت عن رؤيته عندما تمّ إدخالي بالعربة إلى الغرفة. أو لعلّه دخل من دون أن أنتبه. فبطريقة مثيرة للفضول، بدا أنه لا يتحرّك، بل يظهر فجأة في أجـــزاء مختلفة من الغرفة. كان هنا، كان هناك، ولكنني لم ألمحه أبداً في مـــرحلة انتقالـــية. كان له وجهٌ منحوت غير متحرّك على نحوٍ غريب، بملامح مثل تلك في لوحات العصور الوسطى. كان يمكن أن يكـــون وجـــه دورر، أو وجه قناعٍ أو تمثال بشع مُتخيَّل بواسطة دورر.

استجمعت سلوكاً اجتماعياً وقلت: "أهلاً، سيد إنوخ. طقس مضحك لدينا اليوم".

لم يجب، ولم يبدِ أقلّ حركة أو ارتجاج.

أدلـــيت بتعلـــيقات عابرة أخرى، ومن ثمّ توقّفت عندما لم يجب واســـتمرّ في الوقـــوف بلا حراك في الزاوية وذراعاه مطويتان وعيناه مركّـــزتان على عينَيّ. وجدت نفسي أفقد أعصابـــي بازدياد، وخطر ببالي أنه قد يكون مجنوناً.

ثمّ فجـــأةً، ومن دون أي حركة انتقالية، لم يعد واقفاً في زاويته، وإنمـــا بجانب الجدار الذي علّق عليه المجزّ وأدوات أخرى. والآن، كان المجزّ في يده بلمحة واحدة. بدا المجزّ كبيراً بشكلٍ مخيف، وبدا هو أيضاً بالـــغ الـــضخامة. وشعرت أنه يستطيع بجزّة واحدة أن يقصّ ساقي أو يشطرني إلى نصفين.

وبوثبة واحدة، كان واقفاً بجانبـــي والمجزّ مفتوحٌ على وسعه، للجـــزّة الأولى. أردت أن أصـــرخ "ساعدوني! أي أحد، كائناً من كـــان، أدخـــل! أنا مُهاجَم برجلٍ مجنون بيده مجزّ". لكنّ تفكيري

السليم أعادني إلى صوابي وجعلني أدرك أنّ كل هذا كان وهماً، وأنّ السيد إنوخ قد يكون غريباً بعض الشيء وصموتاً، ولكنه بكل تأكيد حِرَفي ماهر ومسؤول. ولهذا سيطرت على نفسي، وابتسمت، و لم أنبس بكلمة.

ثمّ سمعت صوتاً مُطَمئِناً؛ طحناً لطيفاً بينما كانت الجبيرة تُقصّ. لم يكن هناك أي هجوم رهيب! كان السيد إنوخ يقوم بعمله بهدوء. شقّ الجبيرة من الأعلى إلى الأسفل، ومن ثمّ فتحها برفق كاشفاً الساق. أما الجبيرة نفسها فقد ألقاها بخفّة في الزاوية. أذهلني هذا، لأنني تخيّلتها ثقيلة جداً، بوزن خمسة عشر أو عشرين كيلوغراماً على الأقل. كان الأصدقاء، بناءً على طلبي، قد رفعوا الساقين، وقالوا: "أف! تلك التي في جبيرة الجبس تزن طنّاً؛ أثقل من الأخرى بخمسة عشر كيلوغراماً على الأقلّ". لكن بدا واضحاً من الطريقة التي رفعها بها السيد إنوخ ورماها في الزاوية أنها لم تزن شيئاً على الإطلاق، ولا بدّ أنّ الثقل الميّت للساق، تلك الكيلوغرامات الخمسة عشر الزائدة، كانت نتيجة لافتقارها الكامل إلى القوة العضلية؛ تلك القوة الوضعية الطبيعية التي يجدها المرء حتى في الاسترخاء الأعمق أو النوم.

خطا السيد إنوخ إلى الخلف، أو، بالأحرى، اختفى فجأةً، وظهر من جديد بشكلٍ فجائي أيضاً في زاويته الأصلية، مع ابتسامة باهتة مبهمة على شفتيه.

والآن دخلت الأخت والرجسترار الطبيب المُقيم الجراحي الغرفة مستعجلَين، وهما يبتسمان ويتحادثان كما لو أنّ شيئاً لم يحدث... شيئاً لم يحدث.

قالت الأخت أنها ستزيل الغُرَز، ولكنّ الرجسترار قاطعها: "ألا تريد أن تنظر إلى ساقك؟ لا تنسَ أنك لم ترها منذ أكثر من أسبوعين!".

حقـــاً؟ لقد أردت ذلك بكل تأكيد وشغف وتلهّف. ومع ذلك، وجـــدت نفسي خائفاً، منكمشاً، لا أعرف ماذا سأرى. وممزوجاً مع كــلا الإحساسين، كان افتقاراً غريباً إلى الشعور؛ نوعاً من اللامبالاة، حقيقية أو دفاعية، بحيث إنني بالكاد اهتممت بما سأراه.

بمـــساعدة الرجـــسترار، رفعت نفسي مستنداً إلى ذراعٍ واحدة، وألقيت نظرةً طويلة جداً على الساق.

نعـــم، كانت هناك! هناك بصورةٍ لا تقبل الجدل! لم تكن الجبيرة فارغـــةً ولا مـــصمتة، كما خشيت، ولا احتوت كتلةً من التراب، أو الـــروث، أو عظـــام الدجاج المتعفّنة. احتوت ساقاً ذات أبعاد طبيعية تقريباً، بالرغم من أنها كانت ضامرة بشكلٍ كبير بالمقارنة مع رفيقتها، وعلـــيها ندبـــة طويلة بطول ثلاثين سنتيمتراً تقريباً. كانت ساقاً، ومع ذلك ليست ساقاً: كان هناك شيء خاطئ كلياً. لقد اطمأننت للغاية، وفي الـــوقت نفسه انـــزعجت، وصُدِمت في الصميم. فبالرغم من أنها كانت "هناك"، إلا أنها لم تكن فعلياً هناك.

كانـــت "هناك" بنوعٍ من الإحساس الشكلي، الواقعي: بصرياً هناك، ولكنها ليست هناك بصورةٍ حية، أو جوهرية، أو "فعلية". لم تكـــن ساقاً حقيقية... لم تكن شيئاً حقيقياً على الإطلاق، بل مجرّد شـــكلٍ تمدّد هناك أمامي. كنت منذهلاً بالرقّة الجميلة، والشفّانية تقـــريباً، للساق. وكنت منذهلاً بوهميتها المطلقة، والمروِّعة تقريباً. كانـــت رائعـــة، وعديمـــة الحياة، مثل نموذج شمع جميل من متحف التشريح.

مـــددت يـــدي بحذرٍ لألمسها؛ كان اللمس غريباً ومريباً بقدر الرؤية تماماً. فهي لم تبدُ مثل الشمع فحسب، بل كان ملمسها مثل الـــشمع أيـــضاً؛ مقولبة على نحوٍ ممتاز، وغير عضوية، وشبحية. لم

أستطع أن أشعر بأصابعي وهي تلمس ساقي، ولهذا فقد كبست على الساق، وقرصتها، ونتفت شعرة منها. كان بإمكاني أن أغرز فيها سكيناً ولا أشعر بشيء. لم يكن هناك أي إحساس على الاطلاق، وكأنني كنت أضغط وأجبل عجينة لا حياة فيها. كان واضحاً أنّ لديّ ساقاً بدت مثاليةً من الناحية التشريحية، وعولِجت بمهارة، وشفيت من دون مضاعفات، ولكنها كانت غريبة بغرابة شكلاً وملمساً: نسخة مطابقة فاقدة للحسّ موصولة بجسدي. وفكّرت مرةً أخرى في ذلك الشاب في ليلة رأس السنة تلك، عندما همس مذعوراً، بوجه شاحب فزِع: "إنها ساق زائفة. ليست حقيقية. ليست لي".

قال الرجسترار: "حسناً. أنت تنظر بإمعان. ما رأيك بها؟ لقد قمنا بعملٍ جيد، إيه؟".

أجبت، وأنا أحاول مذهولاً أن أجمع أفكاري: "نعم، نعم. لقد قمتم بعملٍ جيد جداً، جميل، جميل حقاً. أنا أشكركم وأهنّئكم بالفعل. ولكن...".

سأل مبتسماً: "حسناً، ما هو *الاعتراض*؟".

"تبدو جيدة؛ إنها جيدة بالفعل، من الناحية الجراحية".

"ما الذي تعنيه بقولك 'من الناحية الجراحية'؟".

"حسناً، لا **تبدو** حقيقية عند اللمس. تبدو غريبة، غير حقيقية، ليست لي. يصعب عليّ إيجاد الكلمات الملائمة".

قال الرجسترار: "لا تقلق يا رجل. لقد أُنجِز العمل على نحوٍ رائع. ستكون بحالة ممتازة. ستزيل الأخت الغُرَز الآن".

تقدّمت الأخت وهي تحمل صينية أدواتها اللامعة، وقالت: "لا يُفترَض أن يؤلمك ذلك كثيراً دكتور ساكس. ستشعر على الأرجح

بإحساسٍ شبيه بالقَرص. إذا تألّمت بالفعل يمكننا أن نضع مخدِّراً موضعياً".

أجبت: "لا عليك. يمكنك أن تبدأي. سأخبرك إذا تألّمت".

لكن، لدهشتي، بدا أنها لم تشرع بما هو مطلوبٌ منها، بل أخذت تعبث بمقصّها وملقطها الجراحي. كانت تعبث بهما بطريقة هي أكثر غرابةً وغموضاً. راقبتها متحيّراً لفترة ثمّ أغمضت عينيّ. وعندما فتحتهما، كانت قد توقّفت عن عبثها اللامعقول، الذي تصوّرت جازماً أنه كان نوعاً من النشاط التحضيري أو "التسخين": افترضت أنها كانت جاهزة الآن لإزالة الغُرز.

سألتها: "هل ستبدأين الآن؟".

نظرت إليّ مندهشة وهتفت: "أبداً! لقد انتهيت لتوّي! لقد أزلت جميع الغُرَز. يجب أن أعترف أنك كنت جيداً للغاية. لقد استلقيت هادئاً مثل حمل. لا بد أنك صبورٌ جداً. هل تألّمت كثيراً؟".

أجبت: "لا. لم يؤلمني ذلك على الإطلاق. ولم أكن شجاعاً. لم أشعر بك إطلاقاً. لم أشعر بأي إحساسٍ من أي نوع عندما انتزعت الغُرَز". لكنني تغاضيت عن قول إنني عجزت كلياً عن إدراك أنها كانت تنزع الغُرز، وأنني عجزت بالفعل عن فهم ما كانت تقوم به بغضّ النظر عمّا كان، وعن النظر إليه على أساس أنّ له أي معنى أو علاقة بي، بحيث إنني أخطأت في فهم جميع حركاتها وحسبتها "عبثاً" لا معنى له. لم أخبرها بكل ذلك لأنني ظننت أنه سيبدو غريباً جداً. لكنني ذُهلت، وأُربكت بالمسألة كلها. فقد ذكّرتني مرة أخرى بمدى غرابة الساق، ومقدار "غربتها"، ومدى "بعدها" عني. من العجيب حقاً أنه كان بإمكاني أن أرى الأخت وهي تقوم بكل الحركات المميّزة للقصّ

وانتزاع الغُرز، ولكنني لم أكن قادراً إلا على تخيّل أنها كانت "تُسخِّن" استعداداً "للشيء الحقيقي"! بدت حركاتها من دون معنى وغير حقيقية. ولأنّ الساق كانت عديمة الإحساس، بكل ما يعنيه ذلك... عديمة الإحساس حتماً وغير مرتبطة بي، فكذلك كانت حركاتها التي كانت مرتبطة بالساق. وكما كانت الساق مجرّد شكل، فكذلك كانت حركاتها، وانتزاعها للغُرَز، مجرّد شكل. لقد اختُزِل كلاهما - الساق والحركات - إلى شكلٍ لا معنى له.

حيث وجدتُ أنّ مخاوفي الرهيبة وأوهامي كانت بلا أساس، وأنّ الساق كانت، على الأقلّ شكلياً، سليمةً وموجودة، وحيث حصلتُ أخيراً على طمأنة لامتناهية عندما رفع السيد إنوخ العقب عن المنصّة، وأقفلت الركبة بإحكام، وبالضبط، في مكانها، وتلاشى فزع فقدان الركبة، والانخلاع، وتفكّك المفاصل، فقد شعرت فجأةً بارتياحٍ لا حدود له: ارتياح عذب وشديد، تخلّل وجودي بأكمله، بحيث إنني غرقت في سعادة قصوى. مع هذه الطمأنة العذبة والعميقة، هذا التغيّر المفاجئ والعميق في المزاج، تحوّلت الساق كلياً وتغيّر شكلها. كانت لا تزال تبدو غريبة وغير حقيقية للغاية. ولا تزال تبدو فاقدةً للحياة. ولكن في حين أنها في السابق كانت تستثير في ذهني صورة لجثّة، فقد جعلتني الآن أفكّر في جنين لم يولَد بعد. بدا اللحم نوعاً ما شفّانياً وبريئاً، مثل لحمٍ لم يُعطَ بعد نفَس الحياة.

نظرياً، كان اللحم هناك، وقد شُفِي تشريحياً، ولكنه لم يُنشَّط بعد للفعل. قبعت الساق هناك صبورة، ومتألّقة... ليست حقيقية بعد، ولكنها مستعدة تقريباً لأن تولَد. تحوّل إحساس الفقد المفزع المتعذّر استرداده إلى إحساسٍ بـ "لافعالية مؤقّتة" غامضة. قبعتْ هناك، بتعطيلٍ مؤقّت غريب، أو نسيان... مشهد غامض بين الموت والولادة...

... بين عالَمَين، أحدهما ميّت
الآخر ضعيف لأن يولَد

(آرنولد)

إنّ اللحم الذي كان لا يزال فاقداً للحياة بقدر الرخام، يمكن أن تُبعَث فيه الحياة. وحتى جبيرة الجبس الجديدة اشتركت في هذا الشعور: كنت قد كرهت الجبيرة القديمة، شاعراً أنها عفنة، وقذرة، ولكنني أحببت على الفور الجبيرة الجديدة التي كان السيد إنوخ الآن يضعها باهتمام، طبقة فوق طبقة حول ساقي القرنفلية الجديدة. برأيي، كانت هذه الجبيرة أنيقة، وجميلة الشكل، وحتى ذكية. والأهمّ من ذلك أنني فكّرت فيها كنوعٍ من غلافٍ كاسي جيد للخادرة سيغلّف الساق ويتيح لها أن تنمو كلياً، إلى أن تصبح جاهزة لأن تبرز للوجود، لأن تولَد من جديد.

بينما كان يتمّ نقلي بالعربة من غرفة التجبير، وإلى الأعلى في المصعد، توقّفنا بجانب النوافذ العريضة، التي كانت مفتوحة الآن للهواء. كانت السماء مكفهرّة وملبّدة بالغيوم قبلاً، ولكنّ العاصفة انقشعت الآن، وبدت السماء هادئة وصافية على نحوٍ بهيج. شعرت أنّ العوامل الجوّية نفسها قد تأزّمت في الوقت نفسه بالضبط الذي مررت فيه أنا بأزمتي. كل شيء حُلّ الآن، السماء صافية وزرقاء. هبّ نسيم عليل من خلال النوافذ الكبيرة، وشعرت أنني منتشٍ مع الحركة الرشيقة للشمس والريح على بشرتي. كان هذا هو إحساسي الأول بالعالم الخارجي منذ أكثر من أسبوعين، أسبوعين اهترأت فيهما بيأس في زنزانتي. كان هناك موسيقى وراديو جديد عندما عدت إلى غرفتي، وقد كان هذا أيضاً، مثل الريح والشمس والضوء، مثل إنعاش سماوي لحواسي. شعرت أنني مغمورٌ في الموسيقى،

ومُختَـــرَقٌ بها، أشفى وأُنشِّط قلباً وقالباً: موسيقى، وروح، ورسالة ورسول الحياة!

متحــرّراً مــن جمــيع مخاوفي وقلقي، ومتأكّداً وواثقاً أنّ الساق ستعود، وأنــني سأتعافى وأمشي من جديد - بالرغم من أنّ أحداً لا يعلم متى وكيف إلا الله - استغرقت فجأةً في نوم عميق هنيء: نائماً في ثقــة، برعاية الله. كان نوماً عميقاً للغاية، وشافياً في حدّ ذاته. كانت راحــتي الحقيقــية الأولى مــنذ يوم الحادثة، ونومي الأول غير المُقاطَع بالكوابيس البشعة والأشباح. كان نوم البراءة، والصفح، وتجدّد الإيمان والأمل.

عــندما استيقظت، تملّكني دافعٌ غريب لثني ساقي اليسرى، وفي تلــك اللحظــة نفــسها فعلتُ ذلك على الفور! كانت هذه حركة مــستحيلة ســابقاً، حركة اشتملت على قبضٍ فعّال للعضلة الرباعية الرؤوس بأكملها؛ حركة كانت حتى الآن مستحيلة وغير واردة. ومع ذلــك، بمثل لمح البصر، فكّرت فيها، وقمت بها. لم يكن هناك تفكير، ولا تحــضير، ولا تــروٍّ أبداً. لم تكن هناك "محاولة". تملّكني دافعٌ، مثل الــبرق، ومــثل الــبرق فعلت. كانت الفكرة، والدافع، والفعل، شيئاً واحــداً. لم أستطع أن أقرّر أيها سبق الآخر، فثلاثتها حدثت معاً. لقد "تذكّــرت" فجأةً كيف أحرّك الساق، وفي لحظة التذكُّر فعلتُ ذلك فعلــياً. عرفت فجأةً ماذا أفعل، وفي تلك اللحظة فعلته. لم يكن لمعرفتي بمــا أفعــل أي صفة نظرية على الإطلاق، بل كانت عملية، وفورية، ومــثيرة بالكامل. وقد حضرتني من دون أي تأمّل سابق أو إنذار، ومن دون أي تفكــيرٍ مروّى فيه أو حيلةٍ من قِبَلي. حضرتني بشكلٍ مفاجئ وعفوي تماماً.

متحمّساً، قرعت الجرس مستدعياً الممرّضة.

هتفت قائلاً: "انظري! لقد ثنيتها، يمكنني أن أثنيها!".

لكـــن عـــندما حاولت أن أريها، لم يحدث شيء على الإطلاق. تلاشـــت المعرفة، والدافع كما برزا، على نحو مفاجئ وغامض. شاعراً بالخـــزي والارتـــباك، عدتُ إلى كتابـــي. ثمّ بعد نصف ساعة تقريباً، بيـــنما كـــنت في غمرة القراءة، وبشكلٍ تلقائي وغافل، تملّكني الدافع نفـــسه مـــرة أخـــرى. التمع الدافع، والفكرة، والتذكُّر، من جديد، وحرّكتُ ساقي (ربما كانت كلمة "حرّكت" دالّة على فعلٍ متعمّد جداً خلافاً للفعل العفوي غير المتعمّد كلياً الذي "حدث"). لكن بعد بضع ثـــوانٍ لاحقة أصبحت الحركة نفسها مستحيلة مرة أخرى. هكذا كان الأمـــر خـــلال بقية اليوم. كانت قوة التحرّك، فكرة التحرّك، الدافع للتحـــرّك، تأتـــيني فجأةً، ثمّ تذهب فجأة، تماماً كما تكون كلمة، أو وجه، أو اسم، أو نغمة، على طرف لسان أحدهم، أو في نطاق بصره أو سمعـــه، ثمّ تختفي فجأة. بدأت القوة ترجع، ولكنها لا زالت متغيّرة، ومتزعـــزعة، وغير ثابتة بإحكام في جهازي العصبـــي أو عقلي. بدأت أتذكّر، ولكنّ الذكرى كانت تجيء وتذهب. كنت أعرف فجأة، ومن ثمّ لا أعرف، مثل أحبس بالكلمات.

تبادر إلى ذهني بشكلٍ تلقائي مصطلح "الفكر المحرِّك *ideomotor*". كانـــت الومـــضات التي اختبرتها سابقاً مجرّد تشنّجات وارتعاشات حركية شظوية لعصب وعضلة قابلة للإثارة، ولم تكن لها أي علاقة بـــأي دافعٍ داخلي، أو فكرة، أو نيّة. لم تكن لها أي علاقة بـــي. على نحوٍ متباين، فإنّ هذه الومضات، اللاإرادية والعفوية والتلقائية، اشتملت عليّ بالفعل بشكلٍ أكيد وأساسي وجوهري: لم تكن مجرّد "عـــضلة تثب" بل "أنا أتذكّر"، وقد اشتملت عليّ، عقلاً وجسداً علـــى حدّ سواء. بالفعل، وحّدت هذه الومضات عقلي وجسدي،

ومثّلت، في لحظة، وحدهما المثالية؛ الوحدة التي فُقِدت منذ إصابتي الفاصلة.

عــادت إلى ذهني كلمات الجرّاح الأصلية، "لقد فُصِلت. سنعيد وصلك. هذا كل ما في الأمر". شعرت الآن أنّ ما عناه، بمعنىً موضعي وتــشريحي محــض، كــان له معنىً أوسع بكثير (بالرغم من أنه غير مقــصود): المعــنى الذي يقول فيه إدوارد مورغان فورستر "الاتصال فقــط". لأنّ مــا تمّ فصله لم يكن مجرّد عصب وعضلة، وإنما، كنتيجةً لــذلك، الــوحدة الطبيعية والصُلبية للجسد والعقل. كانت "الإرادة" منــــزوعة، تماماً كما هي العضلة والعصب. كانت الروح ممزّقة، تماماً مــثل الجــسد. كــان كلاهما منقسماً، ومنفصلاً عن الآخر. وبما أنّ "الجــسد" و"الروح" لديهما إحساس فقط طالما أنهما شيء واحد، فقد أصبح كلاهما فاقداً للحسّ عندما لم يعودا متّصلَين. في هذه الومضات الفكــرية الحركية، إذاً، حدثت إعادة اتصال، أو إعادة توحيد، غايةً في الأهمــية، حــتى لــو كانت لم تستمرّ لأكثر من لحظة: إعادة التوحيد التشنّجية للجسد والروح.

مع ذلك، كان هناك تقييد أقصى، أو خصوصية، لهذه الإرادة. أولاً، لم تكن مفيدة لشيء باستثناء حركة وحيدة، ومقولبة نوعاً ما، عند الورك؛ وأي نــوعٍ من الإرادة سيكون لذخيرة ليس فيها إلا حركة واحدة؟ ثانياً، كانت دائماً مترافقة مع "دافع" أو "حافز"، من نوعٍ تطفُّلي بشكلٍ غريب وغــير ذي صــلة بالموضوع. قد أكون مستغرقاً في القراءة – في منتصف جملــة، وعقلــي شارد، لا يفكّر في أي شيء له علاقة بالساق – عندما يــتملّكني فجأة هذا الحافز الآمر والخاص. لقد رحّبت به، واستمتعت به، ولعبت معه، وأخيراً أتقنته. ولكنها كانت إرادةً وفعلاً من نوعٍ فريد للغاية، حيث المحصّلة هي هجين غريب، نصفه اهتزاز، ونصفه فِعل.

اضطّررت مؤخّراً - كما اقترح الجرّاح أساساً للعضلة الرباعية الرؤوس - أن أخضع لبعض التنبيه الكهربائي لبعض عضلات العنق المـــصابة. في كل مرة كان التيار ينبّه العضلة شبه المنحرفة في العنق، كـــان يتملّكني دافعٌ مفاجئ لهزّ كتفَيّ بشكلٍ معبّر، كما في إيماءة "وإن يكن!". كان يخطر في بالي أن أهزّ كتفَيّ كما يخطر في بال أي أحـــد، باســـتثناء أنّ ذلك كان يحدث فقط عند فردلة العضلة شبه المنحـــرفة. وجدت هذه التجربة مُسلّية، ومذهلة، ومخيفة نوعاً ما، لأنها أظهرت بوضوح أنّ المرء يمكن أن يكون لديه إحساس أو وهم بأنه حرّ الإرادة، حتى عندما يكون الدافع فسيولوجياً بحتاً في طبيعته. في الواقع، إنه في أوقات كهذه، **لا يكون المرء أكثر من مجرّد دمية،** حيث هو مُكرَهٌ لأن يُظهر ردّ فعل، ولكنه متوهّم أنّ ردّ الفعل كان إراديـــاً. أنـــا أعـــتقد الآن أنّ هـــذا هـــو ما كان يحدث في حالة الانقباضـــات الغريبة نصف التشنّجية وشبه الإرادية. أنا أعتقد أنه كانـــت هـــناك شرارات، أو اتّقادات، عشوائية للجهاز العصبـــي العـــضلي المتماثل للشفاء الآن، والذي كان خاملاً، أو ربما في حالة صـــدمة، طوال الخمسة عشر يوماً السابقة. كانت هذه الاتّقادات خـــلال عطلة نهاية الأسبوع صغيرة جداً، وموضعية جداً، وسبّبت تحـــزّمات أو ومضات صغيرة فقط في حزم عضلية فردية. وفي يوم الـــثلاثاء بدأت تحدث حركات مفاجئة ضخمة تشنّجية في العضلة بأكملـــها (بما في ذلك اتصالها الحوضي) بطريقة كانت تهزّ الساق. شـــكّلت هـــذه الانقباضات الضخمة - مثل الانقباضات الضخمة للرَّمَع العضلي الليلي، أو العرّات، أو الانقباضات الضخمة للعضلات شبه المنحرفة المفردلة - نوعاً من قصر الدائرة الكهربائية، أو المنبِّه، للجهاز الإرادي بأكمله. من الواضح أنه لا يمكن تنشيط جزء كبير

من العضلة الإرادية، سواء ميكانيكياً أو لاإرادياً، من دون تنبيه (أو محاكاة) شعور الإرادة.

ربما يحتاج المرء إلى أن يميّز أنواعاً مختلفة من الإرادة - السلبية القسرية والفعّالة المتروِّية - ولكنه قد يتبنّى السلبية القسرية. بالتالي، فإنّ ما بدأ، خلال ذلك اليوم، كاهتزازات قسرية للإرادة، تحوّل إلى أفعال إرادة فعّالة مُسيطَر عليها. قام التعصيب القابل للإثارة والعائد للحياة بتزويد نفسه بالصدمات الكهربائية، التي قادت بدورها إلى حركات تشنّجية قسرية، أو شبيهة بالعرّات، للساق، ثمّ أدّت هذه الحركات بدورها إلى أفعال إرادية حقيقية.

كان كل هذا، من ناحية معينة، عكساً للعُتمة، التي بدا لي أثناءها أنني كنت أريد، ولا يحدث شيء: ولهذا كنت مُجبراً لأن أشكّ، وأن أسأل نفسي باستمرار: "هل أردت؟ ما الذي حدث لإرادتي؟" والآن، ظهرت لديّ فجأة، ومن حيث لا أعلم، قوى مُكرِهة وتشنّجات مفاجئة للإرادة.

مع ذلك، وعلى نحوٍ تهكّمي، كان هذا الانقلاب، أو الانحراف، أو التدمير، للإرادة هو بالضبط الوسيلة التي يمكن بها إحداث الشفاء. أدّت حادثة فسيولوجية، أو إصابة، إلى حرماني من الإرادة، في ما يتعلّق فقط وبشكلٍ خاص بالطرف المصاب. الآن، كانت حادثة فسيولوجية أخرى - شرارات التعصيب العائد - تعمل لإعادة إضرام الإرادة في هذا الطرف. كنت في البداية منعدم الإرادة، عاجزاً عن السيطرة. ثم أصبحت قسري الإرادة، أو مسيطَراً عليّ، مثل دمية. الآن، كان بإمكاني، أخيراً، أن أتولّى زمام السيطرة، وأقول "أنا أريد" (أو "لا أريد") بصدقٍ واقتناع كامل، وإن كان في مسألة تحريك ساقي.

حُـــدِّد يوم الأربعاء الحادي عشر من الشهر على أنه اليوم الذي ســـأنهض فيه، وأقف، وأمشي. للمرة الأولى منذ الحادثة كنت سأتّخذ وضـــع القـــيام؛ والقيام معنوي ووجودي بقدر ما هو فيزيائي. طوال أســـبوعين، طـــوال ثمانية عشر يوماً، كنت مستلقياً وهاجعاً، فيزيائياً ومعنوياً: فيزيائياً، من خلال الضعف والعجز عن الوقوف، ومعنوياً، من خلال السلبية ووضعية **المريض**؛ رجل مُضعَف ومعتمد على طبيبه.

تستمر سلبية المريض ووضعته باستمرار أوامر الطبيب، ولا يمكن تخيُّل نهايتها حتى لحظة النهوض نفسها. هذه اللحظة لا يمكن توقُّعها، أو حـــتى التفكير بها، أو ترجّيها. لا يمكن للمرء أن يرى، ولا أن يتخيّل، أبعد من حدود سريره. تصبح عقلية المرء بالكامل هي تلك للسرير، أو القبر.

حتى لحظة النهوض نفسها، يبدو الأمر كما لو أنّ المرء لن ينهض أبداً: يشعر المرء أنه محكوم عليه بالاستلقاء الأبدي:

> **لا يمكننـــي أن أنهض من سريري إلى أن يمكّنني الطبيب من ذلك، ولا يمكنني أن أقرّر أنني قادرٌ على النهوض حتى يقرّر هو ذلك. أنا لا أفعل شيئاً، ولا أعرف شيئاً عن نفسي...**
>
> **(جون دون)**

إذا كـــان الأمـــر كذلك بالنسبة إلى دون، إذا كان الأمر كذلك بالنـــسبة إلى كـــل مريض محكوم عليه أن يستلقي في السرير ("وضعية بائـــسة وغير إنسانية **بالرغم من أنها شائعة للجميع...**")، فكيف كان بالنـــسبة إلي، بالنظـــر إلى الطبـــيعة الفريدة والخاصة لاضطّرابـــي... الإحساس بالبتر، وانعدام الساق، وعدم وجود شيء لأقف عليه...

إنّ وضعية النهوض، والوقوف، والمشي لكل مريض طريح الفراش هـــي بمـــثابة تحدٍّ رئيسي، لأنه نسي، أو "مُنِع" من الوضعية الإنسانية

الراشـــدة وحركات الاستقامة... تلك الوضعية الفيزيائية والمعنوية التي تعـــني الوقوف، والصمود، والمشي، والانصراف؛ الانصراف عن أطباء المـــرء، وعـــن أولئك الذين اعتمد عليهم وتعلّق بهم... المشي بحرية، وبجرأة، وعلى نحوٍ مغامر، أينما شاء.

لهـــذا الوضـــع العـــام أُضيف الوضع الخاص المتمثّل في شكّي بسلامة ووجود ساقي، وفي وجود أساسٍ لهذا الشكّ الغريب يكمن في الإصابة الفعلية للساق. هناك صعوبات خاصة واستثنائية يواجهها أولـــئك الذين هم ليسوا هاجعين فقط وإنما مصابين بسيقانهم. لقد عُبِّـــر عن هذه الصعوبات بشكلٍ دقيق ولاذع من قِبَل أبقراط، قبل ألفَـــي وخمـــسمائة عام. متحدّثاً عن المرضى الذي عانوا من ورك مكـــسور، وكـــان لزاماً عليهم أن يبقوا بلا حراك في السرير لفترة خمسين يوماً، علّق أبقراط بأنّ هذا الإئتلاف "يُضعِف التخيُّل، بحيث إنّ مرضى كهؤلاء لا يستطيعون أن يتخيّلوا كيف يحرّكون الساق، ولا كـــيف أن يقفوا. وإذا لم يُجبروا على فعلِ ذلك، فسيبقون في الفراش لبقية حياتهم". كان لا بدّ بالفعل من إجباري على النهوض، والوقـــوف، والمـــشي. لكن كيف يمكنني أن أفعل ذلك، وما الذي ســـيحدث فعـــلاً، في حالـــةٍ مثل حالتي، حيث بالإضافة إلى كل المخـــاوف المعتادة، والموانع، والتردّد، كان هناك التمزّق الجوهري و"الانحـــلال" للساق، وهو تمزّق وانحلال فسيولوجي ووجودي في الوقت نفسه؟

هـــل واجهت أبداً وضعاً تناقضياً أكثر من هذا؟ كيف يمكنني أن أقـــف، من دون رجلٍ أقف عليها؟ كيف يمكنني أن أمشي، وأنا مفتقرٌ إلى ساق أمشي بها؟ كيف يمكنني أن أفعل، وأداة الفعل قد اختُزِلت إلى شيء أبيض خامل عديم الحركة لا حياة فيه؟

مـــا ظللت أفكّر فيه، تحديداً، كان فصلاً مدهشاً في كتاب أ.ر. لـــوريا، **الـــرجل ذو العالم المحطّم**؛ عنوان الفصل هو "نقطة التحوّل". بالنـــسبة إلى المـــريض، كانـــت نقطة التحوّل، جوهرياً، هي استعادة "الموسيقى":

> **فـــي الـــبداية، كانت الكتابة صعبة بقدر القراءة، وربما أكثر. نسي المـــريض كيف يمسك بالقلم أو يشكّل رسالة. كان عاجزاً تماماً... ولكـــنّ اكتـــشافاً توصّل إليه في أحد الأيام أثبت أنه نقطة التحوُل: يمكن أن تكون الكتابة بسيطة جداً. كان قد بدأ أولاً كما يفعل الأولاد الصغار حين يتعلّمون أن يكتبوا لأوّل مرة؛ قد حاول أن يتصوّر كل حـــرف مـــن أجل أن يشكّله. ولكنه كان يكتب لعشرين سنة تقريباً، وبالتالـــي لـــم يكـــن بحاجـــة إلـــى أن يستخدم الطرق نفسها التي يـــستخدمها الأولاد، كـــأن يفكّـــر في كل حرف ويقرّر أي جرّة قلم سيستخدم. بالنسبة إلى الراشدين، الكتابة هي مهارة آلية... سلسلة من الحركات المتأصّلة التي أطلق عليها أنا اسم "الألحان الحركية". ومن ثمّ، ما المانع من أن يحاول استخدام أي من المهارات المتبقّية لديـــه؟... بهـــذه الطريقة بدأ يكتب. لم يعد مضطّراً لأن يتعذب عند كـــتابة كـــل حـــرف، محاولاً أن يتذكّر كيف شُكِّل. *يمكنه أن يكتب عفوياً، من دون أن يفكّر.***

عفـــوياً! عفوياً، نعم، كانت تلك هي الإجابة. لا بد أن يحدث شيءٌ عفوي، وإلا لن يحدث شيءٌ على الإطلاق.

V. الحلّ بالمشي

Solvitur Ambulando

كل مرضٍ هو مشكلة موسيقية، وكل علاج هو حلّ موسيقي.

نوفاليس

الحلّ بالمشي

وقفت – أو، بالأحرى، تمّت مساعدتي على الوقوف منتصباً على قدمَــيّ، مــن قِبَل مُعالجتَين فيزيائيتَين قويّتين – مساعداً قدر الإمكان بالعكّازتين القويّتين اللتين أُعطيتا لي. وجدت هذا عجيباً ومخيفاً. فعندما نظــرت مباشرةً للأمام، لم تكن لديّ أي فكرة أين هي ساقي، ولا أيّ شــعورٍ واضح بالفعل بوجودها. كان عليّ أن أنظر إلى الأسفل، لأنّ الــرؤية كانت حاسمة. حين كنت أنظر بالفعل إلى الأسفل، كنت أجد صــعوبة لحظــية في تمييز "الشيء" المجاور لقدمي اليمنى على أنه قدمي اليــسرى. لم تبدُ أنها "تخصّني" بأي طريقة. لم أفكّر أبداً في وضع ثقلي علــيها، أو في اســتخدامها إطلاقــاً. وهكذا، وقفت، أو أُعنت على الوقــوف، مُسنَداً ليس بساقَيّ، بل بعكّازتين ومُعالِجتَين فيزيائيتَين، في ســكونٍ غريب ومخيف نوعاً ما؛ ذلك السكون الرهيب الذي يحدث عندما يكون هناك شيء خطير على وشك الحدوث.

وقطعتْ هذا السكون، هذا التحجُّر، أصواتٌ حادة.

"هيا دكتور ساكس! لا يمكنك أن تقف هكذا، مثل لقلاقٍ على ســاق واحدة. عليك أن تستخدم الساق الأخرى، حمِّلها بعضَ الثقل أيضاً!".

كنت على وشك أن أسأل: "أي 'ساق أخرى'؟"، مفكّراً، كيف **يمكنني** أن أمشي، وكيف **يمكنني** أن أقف، بل كيف **يمكنني** أن أحرّك، كتلةً شبحية من الهلام... سراباً تعلّق بشكلٍ سائب من وركي؟ وحتى إذا **اســتطاعت** هــذه اللاحقة غير المعقولة، مدعومةً بغلافها الخارجي

الطباشـــيري الـــصلب، أن تسندني، فكيف إذاً "سأمشي" وقد نسيت كيف أمشي؟

ألحّت المعالجة الفيزيائية: "هيا يا دكتور ساكس! عليك أن تبدأ".

أن أبدأ! كيف يمكنني ذلك؟ ومع ذلك يجب أن أفعل. كانت هذه هي اللحظة المتميّزة التي يجب أن تبدأ البداية منها.

لم أســـتطع أن أحمل نفسي على وضع ثقلي مباشرة على الساق اليـــسرى، لأنّ هذا كان شيئاً لا مجال بتاتاً للتفكير فيه، كما كان شيئاً من المفزع جداً القيام به. ما كان بإمكاني أن أفعله، وقمت به فعلاً، هو أن أرفع الساق اليمنى، بحيث إنّ الساق اليسرى (المزعومة) ستضطّر إلى حمل الثقل، أو الانهيار.

فجأةً، من دون إنذارٍ أو توقُّعٍ من أي نوعٍ، وجدتُ نفسي أسقط في دوارٍ ظهـــرت فـــيه الأشياء بشكلٍ غريب. بدت الأرض على بعد كيلومترات، ثمّ على بعد بضعة سنتيمترات، ومالت الغرفة فجأة ودارت حـــول محـــورها. وتملّكتني صدمة حادة من الارتباك والذعر. شعرت بنفسي أقع، وهتفت مخاطباً المُعالجتَين:

"أمسكاني، يجب أن تمسكَاني! أنا عاجزٌ كلياً".

قالتا: "هيا ثبِّت نفسك. أبقِ عينيك للأعلى".

كـــنت مقَلقـــلاً إلى حدّ كبير، وكان لا بدّ لي من أن أنظر إلى الأسفل. وعلى الفور أدركت مصدر الفوضى. كان المصدر ساقي، أو بالأحـــرى ذلك الشيء، تلك الإسطوانة الطباشيرية الخاملة التي قامت مقـــام ساقي؛ ذلك المجسّم التجريدي الأبيض الطباشيري لساق. كانت الإســـطوانة تارةً بطول ثلاثمئة متر، وتارة بطول ميليمترين. كانت تارةً سميـــنة، وتارةً رفيعة. تارةً مائلة لهذه الجهة، وتارةً لتلك الجهة. كانت تتغيّـــر باســـتمرار في الحجـــم والشكل، وفي الموقع والاتجاه، وكانت

الـــتغيرات تحدث أربع أو خمس مرات في الثانية. كانت درجة التحوّل والتغيُّر شديدة؛ ربما كان هناك ألف تحوّل بين "الأُطر" المتعاقبة...

في حين أنّ التغييرات كانت هائلة جداً في مداها وغرابتها، إلا أنه كـــان من المستحيل بالنسبة إلي أن أقوم بأي شيء من دون أن أكون مُسنَداً. كان مستحيلاً أن أتابع مع كل هذا التزعزع في الصورة، حيث كل معلَم يتغيّر على نحوٍ غير متوقّع في جميع أبعاده. خلال دقيقة واثنتين (أي بعـــد عـــدة مئات من التحوّلات) أصبحت التغييرات أقل تطرُّفاً وغـــرابة، بالرغم من أنها استمرّت بالمعدّل نفسه كالسابق: فبالرغم من أنّ الأشكال والتحوّلات للإسطوانة الطباشيرية كانت لا تزال مفرطة، إلا أنها كانت تُلطَّف وتُخفَّف، مقتربةً من حدود مقبولة.

في هـــذا الظرف، إذاً، قرّرت أن أتحرّك. وعلاوةً على ذلك، كان يتمّ حثّي، وحتى رفعي ودفعي جسدياً، بواسطة المُعالجتَين الفيزيائيتَين، اللتين أدركتا فزعي، وأظهرتا بعض التعاطف، ولكنهما مع ذلك (كما افترضـــت بدايةً، وتحقّقت لاحقاً) لم يكن لديهما أدنى فكرة عن نوع التجـــربة الـــتي كنت أختبرها، أو أتصارع معها، في ذلك الوقت. من الممكن جداً تصوُّر (هذا ما فكّرت فيه الآن) أنّ المرء قد يتعلّم أن يشغِّل ســـاقاً كتلك، بالرغم من أنّ ذلك قد يكون مثل تشغيل أداة آلية غريبة الـــشكل ومتقلّبة على نحوٍ استثنائي، حيث تتغيّر باستمرار بطريقة غير متوقّعة وبعيدة الاحتمال في حدّ ذاتها. هل يمكن للمرء بالفعل أن يخطو خطوة ناجحة واحدة في عالمٍ، عالمٍ إدراكي حسّي، يتغيّر باستمرار في شكله وحجمه؟

مـــا إن تفجّر اضطّراب الإحساسات والظهور الغريب للأشياء، حتى تملّكني إحساس بانفجار عاصف ومشوِّش بشكلٍ مطلق. كان ثمة شيء عشوائي كلياً وفوضوي في حالة عمل. ولكن **ما الذي** يمكن أن

يسبّب انفجاراً كهذا في عقلي؟ هل يمكن أن يكون مجرّد انفجار حسّي من الساق، عندما أُجبِرتْ على احتمال الثقل، والوقوف، والقيام بوظيفتها للمرة الأولى منذ الحادثة؟ من المؤكّد أنّ الإدراكات الحسّية كانت أعقد مما ينبغي. كانت لها خاصية المُنشآت، وليس "الإحساسات الصرفة"، أو "البيانات الحسّية"، إلخ. كانت لها خاصية الفرضيات، والحيّز نفسه، وذلك الحدس الأساسي أو **البديهي**، الذي لا يمكن لأي إدراك أو تفسير للعالم أن يكون ممكناً من دونه. لم يكن التشويش في الإدراك نفسه، بل في الحيّز، أو القياس، الذي يسبق الإدراك.

لم يكن لهذا الإدراك، أو الإدراك المسبق أو الحدس، أي علاقة بي من أي نوعٍ كان؛ كان يمضي بطريقته الخاصة الاستثنائية التي لا سبيل إلى تغييرها، والتي بدأت، وبقيت، عشوائية أساساً، بينما كان يتمّ تلطيفها بنوعٍ ما من الملاءمة أو الاختبار، لعلّه استهدافٌ أو تخمين، أو ربما عملية تجربة خطأ، نوعٌ رائع وآلي إلى حدٍّ ما من التقدير، لا علاقة له بتاتاً بي. صحيحٌ أنني كنت حاضراً، ولكن كملاحِظ فقط؛ مجرّد متفرِّج في حدث بدائي، أو في "الانفجار العظيم"، الذي كان بداية الفضاء الداخلي، أو العالم الصغير، فيّ. لم أكن أخضع لهذه التغيّرات فاعلياً، بل سلبياً، وبالتالي كان بإمكاني أن أشهد كيف يكون الوضع عندما أكون حاضراً عند التأسيس الأوّلي لأبعاد عالمٍ ومداه. كانت معجزة حقيقية تحدث أمامي، وفي داخلي. فمن العدم، ومن التشوّش الكامل، كان القياس يُصنَع. كانت القياسات المترية المتذبذبة الفجائية التغيّر تتقارب نحو قياس متوسّط بدائي. شعرت بالفزع، ولكن أيضاً بالرهبة وانتعاش الروح. بدا أنّ رياضيات كونية كانت تعمل في داخلي، مؤسّسةً نظاماً صغيراً مجرّداً.

وقفت ساكناً، ومكبوحاً، ومأسوراً، لأنّ الدوار جعل الحركة مستحيلة، وأيضاً لأنني، ربما، كنت مكبوحاً بهذه الأفكار. كانت

روحي متحجّرة في نشوة من التساؤل. فكّرت: "هذا أروع شيء عرفته أبداً. يجب ألاّ أنسى أبداً هذه اللحظة الرائعة. ومن غير المعقول أيضاً أن أحـــتفظ بهـــذا لنفـــسي". في تلك اللحظة عرفت أنني يجب أن أصف تجاربـــي.

لم أعرف أبداً مثل هذه السرعة في التفكير، ولا مثل هذه السرعة في الإدراك: الـــتفكير بالإحـــساس وقد أخذ يضطّرم في الساق، وفي الأجهزة المنسِّقة الأعلى غير المستخدمة؛ وبهذه الإحساسات، التي كانت في البداية متطرّفة جداً وشواشية، وقد أخذت تُعايَر وتُصحَّح بطريقة ما مـــن التجـــربة والخطـــأ؛ وبعقلـــي كسيلٍ من الإدراكات المختلفة، والحـــسابات والفرضيات الإدراكية، التي كانت تتبع إحداها الأخرى بسرعة لا تُصدَّق.

لا بـــدّ أنـــني قـــد قدّمت مشهداً غريباً للمُعالجتَين الفيزيائيتَين الجـــيدتين، اللتين رأتا على الأرجح رجلاً متزعزعاً، متمايلاً، مرتبكاً، ومذعـــوراً، وقـــد أخذ يستعيد توازنه تدريجياً: مرتبكاً وفزِعاً أولاً، ثمّ مفتوناً ومصمِّماً، وأخيراً مبتهجاً ومُطمئنّاً.

قالـــت إحداهما: "لقد مررت ببعض التغييرات اللحظية يا دكتور ساكس. ما رأيك أن تخطو الخطوة الأولى الآن؟".

الخطـــوة الأولى! في جهـــودي الـــرامية إلى الوقوف، واستعادة الـــسيطرة، لم أفكِّر إلا في الصمود، أو النجاة، أو الوقوف، ولكن ليس في التحرُّك. والآن، فكّرت في أنني قد أحاول أن أتحرّك. وقد كان يتمّ حثّي، وحتى دفعي ورفعي بلطف، من قِبَل المُعالجتَين الفيزيائيتَين، اللتين عرفتا شيئاً واحداً على وجه التأكيد: أنّ المرء يجب أن "يبدأ"، يجب أن يـــشرع، يجب أن يقوم بالخطوة الأولى. عرفتا – معرفة لا تقدَّر بثمن، يمكن للعقل أن ينساها – أنه لا يوجد بديل أبداً **للفعل**، وأنه "في البدء

كان الفعل"، وأنه لا يوجد طريق للفعل، ولا طريقة للفعل، غير الفعل نفسه.

خطوتي الأولى! القول أسهل من الفعل.

"حسناً دكتور ساكس. ماذا تنتظر؟".

أجـــبت: "لا أستطيع أن أتحرّك. لا أعرف كيف. ليس لديّ أدنى فكرة عن كيفية القيام بذلك".

قالـــت: "لماذا؟ كنت قادراً بالأمس على القيام بحركة انثناء عند الـــورك. كنت متحمِّساً جداً بشأنها؛ والآن لا يمكنك أن تخطو خطوة واحدة!".

أجبـــتها: "إنّ ثـــني الساق في السرير هو شيء، والقيام بالخطوة الأولى هو شيء آخر تماماً".

نظـــرت إليّ نظـــرة مطـــوّلة، ثمّ، بعد أن رأت عدم نفع الكلام، حـــرّكت صامتةً ساقي اليسرى بساقها، دافعةً إياها إلى موضعٍ جديد، بحيث إنّ الساق قامت، أو أجبِرت على القيام، بما يشبه الخطوة. حالما تمّ فعـــل ذلـــك، رأيت الطريقة لفعله. كان لا بدّ لي من أن أرى، وقد أرتـــني المعالجـــة كـــيف تكون حركة كتلك، تماماً كما أراني الإنثناء الـــلاإرادي بدايةً في اليوم السابق كيف يكون إنثناء الورك، بحيث إنني، بعـــد أن أُريـــت، أستطعت أن أجعل إرادتي تصمد، وقمت به بنفسي بـــصورة فعّالـــة. ما إن تمّ القيام بالخطوة الأولى، بالرغم من أنها كانت "خطوة" اصطناعية، وليست عفوية، حتى رأيت كيف أقوم بها؛ كيف يمكـــن أن أثـــني الـــورك بطريقة تتحرّك معها الساق إلى الأمام مسافة معقولة.

من أجل أن أقدِّر ما هي "المسافة المعقولة"، في "الاتجاه المعقول"، وجـــدت نفسي معتمداً كلياً على معالِم خارجية، أو بصرية؛ علامات

علـــى الأرض، أو علامـــات مرتبطة بالأثاث والجدران. كان عليّ أن أحـــسب كل خطوة بشكلٍ كامل، ومُقدَّماً، ومن ثمّ أن أقدِّم الساق، بحذر، وبشكلٍ تجريبـــي، إلى أن تصل إلى النقطة التي قدّرتُ وحدّدت أنها كانت آمنة.

لماذا "مشيت" بهذا الأسلوب المضحك؟ لأنه لم يكن أمامي خيارٌ آخـــر. كـــنت مضطّراً لأن أنظر إلى الأسفل، لأنني إن لم أفعل ذلك وتـــركت ساقي "تتحرّك بنفسها"، فستكون عرضةً لأن تتحرّك عشرة ســـنتيمترات أو متراً ونصف المتر، وأن تتحرّك أيضاً في الاتجاه الخطأ؛ على سبيل المثال، جانبياً، أو على نحوٍ شائع أكثر، بزوايا مائلة عشوائياً. وبالفعـــل، قبل أن أدرك أنني يجب أن "أبرمج" حركاتها مقدَّماً وأراقبها باستمرار، كانت ساقي "تضيع" في أحيانٍ كثيرة، وتوشك أن توقعني، حيث كانت بطريقة أو بأخرى تعلق في الخلف، أو تتشابك مع ساقي اليمنى الطبيعية.

كـــان الوهم لا يزال في حدّه الأقصى. لم تكن "ساقي" تلك التي كنت أمشي بها، إنما لاحقة أو زائدة عجيبة، إسطوانة طباشيرية بشكل الساق، إسطوانة كانت لا تزال تتغيّر، وتتذبذب، في الشكل والحجم، كمـــا لـــو كـــنت أشغِّل أداةً آلية عجيبة الشكل، متزعزعة ويعوزها التناسب... ساقاً اصطناعية مضحكة حتماً. لا يمكنني أن أعبّر، إلا بهذه الطريقة، كم كان هذا المشي الزائف غريباً، وكم كان مفتقراً كلياً إلى أي شعور، وكم كان، على نحوٍ معاكس، مُثقلاً بدقة وحذرٍ آليّ وكادّ. لقـــد وجدتـــه مسألةً تتضمّن حساباً شاقاً ومنهكاً ومعقّداً للغاية. كان حـــركةً من نوعٍ ما، ولكنها غير حيوانية، وغير إنسانية. قلت لنفسي: "هـــل هـــذا مشي؟"، ثم بوخزة رعب: "هل هذا ما سيتحتّم عليّ أن أتحمّلـــه لبقية حياتي؟ هل لن أستعيد أبداً **شعور** المشي الحقيقي؟ هل لن

أعرف أبداً مشياً يكون طبيعياً، وعفوياً، وحرّاً؟ هل سأكون مُجبراً من الآن فـــصاعداً على التفكير بكل حركة؟ هل يجب أن يكون كل شيء معقّداً؛ ألا يمكن أن يكون بسيطاً؟".

فجأة – في الصمت، الارتعاش الصامت للصور المجمّدة الساكنة – حضرت الموسيقى، الموسيقى البهية، مندلسون، **النغم الصارخ!** الحياة، حـــركة منتـــشية! وبالفجائية نفسها، من دون أن أفكّر، ومن دون أن أنوي أي شيء، وجدت نفسي أمشي بسهولة **مع** الموسيقى. وبالفجائية نفـــسها، في اللحظـــة الـــتي بدأت فيها هذه الموسيقى الداخلية، هذه الموســـيقى المندلـــسونية الـــتي استُدعِيت وأثيرت من قِبَل روحي، وفي اللحظـــة نفـــسها التي عادت فيها موسيقاي "الحركية"، ولحني المفعم بالحـــياة، ومشيي... في هذه اللحظة نفسها **عادت** الساق. فجأةً، من دون إنذار، ومن دون انتقال من أي نوعٍ، بدت الساق حيّة، وحقيقية، وشيئاً يخصّني، حيث توافقت لحظة التحقّق مع عفوية التنشيط، والمشي، والموســـيقى. كنت أستدير عائداً من الرواق إلى غرفتي، حين حدثت هـــذه المعجزة على نحوٍ غير متوقّع؛ الموسيقى، والمشي، والتحقّق، كلها شيء واحد. والآن، بالفجائية نفسها، كنت واثقاً تماماً؛ **وثقت** بساقي، **عرفت** كيف أمشي...

قلت للمُعالِجتَين الفيزيائيتَين: "لقد حدث شيء رائع للتوّ. أستطيع أن أمشي الآن. بإمكانكما أن تدعاني؛ ولكن من الأفضل أن تقفا على مقربة!".

مشيت بالفعل – بالرغم من الضعف، والجبيرة، والعكّازتَين، وكل شـــيء – بـــسهولة، وتلقائـــية، وعفـــوية، وتناغم، ومع عودةٍ للحني الشخـــصي، الـــذي كان بطريقة أو بأخرى مُثاراً باللحن المندلسوني ومتناغماً معه.

مـــشيت بأسلوبٍ كان خاصاً بـــي على نحوٍ لا يُضاهى. وهاتان اللتان رأيتا مشيتي، عكستا مشاعري الخاصة. قالتا: "لقد مشيت بشكلٍ ميكانيكـــي قبلاً، مثل إنسانٍ آلي. والآن أنت تمشي مثل شخص؛ مثل نفسك في الواقع".

بـــدا الأمر كما لو أنني تذكّرت فجأةً كيف أمشي، أو بالأحرى **لقـــد تذكّـــرت بالفعل كيف أمشي**. تذكّرت فجأةً اللحن والإيقاع الطبيعـــي واللاشـــعوري للمشي. لقد حضرني فجأةً، مثل تذكُّر نغمة كانـــت سابقاً مألوفة ولكنها منسية منذ زمنٍ طويل، وحضرني مترافقاً مـــع الإيقاع والنغم المندلسوني. كانت هناك وثبة مفاجئة ومطلقة عند هـــذه اللحظـــة؛ ليست عمليةً، وليست انتقالاً، وإنما عبور؛ من المشي الأخرق الاصطناعي الميكانيكي، الذي يجب أن تُحسب فيه كل خطوة وتُنفّذ بحذر، إلى حركة موسيقية لاشعورية، طبيعية ورشيقة.

مرة أخرى فكّرت فوراً في زازتسكي، في كتاب "**الرجل ذو العالم المحطّـــم**"، و"نقطـــة تحوّله"، كما سُرِدت من قِبَل لوريا، حيث اكتشف فجـــأةً أنّ الكتابة، التي كانت سابقاً صعبة للغاية وتتطلّب تفكيراً مُضنياً بكل حرف وجرّة قلم، يمكن أن تصبح بسيطة تماماً إذا ترك المجال لنفسه، وســـلّم نفـــسه لاشعورياً ومن دون تحفّظ، إلى تدفّقها الطبيعي، ولحنها، وعفويتها. ثمّ فكّرتُ في تجارب خاصة بـــي، بالرغم من أنها كانت أقل إثارةً؛ أوقات كنت أبدأ فيها بالركض أو السباحة، وأنا أعدّ وأحسب في الـــبداية كـــل خطوة أو حركة متعمِّداً، ومن ثمّ، على نحوٍ مفاجئ تماماً، أكتـــشف أنني قد "انسجمت معها"، وأنني، بشكلٍ غامض، ومن دون أدنى محاولـــة، "تعلمـــت طـــريقتها"، "ودخلـــت في إيقـــاع" الحركة "وإحـــساسها"، وبـــتّ أقوم بها بشكلٍ تامّ وسهل، من دون أي عدّ أو حـــساب مـــتعمَّد من أي نوع، بل فقط بتسليم نفسي لسرعة النشاط

ودفعه وإيقاعه. كانت التجربة شائعة جداً بحيث إنني بالكاد أعرتها اهتماماً، ولكنني الآن، أدركت فجأة، أنها كانت جوهرية.

لو كانت لديّ أي فكرة في أنّ تزامن المشي والتحقّق مع موسيقى مندلسون كان أمراً عجيباً - مجرد تزامن ليس له أي دلالة خاصة - فإنّ الفكرة كانت ستتبدّد بعد ذلك بأربعين ثانية، عندما اختبرت، في أثناء مشيي بخُطى واسعة مليئاً بالثقة، انتكاساً مفاجئاً وغير متوقّع، حيث نسيت فجأةً لحني المفعم بالحياة، ونسيت كيف أمشي. في هذه اللحظة، وبشكلٍ فجائي كما لو أنّ الإبرة قد رُفِعت عن اسطوانة فونوغرافية، توقّف العزف الداخلي لموسيقى مندلسون، وفي اللحظة التي توقّف فيها، توقّف مشيي أيضاً. توقّفت الساق فجأةً عن كونها مستقرّة وحقيقية وعادت إلى هذيانها السينمائي، وتغيّرها المفاجئ الفظيع والمتطرّف للأشكال والأحجام والأطر. ما إن توقّفت الموسيقى حتى توقّف المشي أيضاً، وجُرِّدت الساق من حقيقتها لتعود شبحاً متذبذباً. كيف يمكنني أن أشكّ بمغزى كل هذا؟ كانت الموسيقى، والفعل، والحقيقة شيئاً واحداً.

كنت عاجزاً مرةً أخرى، وبالكاد كان يمكنني أن أقف.

قادتني المُعالِجتَين الفيزيائيتَين إلى درابزين، قبضت عليه ممسكاً به بكل قوّتي.

تخبّطت الساق اليسرى بعصبية. لمستها، وكانت فاقدة للحياة، وغير حقيقية.

قالت إحداهما: "لا تقلق. إنه إجهاد موضعي. أرِح نهايات العصب قليلاً، وستستعيد وضعها الصحيح مرة أخرى".

نصف مستند إلى الدرابزين، ونصف واقف على ساقي السليمة، أرحت ساقي اليسرى. تضاءل الهذيان، وقلّ جموح الزيغان، بالرغم من

أنّ الـــتذبذب بقـــي على معدّله. بعد دقيقتين أو نحو ذلك، كان هناك اســـتقرار كـــاف. بمساعدة المُعالِجتَين، تقدّمت إلى الأمام مرةً أخرى. والآن، للمرة الثانية، عادت الموسيقى فجأة كما فعلت في المرة الأولى، ومع عودتها عاد المشي العفوي التلقائي، والحياة والواقعية للساق. لحسن الحـــظ أنّ المـــسافة إلى غـــرفتي لم تتعدّ بضعة أمتار وكنت قادراً على الاحـــتفاظ بالموسيقى، وموسيقية الحركة، إلى أن وصلت إلى كرسيّ، ومنه إلى الفراش، مُنهكاً ولكن منتصراً.

في الـــسرير كـــنت نشواناً. بدا أنّ معجزةً قد حدثت. فحقيقة ساقي، والقوة لأن أقف وأمشي من جديد، قد أُعطيتا لي، وهبطتا عليّ مـــثل نعمـــة. والآن، بعد أن توحّدت مع ساقي - مع جزءٍ من نفسي كـــان معزولاً في عالم النسيان - وجدت نفسي مليئاً باحترام حنون لها جعلني أملّس الجبيرة برفق. أحسست بشعورٍ شديد من الترحيب للساق المفقـــودة، العائـــدة الآن. لقد عادت الساق إلى البيت، إلى بيتها، إليّ. كان الجسد قد كُسِر خلال الفعل، والآن فقط مع عودة الفعل الجسدي ككل تامّ، شعر الجسد بنفسه مرة أخرى ككل تامّ.

قبل الموسيقى، لم يكن هناك أي شعورٍ من أي نوع، أو بتعبيرٍ أدق، لم يكن هناك أي شعور أساسي في الظواهر نفسها. وقد كان هذا واضحاً بصورةٍ خاصة في الدقائق القليلة المذهلة للرؤية الومضية المـــشكالية. كانت رائعة، أروع عرضٍ رأيته في حياتي، ولكنه كان مجرّد مشهد رائع، وأنا مجرّد متفرِّج. لم يكن هناك "دخول"، ولا أي فكرة أو إمكانية لدخول هذه الظواهر الحسية والفكرية المحضة. ينظر المـــرء إليها كما ينظر إلى الألعاب النارية، أو إلى السماء. يمكن أن تُـــرَى علـــى أنها تملك جمالاً بارداً ومجرّداً، مثل جمال الرياضيات، والفلك، والسماء.

ثمّ، علـــى نحوٍ مفاجئ، ومن دون أي إنذار، في الأكوان الباردة النجمـــية المجرّدة - أكوان العقل الباردة النجمية المجرّدة بالقدر نفسه - حـــضرت **الموسيقى**، دافئة، وحية، ونابضة بالحياة، وشخصية. كانت الموســيقى، كما حلمت بها في عطلة نهاية الأسبوع سريعة جوهرياً - "الفنّ المنشِّط"، كما دعاها كانتْ - مُنشِّطةً روحي، ومعها جسدي، بحـــيث إنـــني نُشِّطت فجأةً وعفوياً نحو الحركة، ونُشِّط لحني الحركي والإدراكي الخاص نحو الحياة من خلال الحياة الداخلية للموسيقى. وفي تلك اللحظة، عندما أصبح الجسد فعلاً، أصبحت الساق سريعة وحيّة، أصبحت الساق موسيقى، موسيقى صلبة مجسّمة. أصبح كلّ شيء فيّ، جسداً وروحاً، موسيقىً في تلك اللحظة:

أنت الموسيقى
طالما تستمر الموسيقى

(إليوت)

تحـــوّل كل شيء بصورة مطلقة في تلك اللحظة، في تلك القفزة المفاجـــئة من الوميض والتذبذب البارد إلى دفق الموسيقى الدافئ، دفق الفعل، دفق الحياة. الهذيان، الصخب، المشاهد المتغيّرة، السينما، كانت جمـــيعاً فاقدة الحياة، ومنفصلة أساساً. أما دفق الموسيقى، دفق الفعل، دفق الحياة، فقد كان أساساً وكلياً وبشكلٍ لا يقبل الانقسام دفقاً، كلا تامـــاً عـــضوياً، مـــن دون أي انفصالاتٍ أو تشقّقات، ولكنه نابض، متـــرابط، نابض بالحياة. ظهر مبدأ جديد بالكامل - ما دعاه ليبنيز "المبدأ **الفعّال** الجديد للوحدة" - وحدة لا توجد إلا في الفعل، ولا تُحقَّق إلا به.

مـــا كان رائعاً جداً هو السهولة المذهلة والثقة، حيث عرفت ما يجب أن أفعل، وعرفت ما سيأتي تالياً، وكنت مدفوعاً بالدفق الموسيقي

المستمرّ، من دون أي تفكير أو حساب متعمّد، مدفوعاً بإحساسي بالأمر كله. وقد كان هذا مختلفاً جداً، مختلفاً بصورة مطلقة، عن الحساب المنهك والمعقّد قبلاً؛ الإحساس بأنّ كل شيء يجب أن يُقدَّر ويُحسَب مُقدَّماً، أن يُحسَب مثل البرامج، والاستراتيجيات، والإجراءات، وأنه لا يمكن لأي شيء أن **يُنجَز** ببساطة ومن دون تفكير. كان فرح الفعل المطلق - جماله وبساطته - بمثابة إلهام: كان أسهل الأمور في العالم وأكثرها طبيعية، ومع ذلك أبعد ما يكون عن أعقد الحسابات والبرامج. هنا، في الفعل، حقّق المرء يقيناً بانقضاض واحد، برشاقة فاقت أعقد علوم الرياضيات، أو لعلّها طمستها ثمّ سمت عليها. الآن، ببساطة، بدا كل شيء صحيحاً، كل شيء **كان** صحيحاً، من دون جهد، بل بإحساسٍ متكاملٍ من السهولة والبهجة.

ما كان ذاك، إذاً، الذي عاد فجأةً، متجسّماً بالموسيقى، الموسيقى البهية، مندلسون، **النغم الصارخ**؟ لقد كان العودة المنتصرة لـ "أنا" الحيّة الجوهرية، التي ضاعت لأسبوعين في الهاوية، ولدقيقتين في الهذيان. ليست "أنا" الشبحية المتأمّلة الأنانية لديكارت، التي لا تشعر أبداً، ولا تتصرّف أبداً، وليست موجودة، ولا **تفعل** شيئاً. لا، ليست هذه الـ "أنا"، هذا العجز، هذا الخيال. إنّ ما جاء قد أعلن عن نفسه بوضوح جداً، وبشكلٍ بهيّ، وكان شعوراً وفعلاً مُحيِياً غنياً، ناشئاً عن إرادة آمرة بدائية، هي "أنا". ليس لاجتماع الأوهام، للهذيان، أي تنظيم أو مركز. أما ما ظهر مع الموسيقى فقد كان تنظيماً ومركزاً، والتنظيم والمركز لكل الفعل كان وكالةً، كان "أنا". ما ظهر في هذه اللحظة تجاوز المادّي، ولكنه نظّم نفسه فوراً وأعاد تنظيم نفسه في كلٍّ تامّ متصل. هذا المبدأ الجديد فوق المادّي كان **الرشاقة**. ظهرت الرشاقة من تلقاء نفسها في المشهد، وأصبحت مركزه، وحوّلت المشهد.

دخلت الرشاقة، كما تدخل الرشاقة، في مركز الشيء نفسه، في مركزه المخـــبوء الداخلـــي المتعذّر بلوغه، وعلى الفور نظّمت وأخضعت كل الظواهـــر لنفسها. وجعلت الحركة التالية واضحة، وأكيدة، وطبيعية. كانت الرشاقة هي المطلب الأساسي والجوهر لكل **الفعل**.

الحلّ بالمشي *Solvitur ambulando*: الحلّ لمشكلة المشي هو المشي. الطـــريقة الوحيدة لفعل الشيء، هو فعله. والمفتاح لهذا التناقض هو لغز الرشاقة. هنا وصل الفعل والتفكير إلى نهايتهما واتّساقهما. لقد اختبرتُ أهمّ عشر دقائق في حياتي وأكثرها زخراً بالأحداث.

VI. النقاهة

تدفّـــق الامتنان متواصلاً، كما لو أنّ غير المتوقّع قد حدث لتوّه - امتــــنان الــــناقه - لأنّ النقاهة لم تكن متوقّعة... يُهاجَم المرء في الحال بالأمل... نشوة النقاهة... بعد حرمانٍ طويل وضعف: الفرحة بقـــوةٍ تعـــود، بإيمــــان أُوقِظ من جديد في غدٍ وبعد غد، بإحساسٍ مفاجـــئ وتوقّـــع للمستقبل، بمغامرات وشيكةً، ببحارٍ مفتوحة من جديد، بأهداف متاحة مرة أخرى، ومُصدّقة مرة أخرى.

نيتشه

النقاهة

الحـــرّية! الآن، على نحوٍ مفاجئ، كان بإمكاني أن أمشي، كنت حرّاً. الآن، كنت كاملاً، ومُعافىً. كان بإمكاني على الأقل أن أشعر بما يعنـــيه الكمـــال، والعافية، بينما كانا خارج نطاق التخيُّل، والتفكير، والأمل قبلاً. الآن، عرفت المشي مرة أخرى كحرّية فيزيائية أو جسدية، تسبق ربما أي حرّية أخرى. الآن، انفتحت الآفاق، في حين أنني، بالكاد مدركاً لهذا، لم أرَ شيئاً قبلاً. لقد اضطجعت أو جلست، ساكناً فعلياً، كما لو كنت مشلولاً، لثمانية عشر يوماً في غرفتي، ثمانية عشر يوماً من الـــتفكير الهائـــل، ولكن من دون **فعلٍ** أو **ذهاب**. لم أكن حرّاً، حرّاً جسدياً، لأفعل أو أذهب. لكن كان بإمكاني الآن، كما لو بمعجزة، أن أقف. وبمجرد الوقوف، وكوني قادراً على الوقوف، تغيّر "وقوفي"، من جميع النواحي، جذرياً.

في اللحظـــات الأولى للوقـــوف أو المشي – أو، بتعبيرٍ أدقّ، في اللحظة التي تلت ذلك مباشرةً – وجدت أنّ شعوري كان مختلفاً تماماً: لم أعـــد مغلوباً، تابعاً سلبياً، مثل مريضٍ خاضع للمعالجة، وإنما نشيط، وقائم، وقادر على مواجهة عالمٍ جديد، عالمٍ حقيقي، **عالم أصبح الآن ممكـــناً**، بدلاً من نصف العالم المتغيّر للمرض والحجز الذي كنت قابعاً فيه. كان بإمكاني أن أقف، وأخطو للأمام، وأذهب من هنا إلى هناك؛ مـــن الحجـــز والمرض إلى عالمٍ حقيقي، نفسٍ حقيقية، نسيتُ وجودها جزئياً بشكلٍ عجيب ومنذرٍ بالسوء. نعم، متخبِّطاً في الحجز، والسلبية، وانعدام الحركة: متخبِّطاً في أعماق **العُتمة** واليأس... متخبِّطاً في ظلام

اللـــيل اللامتناهي... نسيت و لم يعد بإمكاني أن أتخيّل كيف هو ضوء النهار.

حـــين عدت إلى غرفتي، إلى سريري، عانقت الساق المرمَّمة، أو بالأحرى الجبيرة، بالرغم من أنّ هذه أيضاً بدت حيّةً الآن، ومحوَّلةً بحياة الساق. وجدت نفسي أقول: "أيتها الساق العزيزة، أيتها الساق الحبيبة. لقـــد عدتِ إليّ. أنت حقيقية. أنت جزءٌ مني الآن". كانت حقيقتها، وحـــضورها، ومعزّها، كلها شيئاً واحداً. حدّقت بها بنوعٍ من السعادة الغامـــرة، وقد ملأني إحساسٌ بجسدانية قوية، ولكنها جسدانية متألّقة وخارقـــة للطبـــيعة تقريباً؛ لم تعد عجينة غريبة شبحية ومرعبة، وإنما "اللحـــم الرائع والبهيّ" قد استُعيد. شعرت بنفسي ملتهباً بالانذهال، والامتـــنان، والفرح؛ ملتهباً بالحبّ، والعبادة، والثناء. صحت: "شكراً لله، ولله الحمـــد"... هـــتافات وأشـــكالٌ لفظية كانت لها فجأة معانٍ عميقة.

لقد حاولت مراراً وتكراراً لأربعة عشر يوماً على الأقل، أن **أفكّر** في الساق وأعيدها مرة أخرى، ولكنها كانت جهوداً عديمة النفع كلياً، عقيمة بقدر ما كانت شاقة. والآن، من دون تفكير، ومن دون محاولة، كانـــت الـــساق هناك، بروعةٍ، وبهاء، وسلام. بدت متألّقة **بوجودها** الطاغـــي والفـــوري؛ ذلك الوجود الّذي لا يمكن لأي تفكير أن يبلغه (ليـــست هناك سلبياً، وإنما فاعلياً، حيث وجودها، أو حضورها، هو وجود منطوٍ على إمكانات: شيء بات له قوةٌ، قوة جسدية، يمكنني أن أحرّكه كيفما شئت).

لثلاثمـــئة ســـاعة، اســـتلقيت على فراشي، في غرفتي، ساكناً بلا حراك، وفكّرت. "يتوقّف المرء عن التفكير"، وتعتقله الأفكار؛ وحيث كـــنت متوقّفاً عن التفكير، ومُعتقلاً بالأفكار، في حواسي وجسدي،

وبعيداً عن الفعل، فقد كنت مُجبراً لأن أفكّر. والآن، كان زمن التفكير قـــد انتهى، وزمن الفعل قد جاء. الآن - وللأسابيع القادمة - ستكون رحلتي سريعة، وحدسية، وطائشة. سأعود إلى جسدي، إلى وجودي، إلى العـــالم، إلى مغامـــرة النقاهة الخاصة والولادة الجديدة. كنت على أعتاب الحياة من جديد، ومعرفة الحياة كما لم أعرفها أبداً من قبل.

في الأيـــام التالية، تحسّن مشيي كثيراً. كان يصبح كل يومٍ أكثر ســـهولةً، ورشـــاقةً، وموسيقيةً، بالرغم من أنني كنت أسقط مجدداً في "الهـــذيان" بـــسبب الإجهاد؛ صورٌ ومضية من دون حسّ داخلي أو حـــركة. ولكـــن مع كل مشي، وكل يوم، كنت أجد نفسي أقوى، وقادراً على المشي أكثر قبل أن يبدأ الهذيان. وقد حدث للمرة الأخيرة بعـــد الجراحة بشهرٍ تقريباً، بعد أن مشيت لأميالٍ في الأراضي المحيطة بدار النقاهة في كينوود. ومنذ ذلك الحين، لم أعرفْ التجربة أبداً.

مـــع كل يومٍ جديد، وكل نجاح، أصبحتُ أكثر جرأة - مفرط الجـــرأة - وكان لا بدّ من أن أُكبَح لئلا "أبالغ" في دفع الساق، إن لم يكـــن للهذيان، فإلى الانتفاخ والإجهاد. كانت عودة الصحة والقوة - الـــنقاهة - مُنشِية، وكنت أخطئ باستمرار في تقدير ما يمكنني أو يجب عليّ فعله، ولكنها، مع ذلك، لم تكن سلسة، بل تألّفت من خطوات؛ من دون تقدّم عفوي بين مرحلة، أو خطوة، وأخرى. عندما استرقت نظـــرة إلى جـــدولي وقرأت "شفاء خلو من الأحداث الهامة"، فكّرت: "إنهـــم مجانين. الشفاء هو الأحداث، سلسلة من الأحداث الرائعة غير المتوقّعة: الشفاء هو الأحداث، أو بالأحرى الورود: ورود قوى جديدة لا يمكن تخيّلها... أحداث، وورود، هي ولادات أو ولادات جديدة".

مـــا كـــان ليُنظـــر إلى الشفاء كمنحدرٍ سهل، بل كسلسلةٍ من الخطوات الجذرية، التي يستحيل تصوُّر أي خطوةٍ منها بناءً على الخُطوة

السابقة لها. فوق ذلك، ما كان بإمكان المرء حتى أن يأمل. يمكن للمرء أن يأمل بزيادة في شيءٍ لديه بالفعل، ولكن لا يمكن للمرء أن يأمل أبداً في الخطــوة التالية غير المتخيّلة (لأنّ الأمل يقتضي درجة من التخيّل). هكــذا فقــد كان لكل خطوة صفة الإنجاز الكبير، ولعلها ما كانت لتحدث أبداً من دون إلحاح الآخرين.

مع كل خطوة، وكل تقدُّم، تتّسع آفاق المرء، ويخطو خارج عالمٍ مــنكمش؛ عالم لم يدرك أنه كان منكمشاً إلى هذا الحدّ. لقد وجدت هــذا في كــل حقل، فسيولوجياً ووجودياً. ويحضر ذهني مثالٌ بشكلٍ خاص: بعد ثلاثة أيام من بداية مشيي، تمّ نقلي إلى غرفة جديدة، غرفة فسيحة جديدة، بعد عشرين يوماً قضيتها في زنــزانتي الصغيرة. كنت أنظّــم نفسي، مبتهجاً، عندما لاحظت فجأة شيئاً غايةً في الغرابة. كل شيء قريب مني كان مجسّماً ثلاثي الأبعاد؛ ولكن كل شيء بعيد كان مــسطّحاً. وراء بابــي المفتوح، كان باب الجناح المقابل. ووراء هذا كــان هناك مريض جالس في كرسي مدولب. وخلف المريض، على عتبة النافذة، كانت هناك زهرية فيها أزهار. وخلف هذه، عبر الطريق، كانــت النوافذ الجملونية للمنــزل المقابل. كان كل ذلك، على مدى ســتين متراً ربما، مسطّحاً مثل فطيرة محلاة، وبدا أنه يتمدد مثل صورة عملاقــية في الهواء، ملوّنة ومفصّلة بروعة، ولكنها مسطّحة تماماً. لديّ إدراك جــيد جــداً للعمــق، لقــد أدركت فجأةً أنّ شيئاً قد حدث لإحساسي بالعمق والرؤية الثلاثية الأبعاد، حيث وجدت إنه قد توقّف، علــى نحوٍ مفاجئ تماماً، على بعد بضعة أقدام مني، وأنني كنت لا أزال محتجــزاً، بــصرياً، في صــندوقٍ شفاف بطول مترين وعرض مترين وارتفــاع ثلاثة أمتار، أي الحجم الدقيق للزنــزانة التي شغلتها لعشرين يوماً. كنت لا أزال في زنــزانتي تلك، إدراكياً، بالرغم من أنني نُقِلت

مـــنها؛ كـــنت لا أزال في حيّز بصري مقيّد للغاية مع رؤية تامة ثلاثية الأبعـــاد حتى حدوده، ولا أثر لهكذا رؤية ما وراء ذلك. كانت تجربةً عجيـــبة، أذهلتني (من دون فزع)، لأنها لم تكن مشحونة، مثل الساق، بـــصدمة رهيـــبة وخوف. كان بإمكاني أن ألاحظ، وحتى أن أقيس، الإزاحـــات المتعلّقة بالتغيّر الظاهري لموقع الشيء، والتي تُرَى عادةً على أنهـــا "عمـــق". ولكنّ ملاحظة ذلك، ومعرفة ذلك، لم يجعلني أستردّ إحـــساسي بالعمـــق. عاد إحساسي بالعمق وبالرؤية الثلاثية الأبعاد في قفـــزات، مـــثل الفتح المرتجّ لأكورديون بصري، خلال فترة ساعتين تقريباً، ولكنه لم يكن كاملاً، لأنني عندما قلبت على جنبـــي في السرير ونظـــرت مـــن النافذة - يا لها من نعمة! لقد كنت محروماً من النافذة والمـــشاهد لعشرين يوماً - كان بإمكاني أن أرى، كما لو كنت أنظر من خلال الطرف الخاطئ لتلسكوب، حديقة المستشفى الصغيرة الرائعة الجمـــال، ولكنها كانت مسطّحة تماماً، وجميع زواياها غير صحيحة، حيث بدت مشوّهة، وشبه منحرفة، في حين أنّ الحديقة كانت بالطبع مـــربّعة. كان عليّ الآن أن أحدّق فيها، ما وراء نقطتي البعيدة السابقة، إلى أنّ تستردّ مسافتها وعمقها ومظهرها الصحيح.

كنت مندهشاً ومذهولاً بهذه التجارب البصرية، التي بدت لي، من ناحيةٍ ما، مشابهة للساق. بدا أنّ الرؤية الثلاثية الأبعاد قد اختفت جزئياً إلى حـــدّ حرماني البصري بالضبط، تماماً كما كانت الساق قد اختفت كلـــياً مـــع الحرمان الحركي والحسّي الكامل. كان بإمكاني أن أُذهَل بالتغيّـــرات البـــصرية مـــن دون أي خوف. ولكن، بالرغم من ذلك، وبالـــرغم من الاختلافات الأخرى، بدا أنّ هناك تشابهاً مثيراً للاهتمام: كـــان الحرمان، وعدم الاستعمال، في كلتا الحالتين، مؤثّراً، ما أدّى إلى عـــواقب استثنائية وعجيبة (ومفزعة في حالة الساق). لم يكن هناك أي

شيء مفزع بشأن فقد الرؤية الثلاثية الأبعاد، ولكنها مع ذلك، كانت متطـــرّفة وجذريـــة. لم أكن قد أدركت أبداً أنّ الرؤية الثلاثية الأبعاد يمكـــن أن تُقيّد. تساءلت عمّا عساه قد يحدث للسجناء المحتجزين في زنـــزانات صـــغيرة، وعلى الفور اشتريت مجساماً (ستيريوسكوب) ووهبـــته للجـــناح، مفكّراً أنه قد يُستخدَم من قِبَل مرضى مستقبليين، حبـــسهم المـــرض في أحياز صغيرة، لحمايتهم من "متلازمة السجين"؛ انكماشات الحيّز البصري الناتجة.

الغرفة، الحيّز، الاتّساع. لقد تبيّن لي بوضوح متناهٍ أنّ الحرّية – فـــسيولوجيا وعالم دائم الاتّساع، حيّز شخصيّ (واجتماعيّ) دائم الاتّـــساع – هـــي جوهر التحسّن، والتماثل للشفاء، ليس فقط في المجال الخاص لساقي وقدرتي على الحركة، وليس فقط في المجال التقني للـــرؤية الثلاثـــية الأبعاد، بل في المجال العام الكلي للعودة للحياة، والخـــروج من الانهماك في الذات، والسقم، والمرض، والحجز، إلى فـــسحة الصحة، والوجود الكامل، والعالم الحقيقي، الذي كنت قد نسيته على نحوٍ مفزع في مدة الثلاثة أسابيع القصيرة التي كنت فيها مريضاً.

لكـــنني لم أختبر فزعاً على الإطلاق. لم يكن لديّ إحساس، ولا إدراك، بكم كنت منكمشاً، كم أصبحت منكمشاً بلا شعور إلى فراش المـــرض وحجرة التمريض؛ منكمشاً بالمعنى الحرفي والفسيولوجي التام، ومنكمـــشاً أيـــضاً في التخـــيُّل والشعور. لقد أصبحت قزماً، سجيناً، نـــزيلاً، مريـــضاً، من دون أدنى إدراك. نحن نتحدّث، بدراية، عن "المؤسساتية"، من دون أدنى إحساسٍ شخصي بما تشتمل عليه؛ كم هو الانكمـــاش مغرياً، وعاماً في كل المجالات (وليس أقلّه المجال المعنوي)، وكيف يمكنه أن يحدث بسرعة خاطفة لأي شخص، أي إنسان.

كثيراً ما كنت أتحدّث إلى مرضاي، الذين قضوا عقوداً في مؤسّسات للرعاية قبل "استفاقتهم"، وأسألهم إن كانوا قد شعروا بأنهم محبوسون بشكلٍ فظيع، وهل تاقوا إلى العالم الكبير في الخارج؟ وكنت أندهش وأرتاب عندما كانوا يقولون بهدوء "لا". لم يكن بإمكاني أن أراهم كمرضى فقط، ومع ذلك، فقد بدا هذا الإذعان عاماً تقريباً، وقد أخّر وأعاق عودتهم إلى فسحة الحياة وخصبها، حتى عندما أصبح هذا ممكناً فيزيائياً بواسطة عقار إل-دوبا. لقد أدركت الآن أنّ تقهقراً كهذا كان عاماً. فهو يمكن أن يحدث مع أي عجز حركي، أو مرضٍ، أو حجز. كان انكماشاً للوجود طبيعياً ومحتوماً، كما كان مُحتملاً وغير قابلٍ للعلاج لأنه غير قابلٍ للإدراك؛ غير قابلٍ للإدراك مباشرةً. كيف بإمكان المرء أن يعرف أنه قد انكمش، إذا كان هيكله الإسنادي نفسه قد انكمش؟ لا بدّ من تذكير المرء بالعالم الكبير الذي "نسيه"، وحينها فقط يمكن للمرء أن يتفتّح ويُشفَى.

في يوم السبت السعيد ذاك - اليوم الذي نُقلتُ فيه من زنزانتي الصغيرة، الانفرادية، العديمة النوافذ، إلى غرفة فسيحة في جناح جراحة العظام، واليوم الذي استعدت فيه الحيّز البصري والفسحة، واليوم الذي مشيت فيه ثمانمئة متر، ما منحني إحساساً عظيماً بالقوة الحركية والمكان - في ذلك اليوم السعيد نفسه (بعد ثلاثة أسابيع فقط من سقوطي؛ أطول وأقصر ثلاثة أسابيع في حياتي، وأكثرها زخراً بالأحداث وفراغاً منها)، شهدتُ تحرّراً معنوياً أيضاً.

كان هناك بالنسبة إلي - وربما بالنسبة إلى جميع المرضى، لأنها حالةٌ تتعلّق بالمرض (بالرغم من ما يأمله المرء من أنها حالة يمكن أن تُحسَن، لا أن تُساء معالجتها) - شقاءان، أو ألمان، موحّدان، ومع ذلك متميِّزان. أحدهما هو العجز الفيزيائي (و"الفيزيائي الوجودي")، أو

الزوال التدريجي المحدّد عضوياً للوجود والمكان. اللغز الآخر كان "الحالة المعنوية" - ليست كلمة ملائمة تماماً - المرتبطة بالوضع المُختزَل للمريض، وتحديداً، التعارض "معهم" والاستسلام "لهم"، حيث الضمير عائدٌ إلى الجرّاح، والنظام بأكمله، والمؤسسة. وهو تضارب ذو طابع بغيض وحتى ارتيابي، أضاف إلى التضارب الفيزيائي الوخيم، ولكن المحايد، ألماً معنوياً أقلّ احتمالاً بكثير لأنه لا يُحلّ. لم أشعر أنني مغلوبٌ فيزيائياً فحسب، بل معنوياً أيضاً، وعاجزٌ عن المواجهة... مواجهتهم بجرأة، ومواجهة الجرّاح تحديداً. بالرغم من أنني عرفت، عند مستوىً معين، وطوال الوقت، أنه كان رجلاً نزيهاً، وكذلك كنت أنا، وأنّ الجميع كانوا حسني النيّة ويبذلون قصارى جهدهم، إلا أنني لم أستطع أن أطرد الشعور الرهيب الذي أرهقني إلى حدّ ما منذ دخولي إلى المستشفى، والذي أصبح حاداً وخاصاً عندما انقطع التواصل، حين قال الجرّاح بنفوذ أنه لا يوجد "شيء"، مناقضاً ومرتاباً وشاكاً بإدراكاتي (الجوهرية)، وهي إدراكات استند إليها الحسّ الجوهري للـ "أنا"، وتكامل النفس. حين شعرت أنني عاجزٌ، وساكنٌ، ومحبوسٌ فيزيائياً، كذلك شعرت أنني عاجزٌ، ومشلولٌ، ومنكمشٌ، ومحبوسٌ معنوياً؛ ليس منكمشاً فقط، وإنما ملتوٍ أيضاً في أدوار ووضعيات ذليلة.

هكذا، زرت الجرّاح يوم السبت زيارةً قصيرة. كنت في السابق أنتظر زياراته سلبياً، وهي زيارات كانت دائماً في السياق البغيض "للجولات الطبية"، حيث كان الطبيب مضطّراً لأن يلعب، أمام فريق ضخم، دور المستشار الحكيم، وأنا دور المريض المستسلم. زرت الجرّاح وتبادلنا "حديثاً مقنعاً". كان حديثاً حكيماً، وإنسانياً، أراح كلينا.

كان مثل هذا الحديث ممكناً الآن لأنّ حاجتي إلى الجرّاح قلّت. لم أعد أشعر أنني معتمدٌ عليه بصورة حاسمة (ومُغيظة). كان ممكناً لأنّ

عالمـــي قـــد توسّـــع، ولهذا كان يمكن له، وللنظام، وللمؤسسة، أن ينكمـــشوا، لمـــنظور معقـــول وملائم. من الواضح أنّ هذا قد أشعره بالارتـــياح أيضاً، لأنّ لا أحد يريد مريضاً مُغيظاً ومثيراً للمشاكل، ولا هو أراد أن يلعب دور الغول في حلمي. ترسّخ السلام، بلياقةٍ وكرامة، وبعض أثرٍ من مودّة مُسلِّية ولكن متحفّظة.

كـــنت الآن حـــرّاً – فيـــزيائياً ومعنوياً على حدٍّ سواء – للقيام بالـــرحلة الطـــويلة، رحلـــة العودة، التي لا تزال تنتظرني. انقشع الآن الغمـــوض والظـــلام المعـــنوي، كما انقشع الظلام الفيزيائي، والظّل، و**العُتمة**. والآن امتد الطريق مفتوحاً أمامي في أرض النور والحياة. الآن، من دون عوائق أو عقبات، سأجتاز هذا الطريق الجيد، أسرع وأسرع، نحـــو خـــصوبة الحياة وعذوبتها، التي نسيتها أو لم أعرف مثلها أبداً. كانـــت معـــنوياتي تـــرتفع منذ مشيي الأعجوبة يوم الأربعاء. والآن، الـــسبت، كـــنت أطير فرحاً؛ فرحاً سيستمرّ ويتعمّق على مدى ستة أســـابيع، محـــوِّلاً ومغيِّراً شكل العالم، وجاعلاً من كل شيء أعجوبة جديدة ومهرجاناً.

غمـــر ســـرورٌ فريد الحديقة خارج نافذتي. لم يكن هناك خارجٌ حقيقـــي قبلاً، ولا ضوء نهار، ولا شمس تشرق وتغرب، ولا حشائش، ولا أشـــجار، ولا حـــسّ بالمكان أو الحياة. مثل رجلٍ أُعطِش، نظرت بعطـــشٍ، وتوقٍ، إلى المربّع الأخضر، لأدرك فقط كم كنت مقتطَعاً من الحياة، في حجيرتي المجدبة، الاصطناعية، العديمة النوافذ. لم تكن الصورة تكفـــي. كـــان لا بدّ أن أرى. وبما أنه كان لا يزال من الصعب عليّ فيزيائياً القيام بذلك، على الأقلّ خلال الساعات التي كان لا يزال عليّ أن أقضيها في السرير، فقد نظرت إلى انعكاسها في مرآة الحلاقة المحمولة عالـــياً. عـــبر المرآة، بشكلٍ صغير ولكن حقيقي، رأيت أشخاصاً في

الحديقة، جالسين وسائرين، وكانت تلك لمحتي الأولى عن العالم الحقيقي، العالم الإنساني، في الخارج. بصرياً، وبانعكاسات صغيرة، تشبّثت بتلك اللمحة، وتقت أولاً وقبل كل شيء للنزول إلى هذه الحديقة (بالرغم من أنه لم يخطر ببالي أنّ ذلك قد يكون ممكناً أبداً: كان لا يزال يبدو بطريقة ما متعذّر البلوغ أو ممنوعاً). كانت كل خطوة، كل تقدُّم، يحتاج إلى نوعٍ من "الإذن". هذا الشعور بكوني مُخرَساً ومحتجَزاً كان شديداً بشكلٍ استثنائي، وما زاد في شدّته، هو أنه كان، في أغلب الأحوال، لاشعوري وغير مُدرَك. وعلاوة على ذلك، كنت أنا نفسي في كثيرٍ من الأحيان هو من منع أو كبح الكلام الحرّ والفعل؛ ذلك الجزء مني الذي كان الآن يقوم بدور المؤسسة داخلياً. الآن، للمرة الأولى واجداً نفسي مع مرضى آخرين، كنت سأرى هذا فيهم حيث أخفقت أن أراه في نفسي، وسأرى أنّ شيئاً أو أحداً كان ضرورياً لكسر حاجز المنع أو الكبح، سواء أكان أحداً يعطي "الإذن"، أو البصيرة المفاجئة بأنه لا ضرورة "للإذن". هذا أيضاً جعل التعافي تدريجياً. كان هناك، إذا جاز التعبير، سلّم حرّية يجب تسلّقه درجة درجة، والذي كان صعوده يتطلّب شرطاً أساسياً مضاعفاً: الدرجة الضرورية من التعافي العضوي، والجراءة اللازمة، والإذن، أو الحرّية المعنوية.

"شفاء خلو من الأحداث الهامة". يا له من هراء محض! كان الشفاء "رحلة طويلة" (كما قال الرجسترار الطيّب)، رحلة تحرّك فيها المرء، إن تحرّك، مرحلة مرحلة، أو محطة محطة. كل مرحلة، وكل محطة، كانت وروداً جديداً كلياً، يتطلّب بدايةً جديدةً، أو ولادة جديدة. ينبغي على المرء أن يبدأ، أو يولَد مراراً وتكراراً. كان الشفاء تمريناً في شيء لا يقلّ عن الولادة، لأنه كما يصاب الرجل الفاني بالمرض ويموت

في مـــراحل، كـــذلك الرجل الوِلاديّ يتعافى ويُنشَّط في مراحل، وهي مـــراحل جذريـــة ووجودية، مطلقة وجديدة: غير متوقّعة، وغير قابلة للـــتوقّع، ولا يمكـــن التوقع بها، ومفاجِئة. الشفاء خلو من الأحداث الهامة؟ إنه **يتألّف** من أحداث!

بعـــد يـــوم السبت، توالت الأحداث سريعةً، أو باندفاعات قويّة تاريخية. كففت عن الاحتفاظ بيوميات دقيقة، وكففت إلى حدٍّ ما عن "الملاحظـــة" والتسجيل برمّتهما، مُساقاً في الاندفاع القويّ، في فيضان الـــشفاء. وبالأهمية نفسها، لم أعد وحيداً، وإنما واحدٌ ضمن مجموعة، وجـــناح، ومجـــتمع، ومرضى. لم أعد الشخص الوحيد في العالم، كما يظنّ ربما كل مريض في عزلة مرضه القصوى. لم أعد محتجزاً في عالمي الخاص الفارغ، ولكنني وجدت نفسي في عالمٍ يسكنه آخرون؛ آخرون **حقيقـــيون**، على الأقل في ما يتعلّق بعلاقتهم مع بعضهم بعضاً ومعي: لـــيس مجرّد لاعبـــي أدوار، جيدة أو سيئة، كما كانوا المعتنون بـــي. الآن فقـــط كـــان بإمكاني أن أتخلّص من كلمات الجرّاح المخيفة إليّ: "أنـــت فريد!". الآن، متحدّثاً بحرّية مع زملائي المرضى – وهي حرّية كانت ممكنة بسبب الرفقة، بسبب حقيقة أننا كنا إخوة معاً، من دون ضـــغط مرتبة مضطّرين إلى إخفائه أو تحريفه – الآن، مستمتعاً بصلات اجـــتماعة حـــرّة للمرة الأولى، أدركت أنّ تجربتي الخاصة، "حالتي"، كانت أبعد ما تكون عن كونها فريدة. فكل مريضٍ تقريباً أصيب طرفه أو خـــضع لجراحة للطرف، وتمّ تجبيره، ليصبح غير منظور وغير فاعل، قـــد اختبر على الأقلّ درجة من الاغتراب: سمعت عن أيدٍ وأقدام بدت "زائفـــة"، و"غـــير صحيحة"، و"غريبة"، و"غير حقيقيةً"، و"غامضة"، و"منفـــصلة"، و"مقـــتطعة"، ومراراً وتكراراً، عبارة "لا تشبه أي شيء على الأرض". أمضيت في الجناح ستة أيام، وتحدثت بتفصيل وحرّية مع

جميـــيع المرضـــى. كان واضحاً أنّ العديد منهم قد اختبر تجارب مثل تجـــربتي، وكـــان واضحاً أيضاً أنّ لا أحد منهم قد نقل ذلك بنجاحٍ للجـــرّاح. الـــبعض منهم قد حاول، ولكنه صُدّ كما حدث معي. أما معظمهـــم فقـــد اختار الصمت. ولم يستطع أي منهم فعلياً أن يتدبّر اجتـــياز محنته. البعض كان فزعاً للغاية، والبعض كان خائفاً باعتدال. والقلـــيل منهم، متلبّد الحسّ أو صبوراً، بدا غير مكترث، قائلاً: "لا، لم أقلق. هذه الأمور تحدث". إذا كنت بالفعل "فريداً"، فلم يكن ذلك في مـــا يتعلّق بالتجربة أو طبيعتها، وإنما في التفكير المتواصل الذي أرفقته معها؛ حسّ "انتهاك المنطق" وأهميته الجوهرية.

حالما تحقّقتُ من هذا، هدأ الباحث في داخلي، وأمكنني أن أدخل في علاقةٍ اجتماعية طبيعية أكثر. ولكن كنا جميعاً لا نـــزال بطريقةٍ أو بأخـــرى منفردين ومنعزلين في هذه المرحلة، بسبب الوحدة الأساسية للمـــرض وخلوته، والعزلة المفروضة بواسطة الهيكلية الصلبة "الرأسية" للمؤسسة.

كانـــت أيامـــي الستة التي قضيتها في الجناح اجتماعية إلى درجةٍ معيـــنة، ولكنها درجةٌ مقيّدة بالضرورة. لم يكن إلا لاحقاً فقط، حين كـــنت في دار الـــنقاهة، أن تغيّر "الجوّ"، وتلاشت تلك العزلة و"الجوّ المؤسساتي"، مثل حلمٍ مزعج، وأفسحت المجال لجوٍّ بهيج مُشعرٍ بالألفة مـــع إحساسٍ شديد غالباً بالرفقة والصداقة، وبحياةٍ اجتماعية صاخبة، نحيا فيها معاً، ونتماثل للشفاء معاً؛ المشاركة الأساسية المميّزة للنقاهة.

في الـــيوم السابق لنقلي إلى كينوود، دار النقاهة في هامبستيد، تمّ إنـــزالي إلى الحديقـــة الـــصغيرة التي طالما نظرت إليها بتوقٍ شديد؛ أُنـــزِلت إلـــيها في كرسي مدولب مرتدياً ثوب نوم المستشفى. كان نـــزولي إليها فرحة كبيرة – أن أكون في الهواء الطلق – لأنني لم أخرج

طـــوال شـــهرٍ تقريباً. كانت سعادة صافية وشديدة، كانت نعمة، أن أشـــعر بالـــشمس على وجهي والريح على شعري، أن أسمع الطيور، وأرى، وألمـــس، وألاطـــف النباتات الحيّة. أُعيد توطيد بعض الاتصال الأساســـي والاجتماع مع الطبيعة بعد العزلة الرهيبة والاغتراب الذي عانيـــته. عاد جزءٌ مني إلى الحياة، عندما أُخذت إلى الحديقة، وهو جزء ربما أنهكه الجوع ومات من دون معرفتي بذلك. شعرت فجأةً بما كنت أشعر به بشدة من قبل، ولكنني لم أفكّر أبداً في تطبيقه على وقتي الخاص في المستـــشفى: أنّ المـــرء يحـــتاج إلى مستشفيات في الهواء الطلق، مع حدائـــق في الـــريف والأحـــراج؛ شـــيء مثل بعض دُور "الأخوات الـــصغيرات" التي أعمل فيها في نيويورك الريفية: مستشفى مثل بيت، وليس قلعةً أو "مؤسسة"... مستشفى مثل بيت وربما مثل قرية.

لكـــن إن كنت قد ابتهجتُ بنعمة الشمس، إلا أنني وجدت أنني كـــنت مُتجنَّباً من قِبَل غير المرضى في الحديقة؛ الطلاب، والممرّضات، والزوّار الذين جاؤوا إليها. كنت مُهمَلاً، كنا مُهمَلين، نحن المرضى في ثـــيابٍ بيـــضاء، وكان يتمّ تفادينا بوضوح، ولا شعورياً، كما لو كنا مصابينً بالجذام. لم أشعر قبلاً بمثل هذا الإحساس بالانغلاق الاجتماعي للمرضـــى، وكـــونهم منـــبوذين، ومُهملَـــين من قِبَل المجتمع: الرثاء، والاشمئـــزاز، اللذان استحثّتهما ثيابنا البيضاء؛ الإحساس بفجوة كاملة بيننا وبينهم، والتي لم تؤدِّ المجاملة والكياسة إلا لتأكيدها أكثر. وأدركت كيف أنني، أنا نفسي، كنت في الماضي، وأنا موفور الصحة، أرتعد من المرضى بشكلٍ لاشعوري تماماً، ومن دون إدراك مني بذلك أبداً. ولكن الآن، حين أصبحت أنا نفسي مريضاً، مرتدياً ثياب المرضى، أصبحت مـــدركاً بشدة لارتعاد الآخرين مني، وكيف أنّ الأصحاء وغير المرضى كانـــوا يـــبقون على مسافة منا. لولا أنني لم أكن خائفاً جداً ومنهمكاً

بشؤوني الذاتية عند الدخول إلى المستشفى، فلربما رأيت بوضوح أكثر ما تشتمل عليه عملية "الدخول": ثياب المستشفى، وبطاقة الاسم، والتجريد من الفردية، والاختزال إلى مكانة وهويّة عامة. لكن، على نحوٍ مثير للاهتمام، اتّخذ "الدخول" ذلك المشهد في الحديقة ليريني، بصورة بيانية وهزلية تقريباً، كم كنا مُهمَلين، والفجوةَ التي لا بد أن تُجسَر أو يُقفَز عنها قبل أن يستطيع المرء أن ينضم مجدّداً، وبشكلٍ كامل، إلى عالم الرجال.

جَسْرُ الفجوة، أو الهوّة، بين الصحة والمرض: من أجل هذا وُجِدت دُور النقاهة؛ لقد أصبحنا معتلّي الصحة، وقبعنا في المرض لفترة طويلة جداً. لم نفزع إليه فحسب، ولكننا أصبحنا أنفسنا مرضى، حيث اكتسبنا تدريجياً مواقف النزلاء والمعتلّي الصحة. الآن كنا بحاجة إلى شفاء مُضاعَف: شفاء فيزيائي، وحركة روحية **نحو** الصحة. ليسَ كافياً أنْ نكون أصحاء الجسد، إن كنا لا نزال نشعر بخوف وقلق المرضى. لقد أضعفنا المرض جميعاً، كل واحد بطريقته، وفقدنا طيش، وجرأة، وحرية، الأصحاء. لا يمكن أن يُقذَف بنا في العالم فوراً. لا بدّ من مرورنا بمرحلة متوسطة، وجودية وطبية على حدٍّ سواء، تكون بمثابة مكان يمكننا أن نعيش فيه وجوداً محدوداً، محدوداً ومحمياً، ولكن ليس متطلّباً جداً، محدوداً ولكنه متّسع باطّراد، إلى أن نصبح مستعدّين لدخول العالم الكبير مرةً أخرى. إنّ مستشفى الأمراض الحادة بالكاد كان عالماً على الإطلاق، كما بالكاد كانت الإصابة الحادة أو المرض حياةً على الإطلاق. كنا الآن أحسن صحةً، واحتجنا إلى عالمٍ وحياة، ولكن لم يكن ممكناً أن نواجِه المتطلّبات الكاملة للحياة، وصخب العالم، وقسوته، وضخامته الطائشة، وما كان له أن يدمّرنا. احتجنا إلى مكانٍ هادئ، إلى ملاذ أو مفزع، حيث يمكن أن نستعيد

بالـــتدريج ثقتنا وصحتنا... ثقتنا بقدر صحتنا؛ فترة فاصلة **هادئة**، أو فتـــرة راحة، أو ربما شيء شبيه بكلِّية، حيث يمكننا أن نكتسب القوة معنوياً وفيزيائياً.

في يومي الأخير في المستشفى، استوقفني أيضاً أنّ النقاهة، وأماكن خاصـــة بها، كانت حاجةً اجتماعية بقدر ما هي فردية. إذا كنا، نحن حديثو المرض، لا يمكننا أن نواجه العالم، فإنّ العالم لا يمكنه أن يواجهنا بأساريرنا وثيابنا الخاصة بالمرض والألم. نحن أحدثنا الرعب والخوف في الآخـــرين - لقـــد رأيت ذلك بوضوح تماماً - ومن أجل صالح العالم وصـــالحنا، لا يمكن الإفراج عنا. لقد وُسمنا بسمات المرضى... المعرفة غـــير المُحـــتمَلة لـــلألم والموت... المعرفة غير المحتملة للسلبية، وفقد الأعصاب، والاتّكال على الغير؛ والعالم لا يهتّم لأن يُذكَّر بهكذا أمور. قـــد تحـــدّث غـــوفمان جـــيداً عن "المؤسسات الكاملة" - الملاجئ والـــسجون - للناس المُهمَلين بالكامل، تلك المؤسسات التي هي فظيعة أساســـاً ولكـــنها ربمـــا منشآت ضرورية، لإبقاء المرضى، والمدانين، والموصـــومين، بعيداً عن أعين العامة. لكنّ دُور النقاهة، مثل الكلّيات، أو المعتزلات، كانت مختلفة. فلديها طبيعة خيّرة أساساً وعذبة. كانت مؤســـسات (إن لم يكن هذا تناقضاً في التعبير) مكرّسة للصبر والتفهّم، ولـــرعاية وتقوية الأجساد والأرواح الضعيفة. كانت مكرّسة بصورة مركـــزية للفـــرد والعناية به. إنّ دار نقاهة كهذا سيكون بالفعل ملاذاً وبيتاً. سيكون ملجأً بالمعنى الأفضل والأصحّ والأعمق، وبعيداً كل البعد عن رعب "ملاجئ" غوفمان، ومع ذلك...

مع ذلك، **لا بدّ** أن تكون هناك تضاربات هنا، لأنه بالرغم من أنّ المرء، كمريضٍ في المستشفى، يرتّد إلى طفولة معنوية، إلا أنّ هذا ليس ارتداداً خبيثاً، وإنما حاجة بيولوجية وروحية إلى الكائن المصاب. **لا بدّ**

للمرء أن يعود، **لا بدّ** للمرء أن يتقهقر، لأنّ المرء يمكن بالفعل أن يكون عاجزاً كطفل، سواء أشاء ذلك أم أبى. يصبح المرء في المستشفى طفلاً مـــرةً أخرى مع والدَين (يمكن أن يكونا جيدين أو سيئين)، وقد يُشعَر بهذا كعودةٍ للطفولة أو ارتداد، أو كتنشئة حلوة وضرورية للغاية. والآن حـــان دور المـــرحلة التالية: الحاجة إلى النضج. إذا كان المرء طفلاً في المستـــشفى معـــنوياً ووجودياً، فإنّ المرء في دارٍ للنقاهة سيُعامَل بشكلٍ مختلف؛ بخشونة أكثر، وعطف أقلّ: ربما كمراهق.

لقـــد رغـــبت بالطبع أن أغادر، أن أتخرّج من المستشفى، وأبدأ بالنـــضوج. ولكـــن في لـــيلتي الأخـــيرة في المستشفى، قادتني نفسي اللاشعورية إلى القيام بفعلٍ كان يمكن أن يبقيني في المستشفى. كنت قد اكتـــسبت في ثمانية أيام قدراً كبيراً من الثقة والقوة، وكنت قادراً على المـــشي بالعكّازتين مسافة أربعمئة متر على نحوٍ موصول، وعلى التنقُّل، والحفاظ على توازني بحيوية ومهارة. وقد بدا لي أنّ الدافع الذي تملّكني في لـــيلتي الأخـــيرة في المستـــشفى لأن أصعد إلى السقف كان نتيجةً لحماســـتي ومعنوياتي المرتفعة، بالرغم من أنّ صعود السلالم كان مهارة أتقنـــتها لـــتوّي، وهي هنا لا تشتمل على صعود سلالم فحسب، وإنما على باب أفقي في السقف ومرقاة. يا لها من مغامرة مثيرة أن أصعد إلى الـــسقف وأرى أضـــواء لـــندن تزيّن سماء الليل! كانت مغامرةً مثيرةً، وبوجـــود عكّازتين وجبيرة وساق نصف مُزالة التعصيب، فقد كانت مجنونة أيضاً ومميتة احتمالاً. لحسن الحظ، تمّ اكتشافي في الوقت الملائم، وإنـــزالي وتوبيخي رسمياً لعملي المُغضِب وحماقتي. وقد كان عند هذه الـــنقطة فقـــط أن أدركـــت أنني قد حاولت بالفعل أن أعرِّض نفسي لحـــادث لأنني كنت فزعاً للغاية من المغادرة. ما كنت لآتي على ذكر أفعـــالٍ عصابية خاصة كهذه، لولا أنني اكتشفت أنها كانت شائعة إلى

حـــدّ مـــا بـــين المرضى. كنا جميعاً توّاقين للمغادرة، توّاقين للخروج، واتّخـــاذ الخطوة التالية. مع ذلك، فإنّ المغادرة عنت تخلّياً عن الاهتمام والعـــناية بـــنا، تخلّياً عن المكانة الطفولية العزيزة التي كنا الآن معتادين عليها. أردنا، شعورياً، أن نُفطَم، ولكننا خفنا لا شعورياً، وحاولنا أن نُوقف ذلك، وأن نطيل مدة تمتّعنا بمكانتنا المدلّلة الخاصة.

سواء أكان عملاً طائشاً أم لا، فقد تمّ نقلي في صباح اليوم التالي مـــن المستـــشفى مع ستة آخرين اكتشفت أنّ **جميعهم** كانوا قد جرّبوا القيام بأعمال مماثلة في ليلتهم الأخيرة في المستشفى. لقد كنت الوحيد بيـــنهم الممكّن جسدياً. فبعضهم كان لديه قثطار، والبعض الآخر كان شاحباً أو منقطع النفَس، وبعضهم بدا مريضاً فحسب. كنا طاقماً مثيراً لمزيجٍ من الشفقة والسخرية يصارع لدخول الحافلة، أو يتمّ حمله إليها. وبـــدا أنّ حافلتـــنا - مثل سفينة مجذومين، أو سفينة أشباح، أو سفينة موت - كانت تتّخذ طريقاً مشؤوماً، أجنبياً، ومنعزلاً، إلى هامبستيد.

وجـــدتُ نفسي مرتعباً - أظنّ أنّ جميعنا كنا كذلك - بصخب ووهـــج العـــالم في الخارج، وبسرعة وعنف حركة السير، وبالحشود الـــضخمة، والـــضجيج. كان التعقيد المحض للعالم وصخبه مرعباً. لقد التفتـــنا جميعاً بعيداً عن النوافذ، مذعورين، وشاكرين أنه لم يحن الوقت بعـــد لقذفـــنا في هـــذا العالم. كان بعضنا قد سخر من "دار النقاهة" ("فكرة سخيفة، مكان سخيف، أريد الخروج منه")، ولكن لا أحد منا أراد هـــذا بعـــد نظرةٍ واحدة على العالم الخارجي. كان فرجاً هائلاً، وتحـــرُّراً، أنـــنا لم نعـــد "محجوزين"، ولكن لا أحد منا كان مستعداً للخـــروج بعـــد. أصبح الإحساس بضرورة المرحلة الانتقالية واضحاً، وأصـــبح المكـــان "السخيف" بالنسبة إلينا عزيزاً، وضرورياً، ومرغوباً. كـــان فرجاً هائلاً عندما خرجنا من وسط المدينة الصاخب صعوداً إلى

أعالي هامبستيد الأهدأ. كانت هناك لحظة خوف، تحوّل إل افتتان، عندما وصلنا إلى بوابة العزبة التي فُتِحت بصرير، ومن ثمّ أُغلِقت وراءنا. توجّهت بنا الحافلة إلى قصر العزبة القديم، وهو بناء ضخم قديم مُبعثَر الأرجاء يلفّه اللبلاب، قائمٌ في أراضٍ خضراء وشاسعة للغاية تلاشى معها أي إحساس بالمدينة ومعالمها. ممتنّين، وخائري القِوى، نزلنا باضطّراب من الحافلة، حيث استُقبلنا بترحيب من قِبَل رئيسة ممرِّضات بشوشة وحنون، أدركت شدّة تعبنا، وأخذتنا مباشرةً إلى غرفنا. استغرق جميعنا على الفور في نومٍ منهَك مريح.

استيقظت على مشهدٍ من السحر الخالص، غمر فيه القمر الممتلئ، قمر الحصاد، المنظر الطبيعي بالنور، مضيئاً على التلال الحرجية المنخفضة في كل مكان حولي. أدركت فجأة أنه قد مرّ شهرٌ قمري واحد فقط منذ تلك الأمسية التي جذّفت فيها عبر زقاق هاردينجر البحري، تحت بدرٍ كهذا بالضبط، في الليلة السابقة مباشرةً للحادث. تلك الأمسية الساحرة، الغامضة، ولكن المشؤومة، حين سمعت الموسيقى على الماء الساكن للزقاق البحري. هل كانت حلماً، أو وهماً؟ لا، كانت حقيقة، ولكنها حقيقة سحرية، آتية من دار عبادة على ضفة البحيرة. تذكّرت كيف أرسيت القارب، وأنا منسحرٌ وبالكاد متنفّساً خوفاً من إبطال السحر، ومشيت برفق عبر فناء دار العبادة، وفي محاذاة القبور المضاءة بنور القمر، إلى دار العبادة المليئة والمفعمة بموسيقى موزارت.

هل مرّ شهر، شهرٌ كامل، بالفعل؟ بينما كنت قابعاً في المستشفى أزبد وأرغي، استمرّت حركات الأجرام السماوية، لا مبالية بهيبةٍ وكبرياء، ومتسامية على نوباتي الاهتياجية المشحونة بالأنا. لفّ المشهدَ هدوءٌ شديد، وسكينة مهيبة. وزال عني كلّ إحساس بالغيظ ونفاد

الصبر. شعرت أنني كنت منصهراً مع الهدوء الهائل في كل مكانٍ حولي. مستيقظاً، في ذلك المساء، شعرت بالسكينة مثل نعمة؛ نعمة إلهية هبطت من السماء.

كان هناك بعض السديم الخفيف المعتاد في شهر أيلول/سبتمبر، وقد طمس النور، وخفّف من وضوح كل الحدود، وأحاط بنا وحمانا. لقد كان له أثرٌ عذبٌ في نفسي جعلني أشعر به أيضاً كنعمة إلهية؛ كان ملائماً للفترة الهادئة التي تنتظرنا: "شكراً لك، شكراً لكَ، شكراً لك أيها الضباب".

بلطف، وبرقّة (كان العنف قد فارقني)، نهضت من سريري مرتكزاً على عكّازتَيّ. كان الوقت متأخّراً، وجميع المرضى كانوا في أسرّتهم. بلطف، وبرقّة، هبطت السلّم الكبير؛ كم كان هذا القصر القديم ملائماً للفترة التي كنت فيها الآن. كل شيء في الأسفل كان صامتاً، صامتاً بصورةٍ لطيفة: صمت السكينة، والاسترخاء، والراحة. أغمضتُ عينَيّ وتلوت بصوتٍ خفيض دعاء شكرٍ وحمد، وشعرت بقلبي متواضعاً وممتنّاً.

في الفترة الفاصلة بين البدر السابق والحالي، في فترة شهرٍ قمري واحد، كنت قد أوشكت على الموت، وتمّ إنقاذي في اللحظة الأخيرة، وخضعت لجراحة خيط فيها لحمي الممزّق، و"فقدت" ساقي (للأبد؟) في عالم نسيان خالٍ من الشعور، وشُفيت، كما لو بمعجزة، عندما بدا الشفاء مستحيلاً. شعرت بأساسات عالمي الداخلي تهتزّ، بل لعلّها دُمِّرت بالكامل. واختبرت "فضيحة التفكير المنطقي"، وإذلال العقل. وسقطت في هاوية، مع انفصال أنسجتي، وإدراكاتي الحسّية؛ الوحدة الطبيعية للجسد والروح، والجسد والعقل. تمّ انتشالي من الهاوية، ووُلِدت من جديد، وترسّخت، بقوى تتجاوز فهمي وتفكيري المنطقي.

لقـــد زُلزِلت وأُغرِقت، ولكنني أُنقِذت بغموض. الآن لقد وصلت إلى هـــذا المـــأوى الجمـــيل، قصر العزبة القديم هذا، في هامبستيد، حيث تـــوهّجت الشموع بضوءٍ إنساني وامتّد هدوء شاسع مضاء بنور القمر على التلال حولي. فتحت الباب - أي حرّية كانت هذه! كان التجوّل محظـــوراً في المستـــشفى - ووقفـــت لدقيقة في الهواء العليل، مستمتعاً بـــصفائه وبالرائحة الحلوة للأحراج، وأنا أنظر في البعد إلى وهج لندن الليلي، مدينة المدن، أمي.

لسببٍ ما، كنت قد وجدتُ البكاء صعباً في المستشفى. كنت في معظم الأحيان تعيساً، ولكن بكرب قاسٍ جاف العينين. الآن، وجدت دموعي تنهمر فجأةً - فرح، امتنانٍ؟ - من دون أن أعرف لها سبباً.

لم يكـــن حتى وقت تناول الفطور أن التقيت مع زملائي المرضى. كـــنا جميعاً مرضى، وناقهين، جُمعنا معاً لمدة من الزمن. كوافد جديد، فقـــد خُصِّـــصت لي طاولـــةٌ في الـــزاوية، وكنت موضعاً للفضول، والاهـــتمام، وربما بعض الازدراء من قِبَل المتمرِّسين. كان هناك شعورٌ فـــوري بالمجمـــوعة - والتسلسل الهرمي - مثل أول يومٍ في الجيش أو المدرسة. لكن خلف هذا كان هناك شعورٌ بالدفء والرفقة.

واجهـــتني مشكلة على الفور: لم أستطع أن أجلب عكّازتَيّ إلى الطاولة، ولكن إن تخلّصت منهما، فكيف يمكنني أن **أصل** إلى الطاولة؟

قال جاري وقد رآني متحيِّراً ومُربَكاً: "أنظر هنا. اجلس، وسأضع عكّازتيك في الزاوية. ينبغي علينا جميعاً أن نساعد بعضنا بعضاً هنا".

شكرته. كان رجلاً أشيب قليلاً، مصاباً بداء السكّر، وقد بُترت ســـاقه، لقد اعترف لي أنه كان مُبتلىً بأشباحٍ حيّة. تعارفنا بصورة شبه طبـــية، ذاكرين أعراضنا ومشاكلنا، ولم نتعارف بشكلٍ شخصي أكثر إلا لاحقاً.

سألني ناظراً إلى الجبيرة: "ماذا عنك؟ ماذا حدث؟".

أخبرته.

التفت إلى الآخرين قائلاً: "أليس هذا أغرب الأمور! لدى الدكتور هنا ساق، ولكن لا إحساس في الساق، وأنا لديّ الإحساس، ولكن من دون ساق لتتلاءم معه! ما رأيك..." (ملتفتاً ثانيةً إليّ) "يمكننا أن نجعل ساقاً واحدة سليمة بيننا. سأهبك الشعور، وأنت تهبني الساق".

ضحكنا. ضحكنا جميعاً. كُسِر الجليد، وخطر لي أنّ هذا الرجل، غير المختصّ، قد ذهب على الفور إلى قلب المشكلة؛ قلب **المشكلتين**، مشكلته ومشكلتي، التعارض الأساسي والهزلي للأشباح الإيجابية والسلبية. وبالفعل تابع كلامه:

"هذا الشبح اللعين. ذلك الشيء الغبي اللعين. من يحتاج إليه؟ أليست هناك طريقة لمنعه من الحدوث؟"، ثمّ صاح: "**أنت** الحلّ. كل ما كان يجدر بهم فعله قبل اقتطاع الطرف، هو أن يحقنوه بمخدِّر، ويقطعوا الأعصاب، ويضعوه في جبيرة، وهكذ أفقد الإحساس به، كما فقدت أنت إحساسك به. ثمّ، عندما لا يكون الإحساس هناك، يقومون باقتطاعه! تخلّص من الإحساس، تخلّص من الفكرة، **ثمّ** تخلّص من الشيء نفسه!".

تعجّبت من صفاء الذهن هذا. وقد استوقفتني الفكرة على أنها حصيفة وذكية. وتخيّلت أنني "أصيغها بلغة طبية"، وأرسل رسالةً باسمه إلى مجلة *Lancet*: "معالجة وقائية بسيطة ضدّ الإصابة بالأطراف الشبحية".

إنّ ما وجدته في هذا المريض وجدته في جميع المرضى. كانوا جميعاً أكثر حكمة من الأطباء الذين عالجوهم! هناك افتراض بين الأطباء،

على الأقلّ في مستشفيات الأمراض الحادة، بأنّ مرضاهم أغبياء. **وليس هـــناك أحدٌ** "غبي"، لا أحد غبـــي، باستثناء الحمقى الذين اعتبروهم أغبياء. إنّ العمل في مستشفى أمراضٍ مزمنة، مع المرضى أنفسهم على مـــدى سنوات، يجعل المرء يحترمهم، لحكمتهم الجوهرية الإنسانية، ولما لديهم من "حكمة القلب الخاصة". لكن خلال وجبة الفطور الأولى مع "إخوتي" - ليسوا زملائي في الخبرة، بل رفاقي المرضى، رفاقي البشر - وخـــلال كامل إقامتي في دار النقاهة، أدركت أنّ المرء يجب أن يكون هو نفسه مريضاً، ومريضاً بين المرضى، وأنّ المرء يجب أن يدخل عزلة ومجتمع المرض، إذا كان يريد الحصول على أي فكرة حقيقية بشأن ما **يعنـــيه** "أن يكـــون مريضاً"، وأن يفهم تعقيد المشاعر الهائل وعمقها، وأصـــداء الـــروح في كل مجال - الكرب، الغيظ، الشجاعة، وما إلى ذلـــك - والأفكار المستحثّة، حتى في أبسط العقول العملية، لأنّ تجربة المرء، كمريض، **تُجبره** أن يفكّر.

كـــان التواصـــل في الـــدار فورياً وعميقاً. كانت هناك شفافية، وانحـــلال للحواجز المعتادة بيننا. فنحن لم نعرف فقط الحقائق المرضية الخاصـــة بكـــل واحد منا، بل عرفنا أيضاً، وأحسسنا، وحزرنا مشاعر بعـــضنا بعضاً. هذه المشاركة للمشاعر الخاصة والمخفية عادة - مشاعر مخفـــية غالـــباً عن المرء نفسه- وعمق الاهتمام والرفقة استحثّت جميعاً إعطـــاء ومـــشاركة روح دعابة وشجاعة لا تُقدّر بثمن. لقد بدا هذا مدهـــشاً للغاية، ومختلفاً عن أي شيء عرفته أبداً، ومتجاوزاً لأي شيء تخيّلـــته أبـــداً. لقد مررنا جميعاً بالمرض والخوف، والبعض منا مشى في وادي ظـــلّ الموت. لقد عرفنا جميعاً العزلة القصوى لكون المرء مريضاً ومُـــبعَداً. هبطـــنا جمـــيعاً إلى ظلامٍ وأعماق عظيمة. والآن صعدنا إلى الـــسطح، مثل الحجيج الذين سلكوا الطريق نفسه، ولكنه طريق طويل

كــان لا بــدّ لكل واحد أن يقطعه بمفرده. بشّر الطريق أمامنا برحلة مختلفة تماماً، يمكن فيها أن نكون رفاق سفر معاً.

لقــد التقينا صدفةً. وربما لن نلتقي مرةً أخرى أبداً. لكنّ اللقاء، طــوال فتــرة دوامه، كان جوهرياً وعميقاً. كان هناك تفهُّم وتعاطف مــشترك غير منطوق. كان اليقين، والحدس، بما تشاركنا فيه، واليقين بأعمــاق وأساســات علاقاتنا، مثل السرّ المشترك الذي لا حاجة إلى التلفُّظ به. وبالفعل، كان حديثنا عابثاً في معظم الأحوال. لقد تمازحنا، ولعبنا البليارد، وعزفنا البانجو، وتحدثنا عن الأخبار وآخر نتائج مباريات كــرة القــدم، وعن المحاباة التي لاحظناها في الموظّفين. كان كل شيء على السطح بهيجاً وخفيفاً. لو أنّ غريباً سمع حديثنا اتّفاقاً لظنّنا مجموعة عابــثة. ولكنّ عبث حديثنا، عبثنا، غطّى أعماقاً سحيقة. كان العمق متضمَّناً وحاضراً سرّاً في كلماتنا، في تمريجنا ومرحنا الأسهل والأخفّ. لو كنا عابثين، فقد كان ذلك نتيجةً للروح المعنوية المرتفعة للمولود من جديد. ولكن لا شيء من هذا كان سيُرَى من قِبَل شخصٍ من خارج الــدار. كان سيلاحظ السطح، وليس الأعماق. ما كان ليخمّن حتى **وجود** أي أعماق مخفية وظاهرة في عبثنا.

تجــوّلتُ خارجــاً بعد الفطور – كان صباحاً بهياً من صباحات أيلول/سبتمبر – واستقرّ بــي الحال على مقعد حجري يكشف مشهداً كــبيراً في جميع الاتجاهات، حيث ملأت غليوني وأشعلته. كانت هذه تجــربة جديــدة، أو على الأقلّ منسية تقريباً. **لم تُتَح لي الفرصة أبداً لإشــعال غليون من قبل،** أو بدا لي أنني لم أفعل ذلك منذ أربعة عشر عامــاً علــى الأقلّ. الآن، أحسست فجأةً بالترف، بعدم الاستعجال، بحــرّية كــدت أنساها، ولكنها عادت إليّ الآن، وبدت أثمن شيء في الحــياة. كــان هــناك إحساس شديد بالسكون، والسكينة، والفرح،

والسرور الصافي باللحظة "الحالية"، الخالية من الدافع أو الرغبة. كنت مـــدركاً بشدة لكل ورقة شجر خريفية اللون على الأرض، ومن وراء هذا، الامتداد العريض لمرج هامبستيد، ودور العبادة البرجية لهامبستيد وهايغـــيت، عالـــية في الأفق. كان العالم ساكناً، متجمّداً، وكل شيء مركّز في شدة من الكينونة المحضة. غطّت الأرض سكينة تامّة ومناجاة. كانـــت لهذه السكينة صفة الشكر والتسبيح، نوع من الشدة الصامتة، ولكنه صمتٌ كان أيضاً شكراً وأغنية. شعرت بالحشيش، والأشجار، والمـــروج، في كـــل مكان حولي. كل الأرض وكل الكائنات في حالة تسبيح. أحسست أنّ العالمَ كله كان ترتيلة واحدة كبيرة، وأنّ روحي المطمئنّة كانت جزءاً منها.

كل شيء حولي كان مألوفاً للغاية. ألم أكبر قرب مرج هامبستيد، وأركـــض في أرجائـــه كلها كطفل؟ لقد كان دوماً عالماً سحرياً، بيتاً مألـــوفاً عزيزاً. لكن الآن، في هذا الصباح، وجدتني أنظر إليه بانشداه، كمـــا لـــو كان عالماً جديداً. لم أكن أعرف، أو كنت قد نسيت، أنه يمكن أن يكون هناك جمالٌ كهذا، اكتمالٌ كهذا في كل لحظة. لم يكن لـــدي إحساسٌ أبداً "باللحظات"، بالتتابع، بل فقط بالكمال والجمال للّحظة "الحالية" السرمدية؛ *nunc stans*.

لقد تمّ إقحام عالمٍ سحري من السرمدية في الزمن، شدة من الآن والحاضـــر، من النوع المُلتهَم عادةً بواسطة الماضي والمستقبل. وجدت نفسي، على نحوٍ مفاجئ ورائع، مستثنىً من الضغوط المزعجة للماضي والمـــستقبل ومستمتعاً بالهبة اللامحدودة لحاضر تامّ ومكتمل. بكسل، لا ليس بكسل – لأنه في وقت الفراغ ليس هناك كسل ولا استعجال – راقـــبت الدخان المتصاعد لولبياً من غليوني في الهواء الساكن. بكسل، سمعـــت، في بدايـــة كـــل ساعة، قرع الأجراس من جميع الاتجاهات:

هامبـــستيد تدعو وتقرع الجرس إلى هايغيت، وهايغيت إلى هامبستيد، كل واحدة إلى الأخرى، والكل للعالم.

هكذا جلست، وفكّرت، بعقلٍ نشيط ولكن مُطْمئنّ. ولاحظت أكثـــر أنـــي لم أكن "فريداً"، وأنّ هناك مرضى آخرين كانوا يجلسون ويتمـــشّون بهدوء من دون قلق أو استعجال. كنا جميعاً نستمتع براحة اســـتثنائية للروح؛ هذا ما خمّنته، وهذا ما تأكّدت منه في الشهر العذب السرمدي لإقامتي هناك. كان هناك هدوء خاص، مثل هدوء معتزل أو كلـــية، أحكم قبضته اللطيفة العذبة علينا جميعاً. كان لنا جميعاً، بغضّ النظر عن ظروف حياتنا... فترة فاصلة خاصة لا تشبه أيّ شيء عرفناه أبـــداً. لقد خرجنا من الشقاء المحض، من عواصف المرض وأهواله، من الشكّ المُضعِف بشأن ما إذا كنا سنتحسّن. ولكن لم يتمّ استرجاعنا بعد مـــن قِبَل دورة الحياة اليومية، أو بما يُظنّ أنه الحياة في العالم غير المجدَّد، بواجـــباته اللامتناهـــية، وإغاظاتـــه، وتوقّعاته. لقد مُنحنا فترة فاصلة ســـحرية، بـــين كوننا مرضى وعودتنا إلى العالم، بين كوننا خاضعين للمعالجة وكوننا أصحاب أسر ومُعيلين، بين كوننا "في الداخل" وكوننا "في الخـــارج"، بـــين الماضي والمستقبل. دام مزاج صباح يوم السبت، وبقي كما هو متألّقاً بعد أسبوع وبعد شهر.

أيلـــول/سبتمبر آخر، وعامٌ آخر، وجدت نفسي، وقد استشعرت السكينة بعد فترةٍ من الاضطّراب، أقرأ لهانا أرندت حول "الفجوة بين الماضي والمستقبل: الحاضر السرمدي *nunc stans*". وبالفعل، فإنّ هذا مُدخَلٌ في فعل التذكُّر: أنا أتذكّر وأكتب لفترة، ثم آخذ فترة استراحة وأقرأ لهانا أرندت. هي تتحدّث عن "منطقة سرمدية، حضور أبدي في هـــدوء كامـــل، يقع ما وراء ساعات البشر وروزناماتهم كلها، هدوء **اللحظة الحالية** في الوجود المضغوط زمنياً، والمقذوف زمنياً للإنسان...

هـــذا الحيّـــز الـــصغير اللازمـــني هو قلب الزمن"، وهو البيت الفعلي والوحـــيد، للعقل، والروح، والفن، والنقطة الوحيدة التي يجتمع عندها الماضـــي والمـــستقبل ويـــصبح النمط والمعنى للكلّ التام واضحاً. هذه السرمدية بالضبط أُعطيت الآن؛ هبة كينوود الخاصة.

في أيامـــي دراستي في الجامعة، واحسرتاه، اعتبرت أكسفورد أمراً مسلَّماً به، وعجزت عن تقدير سرمديتها أو الانتفاع منها، عجزت عن تقديـــر فرصـــتها العظيمة، ولكنني الآن كنت مدركاً بوضوح لفرصتي العظـــيمة؛ الفترة الفاصلة الخاصة التي مُنِحت لي في زمن النقاهة هذا. شـــعرت بها بشدّة، وهو ما فعله جميع من في الدار. فبالنسبة إلى العديد مـــنا - الذي استحوذت عليه مشاغل العمل والأسرة واستبدّ به القلق والهمّ - كانت تلك الفترة هي وقت الفراغ الحقيقي الأول، أو الإجازة الأولى التي حظي بها أبداً. كانت المرة الأولى التي وجد فيها وقتاً ليفكّر أو يشعر. فكّر كل منا، بطريقته، بعمقٍ في هذا الوقت، وأنا أشكّ بأنّ التجربة كان لها تأثيرٌ بالغ الأثر ودائم علينا.

كـــنا قد فقدنا إحساسنا بالعالم في أثناء إقامتنا في المستشفى. ولم يكن إلا في دار النقاهة أن اصطدمنا به مرةً أخرى، وإن يكن عن بعد، وبـــضعف، وبـــشكلٍ مـــصغَّر. قضيت صباحي الأول مستدفئاً بأشعة الشمس، وقائماً برحلات استكشافية قصيرة في الحديقة. كان بإمكاني أن أمـــشي بعكّازتَيّ لبضع دقائق عند هذه المرحلة. وبعد الظهر نجحت في الوصول إلى بوّابة الدار. اشتملت نـــزهتي هذه على طريق منحدر، جعلـــني مـــنهكاً كلـــياً. لاهثاً، ومرتجفاً، تهالكت على الأرض بجانب الـــبوّابة، وقد ذُكّرتُ بشكلٍ غامر بعجزي وقصوري. عبر الطريق، في ملاعـــب هايغيت، رأيت فريق المدرسة يتدرّب على لعب كرة القدم، وهـــو مـــشهدٌ أستمتع به عادةً. ولكنني كنت مندهشاً ومرتاعاً للكره

المفاجئ الذي وجدته في نفسي. لقد كرهت صحتهم، وأجسامهم الصغيرة الشابة. كرهت حماستهم الطائشة وحرّيتهم؛ حريتهم من القيود التي شعرت بها بشكلٍ طاغٍ في نفسي. نظرت إليهم بحسد خبيث، بالضغينة الخسيسة، والغيظ السمّي، للإنسان المريض، ومن ثمّ أشحت بنظري عنهم: لم أستطع أن أحتملهم أكثر من ذلك، ولا استطعت أن أحتمل مشاعري الخاصة... بشاعة نفسي المكشوفة.

واسيت نفسي بعد ذلك بالقول: "ليس أنا من يتكلّم هنا - ليست نفسي الحقيقية - وإنما مرضي. إنها ظاهرةٌ موثّقة جيداً؛ الحقد البغيض للمريض". وأضفت: "قد تشعر به، ولكن إحرص على أن لا **تُظهره**".

مرتعداً، ومرتاعاً، تمايلت راجعاً إلى مقعدي. كان اليوم لا يزال مشمساً، ولكنه كان غائماً معنوياً.

مررت بتجربة مماثلة في اليوم التالي مباشرةً، عندما صادفت أثناء تجوالي في الأراضي المحيطة بالدار أرانب في زريبة صغيرة. دُهشت من جديد للكره المفاجئ الذي استشعرته في نفسي: "كيف **تجرأ** أن تلهو وتمرح، بينما **أنا** عاجز؟" شعرت بالشعور نفسه أيضاً لدى رؤيتي لقطة جميلة رشيقة، كرهتها بشكلٍ خاص لجمالها ورشاقتها.

أصابتني ردود الفعل هذه بالارتياع، هذا الرفض السمّي المتشائم للحياة، هذه الفيضانات المفاجئة من النكد بعد المشاعر السامية العاطفية التي اعترفت بها. لكنها كانت متقفّة، وكان من المهمّ مواجهتها، ومن المهمّ أيضاً **الاعتراف بها**، من أجل فهم الآخرين. وهنا، كان زملائي المرضى رائعين، لأنني عندما اعترفت بالفعل، خجولاً ومتمتماً، قالوا: "لا تقلق، لقد مررنا نحن أيضاً بهذا. لقد مررنا جميعنا به. سيتلاشى قريباً".

رجـــوت أن يكونوا محقّين. لم أستطع أن أتأكّد. كل ما أمكنني التأكّد منه هو كرهي في ذلك الوقت. ابتسمت بلطف ورقّة إلى المسنّين والعاجـــزين، حـــيث لم أســـتطع بالفعل أن أحتمل أحداً غيرهم. فتح قلبـــــي بابه للمتألّمين والمعانين، ولكنه أغلقه بحدّة أمام المشهد الرائع للصحة.

لكن عندما بدأت برنامج المعالجة الفيزيائية في يوم الاثنين، وكان المعـــالِج الفيزيائي جازماً ومشجّعاً للغاية، بحيث جعلني أشعر أنني يمكن أن آمـــل بشفاءٍ كاملٍ فعلياً، اكتشفت أنّ الشعور البغيض قد اختفى. مسّدت شعر القطّة، وأطعمت الأرانب، وقضيت ساعةً أشاهد لاعبـــي كرة القدم الصغار مستمتعاً. كانت هنا، إذاً، استدارة جذرية إلى الحياة.

أجد الكتابة عن هذه الأمور، حتى بعد مرور سنوات، أمراً صعباً. من السهل تذكُّر الأمور الجميلة في الحياة، الأوقات التي يبتهج فيها قلب المرء وينفتح، حين يكون كل شيء مطوّقاً بالعطف والحب. من السهل تذكّـــر صفاء الحياة؛ كم كان المرء نبيلاً، وكريماً، وشجاعاً في مواجهة المحن. لكن من الأصعب أن نتذكّر كم كنا مفعمَين بالكره.

لقد كذبت عندما قلت: "ليس أنا من يتكلّم هنا – ليست نفسي الحقيقية – وإنما مرضي"، لأنّ المرض ليس له صوت، وقد كان المتكلّم **أنا**، أنا البغيض. كيف يمكنني أن أدّعي أنّ طيبتي، ومشاعري السامية، تؤلّـــف "نفسي الحقيقية"، وأنّ ضغينتي وحقدي هما مجرّد "مرض" ولا يمثّلان نفسي؟

يمكنـــنا أن نرى بسهولةٍ في الآخرين ما لا نهتمّ أو نجرأ على رؤيته في أنفسنا. المرضى الذين أعالجهم يعانون من أمراضٍ مزمنة. هم يعرفون أنّ أملـــهم بالشفاء ضئيل وربما معدوم. يُظهر بعضهم روح دعابة فائقة وبـــسالة، وحـــباً صـــافياً للحياة وتمسُّكاً بها. لكنّ البعض منهم يُظهر

المـــرارة، والخبث، والغلّ؛ هم مبغضون، وحاقدون، وفتّاكون. ليس ما يظهـــر هـــنا هو المرض، بل الشخص... انهياره أو فساده في مواجهة مـــصاعب الحـــياة القاســـية. إذا كان لدينا الصبا، والجمال، والقوة، والموهبة، وإذا وجدنا الشهرة، والثروة، والحظوة، والرضى، فمن السهل أن نكـــون لطفاء، وأن نلقى العالم بقلبٍ ودود. لكن دعنا فقط نفقد الحظوة، والجمال، والقوة، والصحة؛ دعناً نجد أنفسنا مرضى، وتعساء، ومـــن دون أمـــل واضح بالشفاء؛ حينها فقط ستُمتحَن قوة احتمالنا، وشخصيتنا الأخلاقية، إلى الحدّ الاقصى.

لقد تمّ امتحاني، ولكن بقدرٍ ضئيلٍ فقط، ولكنني بالرغم من ذلك أظهـــرت ردّ فعلٍ بشعاً، سرعان ما تلاشى، ربما لأنني كنت مدركاً أنّ عجـــزي ليس دائماً وأنّ إحساسي بالعجز والحظّ السيء كان مؤقّتاً. كـــان هناك مريضٌ آخر يجلس معي على الطاولة نفسها؛ رسّام شاب عاد لتوّه من جراحة قلب مفتوح، بعد سنوات من عجزٍ قلبـــي متزايد. كـــان موجوعاً جسدياً لمعظم الوقت، وبدا مُنهَكاً وهرماً وأظهر وجهه تعبيراً خبيثاً بغيضاً. كان يبذل جهداً عظيماً لكبح مشاعر حقده، وهو مـــا ضاعف من بؤسه وجعله يشعر بالخجل. لكنّ مشاعره ظهرت في عينـــيه، حـــتى عـــندما كان يعضّ على لسانه ليبقى صامتاً. لا بدّ أنّ **مشاعري** نحوه، غير الودودة تماماً، قد ظهرت أيضاً، لأنه انفجر في أحد الأيام قائلاً: "الأمور **جيدة** بالنسبة إليك. أنت تتحسّن، وستكون بخير قـــريباً. ستكون قادراً على القيام بما تشاء. ولكن ماذا تخبرك عيناك عني **كطبـــيب**؟ لديّ قلب عاجز، وأوعية متعفّنة والمجازة لا تعمل. سأخرج بالتأكـــيد من هنا، ولكنني سأعود مرة أخرى. لقد أتيت إلى هنا خمس مـــرات. أصبحوا يعرفونني الآن. لا يحبّ الناس أن ينظروا في وجهي. فهـــم يرون فيه حكم الموت، ويرون أنني أتقبّله بشكلٍ سيئ جداً. هم

يـــرون شفاهي الزرقاء، ويرون خبثي، كما تراه أنت، ومن ثمّ تتظاهر أنـــك لم ترَ شيئاً. ليس مشهداً جميلاً، ليس مهيباً، ليس حسناً. ولكن أخبرني بحقّ السماء، ما الذي ينبغي عليّ أن أفعله بشأن هذا؟".

كمـــا هـــو الحال في الكلية، هناك تنظيمٌ وحرّية في دار النقاهة، يـــبلغان ربّمـــا درجة استثنائية. فهناك أوقات محددة لوجبات الطعام، وطـــاولات محـــددة للمرضى في غرفة الطعام، وأوقات محددة للعلاج الفيزيائـــي والنشاطات الأخرى، وأوقات محددة للزيارات الطبية، وفي البداية كانت هناك حدود لكل الزيارات الأخرى. أولاً، ليس الخروج مسموحاً، وإذا سُمِح به فهو مقيّد، لأنه لا بدّ من أخذ الإذن، والعودة مـــع الغروب. مع ذلك، وعلى نحوٍ متباين مع هذه القيود، كانت هناك الـــسرمدية، والحـــرّية، والمثالية الخاصة بمعتزل. فهناك فكرة وحيدة أو شعور جمعنا معاً، الرحلة الطويلة التي ستعيدنا أخيراً إلى الصحة والبيت، وهـــي فكـــرة تأملية وعملية في آن. كانت هذه الفكرة وحدة ومركز حياتـــنا، أو لعلّهـــا لم تكـــن بعيدة جداً عن فكرة المعتزل، أو بمعناها الأفضل، عن الجامعة أيضاً. لقد عرفنا المرض كما يعرف المرء الخطأ او الشرّ، والآن كنا نلتمس الصحة، والاتّزان المُعاد لوجودنا، كما يلتمس المرء الخير أو الحقيقة.

كانـــت هـــناك ضرورة للمنهاج اليومي والقيود الموضوعة. فمن دونهـــا كـــان يمكـــن أن ننساق في حالة من انعدام التنظيم والتشوّش الكامل، وأن نخطئ في تقدير طاقاتنا وإما أن نستلقي تقهقرياً وسلبياً، أو ندفع أنفسنا للقيام بأمورٍ فوق حدود طاقاتنا. لم يكن لدى أي منا بعد مـــرونة الصحة. كنا لا نـــزال ضعافاً، ومتقلقلين، وبحاجة إلى التنظيم والعـــناية. لم يكـــن بإمكانـــنا بعد أن نستمتع جسدياً بحرّية الصحة، وطيـــشها، وحماســـتها الغافلة. وهكذا كان لا بدّ من تنظيم نشاطاتنا

اليومية، وحياتنا، وعدم السماح لها بالاقتراب من المستوى الطبيعي إلا بصورة تدريجية.

كنت أبالغ باستمرار في بعض الأمور وأقرّب من بعضها الآخر. كـــنت أذهب أحياناً في نـــزهة طويلة مشياً على الأقدام في الأراضي المحـــيطة بالدار، مُغرىً بالمروج الفسيحة الممتدة نـــزولاً، وبالإحساس الـــرائع بالسهولة في المنحدرات الكثيرة الينابيع، فقط لأجد نفسي عند الـــسفح، حيث يجري الغدير، مُنهكاً للغاية. وعندما كنت أشقّ طريق العـــودة جاهداً، كنت أجد أنّ القوة والنشاط قد فارقا ساقي اليسرى، ومن ثمّ، بسبب الجهد الشاق، كنت أُصاب بانصباب كتلي في الركبة يجعلني طريح الفراش لأربع وعشرين ساعة. كان هناك ذلك الإحساس بالـــسهولة الخادعـــة، ولكن أيضاً بالجهد والصعوبة الشديدة في أمور بـــسيطة تمامـــاً. كان الاستلقاء في السرير أو النهوض منه أمراً صعباً، وكذلك الجلوس على كرسي واستعمال المرحاض. كان لا بدّ دوماً من وجـــود العكـــازتين في متناول اليد، والملقط الطويل للإمساك بالأشياء البعـــيدة. كـــنت أجد صعوبةً في ارتداء جوربـــي الأيسر في الصباح، واضـــطّررت إلى اســـتخدام أداة غـــريبة الشكل لتساعدني على القيام بذلك.

لقد أتينا إلى الدار من أجل النقاهة. يجب علينا أن نتحسّن. ولكنّ التحـــسُّن ليس عملية تلقائية وبسيطة، بالرغم من أنّ المرض نفسه قد يحدث من تلقاء نفسه. ليس الشفاء عمليةً، ولكنه فعل؛ أفعالٌ عديدة.

هـــناك بالطـــبع شفاءٌ تلقائي؛ في ما يتعلّق بالأنسجة على سبيل المـــثال. وهـــذا بالفعل كان المعنى الوحيد للشفاء ينظر الجرّاح. كانت الأنـــسجة قـــد مُزّقت، وتمّ وصلها. لقد أُنجز عمله لأنّ شفاء الأنسجة تلقائي. وعلى وجه التحديد، كان الجرّاح محقّاً، بوصفه جرّاحاً، بالرغم

من أنّ وصفة "العلاج الفيزيائي، عقب الجراحة" تبدو وصفةً مُرغمةً نوعاً ما، كما لو أنّ العلاج الفيزيائي كان أمراً طبياً أو آلياً محضاً...

كان هناك، ولا يزال، وجهاً آلياً للعلاج الفيزيائي. لا بدّ من تمرين العضلات، وإلا ستفقد قوتها وتوتّرها. التمرين ضروري ومفيد للعضلات. هو ضروري ولكنه ليس كافياً لأنّ الوقوف، والمشي، والمهارات والنشاطات الحركية المعقّدة الأخرى، ليست مجرّد مسألة عضلات (حتى لو كانت الإصابة الرئيسية، كما في حالتي، عضلية). تشتمل عملية إعادة التأهيل على فعل، أو **أفعال**. يجب أن تتركّز إعادة التأهيل على طبيعة الأفعال، وكيفية القيام بها عندما تكون قد انفصلت، أو انفسخت، أو "فُقِدت"، أو "نُسيت". من دون إعادة التأهيل كنت سأبقى طريح الفراش بالفعل، كما يقول أبقراط بالضبط.

لكن لم يكن باستطاعتي القيام بهذا من خلال قوة الإرادة فقط. كان لا بدّ للمبادرة، أو الدافع، أن تأتي من الخارج. كان لزاماً عليّ أن أن أقوم بفعلٍ جديد، ولكنني كنت بحاجة إلى الآخرين ليقولوا لي: "افعله!" لقد كانوا المتيحين والواصفين للفعل، وبالطبع الداعمين والمشجّعين، ولم يكن هذا مجرّد عصاب أو سلبية من جهة المريض. فكلّ مريض، بغضّ النظر عن مدى قوة عقله وقوة إرادته، يصادف نفس الصعوبة بالضبط عند القيام بخطوته الأولى، وعند القيام (أو إعادة القيام) بأي شيء جديد. هو لا يستطيع أن يتخيّله - "يضعف التخيُّل" - ويجب على الآخرين، وقد فهموا حالته، أن يجرّوه إلى الفعل. هم يتوسّطون، إذا جاز التعبير، بين السلبية والفعل.

كان هذا هو الفعل الأهمّ، والمرحلة الأعلى، للشفاء. ولكنها لم تكن النهاية، بل البداية فقط. وإذا كنت سأقضي في الدار ستة أسابيع بعد ذلك، فهذا بسبب ضرورة قيامي بأفعالٍ أخرى من النوع نفسه،

لأنّ اســتعادة الوظــيفة الأعلى ليست عملية سلسة وتلقائية. إنّ إعادة التأهيل بهذه الطريقة هي خلاصة، أو طفولة ثانية، لأنها، مثل الطفولة، تــشتمل على أفعال تعلُّم حاسمة، وعلى صعودٍ مفاجئ من مستوى إلى الذي يليه، حيث كل مستوى لا يمكن تصوّره من المستوى أسفل منه. تعــتمد الفسيولوجيا، أو على الأقلّ فسيولوجيا الوظائف الأعلى، على الــتجارب والأفعــال، وهــي متضمّنة فيها، وما لم تُجعَل التجارب والأفعــال ممكــنةً - الدور الأساسي للمعالِج أو المعلّم - فإنّ الجهاز العصبــي لن ينضج ولن يشفى.

هكــذا، بالــرغم من أنني كنت أزداد قوةً يوماً عن يوم في دار الــنقاهة، وكان بإمكاني أن أقوم بالأفعال نفسها بقوة وسهولة متزايدة أبــداً، إلا أنني لم أستطع أن أقوم بأي شيء مختلف، أو جديد. تطلّب هــذا دوماً تدخّلاً من شخصٍ آخر، وقد اتّضح هذا بشكلٍ لافت جداً عــندما حــان الوقت كي "أرتقي"... إلى عكّازة واحدة، ومن ثمّ إلى عصا لاحقاً.

كان هناك جرّاح شاب رائع ومتفهّم بصورة خاصة، وكان يزور دار النقاهة ثلاث مرات في الأسبوع. كان رجلاً يفهم معاناة المريض، ويمكن للمريض أن يتواصل معه. لقد سألته يوماً عن هذا (كان **بإمكاني** أن أســاله ســؤالاً كهذا، بينما لم يكن بإمكاني أن أسأل جرّاحي في المستشفى عن أي شيء).

أجــاب: "الأمــر بسيط. لعلّك خمّنت الإجابة. **لقد مررت أنا نفــسي بهــذه التجربة**. كانت لدي ساقٌ مكسورة... **أعرف كيف يكون الأمر**".

هكذا، عندما قال السيد أموندسن أنّ الوقت قد حان كي أرتقي، وأتخلّــى عن عكّازة واحدة، فقد كان يتكلّم بسُلطة؛ السلطة الحقيقية

الوحـــيدة النابعة عن التجربة والفهم. صدّقته. كنت واثقاً به. ولكنّ ما اقترحه كان مستحيلاً.

تمتمت: "هذا مستحيل. لا يمكنني أن أتخيّله".

"ليس عليك أن تتخيّله. عليك فقط أن **تفعله**".

مشجِّعاً نفسي على النهوض، ومرتجفاً بالتوتُّر، حاولت، وتعثّرت علـــى الفـــور وســـقطت منبطحاً على وجهي. حاولت مرة أخرى، وسقطت منبطحاً مرة أخرى.

قال: "لا تقلق. ستنجح... سترى". وقد "نجحت" لاحقاً في ذلك اليوم، ولكنني نجحت في **حلم**.

كـــان في هذا الوقت أن تلقّيت مكالمةً هاتفية من صديق. أخبرني أنـــه ســـتُقام ذكرى سنوية في دار العبادة وستمنستر الكبيرة لويستان أودن، وســـألني إن كان بإمكاني الحضور. كنت دوماً معجباً بأودن، ورغبت في الحضور. كما أنني شعرت بواجبٍ تقديم احتراماتي الأخيرة إليه. احتدم الصراع في داخلي ولكنّ الفزع انتصر:

قلـــت: "أنـــا آسف جداً. كنت سآتي طبعاً لو كان الأمر ممكناً جسدياً. لكن في هذه المرحلة، أخشى أنه غير وارد كلياً. كنت أتمنى لو كـــان بإمكاني الحضور، ولكن لا مجال للتفكير في ذلك". نعم، كانت تلك هي الكلمات التي استخدمتها.

في صباح اليوم التالي جاءت المعالِجة الفيزيائية لرؤيتي، ورأت على طـــاولتي التجارب الطباعية لمقال كنت قد كتبته عن أودن، وعلّقت: "قـــيل إنه كان احتفالاً مؤثّراً للغاية في دار العبادة. ستخبرني كل شيء عنه. لا بدّ أنك كنت هناك".

كـــنت مشدوهاً. بدا أنّ عالمي العقلي يهتزّ. تمتمت: "ولكن، لم أستطع أن أذهب".

سألت: "لِمَ لا؟".

"لقــد دُعيت، وأردت أن أذهب، ولكنّ ذلك كان غير وارد، لا مجال للتفكير فيه".

صاحت: "غير وارد! لا مجال للتفكير فيه؟ **بالطبع** كان بإمكانك أن تــذهب. كان يجب أن تذهب. ما الذي أوقفك بحقّ الله؟ ما الذي يمنعك من الخروج؟".

يــا الله، لقــد كانت محقّة! من الذي منعني، ما الذي منعني؟ أي هــراء تفــوّهت به حين قلت "لا مجال للتفكير فيه". في اللحظة التي تكلّمــت فــيها وقالت "لم لا؟" اختفى عائق كبير، بالرغم من أنني لم أفكّر فيه كعائق، بل مجرد "لا مجال للتفكير فيه". هل كنت "ممنوعاً"، أو هل كان "التخيُّل مُضعَفاً؟".

مهما كان، لقد حرّرتني كلماتها، وقلت: "سأخرج في الحال!".

أجابت: "جيد. وفي الوقت الملائم أيضاً".

بــسرعة، ومــن دون تفكير بالعواقب، خطوت بخطوات واسعة خــارج الــبوابة وأعلى التلّة إلى هايغيت. رائع! مبهج! مشيي الأول خارجاً. حتى هذا المشي، هذه اللحظة، كان المشي خارجاً "غير وارد". كــنت قد شعرت بنفسي نــزيلاً ومريضاً ولم يكن بإمكاني أن أتخيّل شيئاً غير هذا. كنت عاجزاً كلياً عن اتّخاذ هذه الخطوة الحاسمة. كانت كلماتهــا "لم لا؟" بمــثابة الحافز الذي جعلني أخطو للخارج في العالم الواسع.

وجدت مطعماً صغيراً أعلى تلّة هايغيت، ودخلت إليه بجرأة ومن دون تردّد.

قالت النادلة: "لقد نجحت. لقد نجحت أخيراً في القدوم إلى هنا".

سألتها مندهشاً: "هل تعرفينني؟".

قالـــت: "لا أعرفك شخصياً. **ولكنني أعرف طبيعة الأمر**. أنتم النـــــزلاء في دار الـــنقاهة تجلـــسون فيه إلى أن تصبحون مستعدّين للانفجار، وفجأة تنفجرون بالفعل، ويأخذكم الانفجار إلى أعلى التلّة الـــشديدة الانحـــدار إلى هايغيت، ومباشرة إلى هذا المطعم، من أجل وجبتكم الأولى خارجاً!".

قلت: "نعم، أنت محقّة تماماً".

مـــن ثمّ طلبت لنفسي ليس إبريقاً من الشاي فحسب، بل وليمة حقيقية للاحتفال بتحرّري.

قالت النادلة: "جميعهم يفعلون ذلك!".

"هم جميعاً"، "أنتم جميعاً"، ما الذي يهمّني؟ لقد سرّني بالفعل أنني تـــصرّفت كما فعل العديد قبلي. لقد جعلني هذا أشعر بأنني أقلّ بعداً، أقلّ غربةً، أو "تفرّداً": لقد وضعني في الأخدود المشترك، بين الآخرين، وجعلني جزءاً من العالم.

طلـــبت كل شيء تقريباً على لائحة الطعام - من الخبز المحمّص وسمـــك الأنشوفة إلى كرات اللحم والمرنغ - وكل شيء كان رائعاً... طعـــام الحب نفسه (موسيقى فمويّة). لقد حُرِمت من العالم لأكثر من ســـتة أســـابيع. كـــنت تواقاً له، وشعرت به كوليمة. ومع كل لقمة طعـــام - وقد أكلت ببطء وبشكلٍ هائل، وبشكرٍ وتبجيل - شعرت أنـــني كنت جزءاً من تلك الوليمة... من العالم. كان الطعام والشراب مباركاً. كانت وليمة مباركة.

منذ تلك اللحظة لم يعد يُوقفني شيء. أصبحت أخرج باستمرار، ووقعت في حبّ العالم، واستعملت التاكسيات بشكلٍ مبالَغ فيه مثل ملك زائـــرٍ من بلدٍ آخر. لقد كان هذا هو ما شعرت به إلى حدٍّ ما: رجلٌ، ملكٌ منفيٌّ لفترةٍ طويلة، يلقى ترحيباً رائعاً وملكياً من العالم الذي كان

عائــداً إلــيه. أردت أن أعانق الأبنية المألوفة العزيزة. أردت أن أعانق الغــرباء الذين صادفتهم في الشارع. أردت أن أعانقهم وألتهمهم مثل وجبتي الأولى في المطعم الصغير، لأنهم هم أيضاً كانوا جزءاً من الوليمة الرائعة. لا بدّ أنني ابتسمت وضحكت كثيراً، أو لعلّي نشرت السعادة والحــبّ في كل مكانٍ حولي، لأنني تلقّيت الكثير في مقابل ذلك. لقد شعرت بهذا على نحوٍ خاص في المقاهي حول هامبستيد. كانت مقاهي رائعــة بهيجة مزدحمة مع حدائق وظُللٍ في الشمس الدافئة، والناس فيها مــن أكثــر الناس أنساً وتجانساً في العالم. أما عكازتاي (احتجت إلى كليهما لركوب التاكسيات والنــزول منها)، وجبيرتي، فقد لعبت دور جواز سفر عالمي. كان يُرحَّب بــي، ويُهتم لشأني، أينما ذهبت. وقد أحبــبت ذلــك، أنا الذي كنت منطوياً جداً وخجولاً جداً. وجدت نفــسي أغــني، وألعــب لعــبة السهام المريشة، وأخبر قصصاً مثيرة، وأضحك.

في كل مكان، وفي نفسي، اكتشفت حماسةً رابلية. كانت حماسةً شــديدة ولكــنها احتفالية وبسيطة تماماً. لكن أيضاً، وبالقدر نفسه، سعيت وراء طرق الحياة الفرعية غير المطروقة كثيراً، مثل فُرجة هادئة، أو مشي تحت ضوء القمر، من أجل التأمُّل. أردت أن أشكر الله، بكل طريقة: في الصخب وفي الهدوء، مع الناس ووحيداً، مع الأصدقاء ومع الغرباء، في الفعل وفي التفكير. كان ذلك الوقت انفعالياً للغاية، ولكنه بــدا لي وقتاً صحياً، من دون هوس أو مرض. أحسست أنّ المرء يجب أن يجد العالم على هذا النحو، وأن يعرف حقيقة العالم إذا لم يكن مُتعباً أو فاقداً للأمل. شعرت بابتهاج وبراءة المولود من جديد.

إذا كانــت هــذه هي "الحقيقة"، أو الطريقة التي يجب أن تكون علــيها الأمور، فكيف يمكن للإنسان أن يجد العالم **رتيباً**؟ وتساءلت ما

إذا كـــان ما يصفه المرء عادةً بأنه "طبيعي" كان في حدّ ذاته نوعاً من الـــرتابة، وإماتـــة الحـــسّ والروح، إن لم يكن بالفعل إغلاقاً حقيقياً لأبـــوابهما. بالنسبة إلى نفسي الآن، وقد حُرِّرت، وأُعتقت، وخرجت من الليل المعتم والهاوية، كانت هناك نشوة من النور والحب والصحة.

شـــعرت أنّ أزمـــةً عميقة قد حدثت في حياتي، وأنني من الآن فصاعداً سأكون محوَّلاً بشكلٍ عميق ودائم. سآخذ القليل على أنه أمرٌ مسلّم به، بل لعلّي لن آخذ شيئاً بالفعل كأمرٍ مسلّم به. سأجد الحياة، وكـــل الوجـــود، كأثمن النعم، المحفوفة بالخطر بلا حدود، والتي يجب تقديرها والاهتمام بها لأبعد الحدود.

كان يوم الاثنين، السابع من تشرين الأول/أكتوبر – ستة أسابيع بعـــد عمليّتي الجراحية – هو اليوم المحدّد لعودتي إلى المستشفى لفحصي وإزالـــة الجـــبيرة نهائـــياً إذا كان كل شيء على ما يرام. لم أشعر بأي خوف، لأنني عرفت أنّ كل شيء كان على ما يرام بالفعل، وقد أردت أيضاً أن أرى جرّاحي الذي أبغضته مرةً وفريقه في جوٍّ حبّي.

حـــدث هذا بسعادة ومن دون مشاكل. وجد السيد سوان نفسه أمـــام مـــريضٍ مبتسمٍ وممتنّ، لم يُظهر شيئاً غير الدماثة والأسف لحنقه السابق. لم يكن بإمكانه إلا أن يستجيب بلطفٍ لكل هذا، بالرغم من أنّ اســـتجابته اتّـــسمت بالخجل والتحفّظ. ابتسم ولكن ليس كثيراً، وصـــافح يـــدي ولكـــن ليس بحرارة، وكان أنيساً ولكن ليس ودّياً. وتعجّـــبت من كرهي السابق له، لأنه لم يكن جديراً بالبغض بأكثر مما كـــان جديراً بالحب: كان رجلاً نـــزيهاً، هادئاً، محترفاً، ومتحفّظاً. لم أشكّ لحظةً بمهارته التقنية، ولكنه كان متضايقاً بحقيقة العواطف القوية، وعاجزاً عن الإيفاء بالمتطلّبات العاطفية، أو على الأقل بمتطلباتي العاطفية القـــصوى الناشئة عن كربـــي. والآن، لقد تلاشى كربـــي، وسكنت

مخـــاوفي، **وتحـــسّنت**، ولم يعد لديّ متطلبات، وقد أسعده هذا كثيراً، وسمح بابتسامة باهتة. وكما تغيّرت صورته عندي، فقد تغيّرت صورتي عـــنده حـــتماً. تخيّلته يتحدّث مع "الفريق" لاحقاً ويقول: "ليس سيئاً الدكـــتور ســـاكس هذا. هو عاطفي قليلاً بالطبع، وكان مزعجاً في المستشفى، ولكن يُحتمَل أنه كان وقتاً عصيباً بالنسبة إليه. لا أحبّذ أنا نفسي أن أكون في ذلك الوضع. ولكنه رائع الآن، أليس كذلك؟ تبدو الـــساق ممتازة. كل الأمور خير إذا انتهت على خير". بهذه الكلمات، سيصرفني من ذهنه.

نعـــم، بالفعـــل، بـــدت ساقي رائعة عندما أُزيلت الجبيرة. لقد اكتـــست باللحم بشكلٍ جذّاب، بالرغم من أنها كانت لا تزال أرفع (وأبـــرد نـــوعاً ما) من الساق الأخرى، وكان النَّدْب الجراحي ملتئماً بشكلٍ رائع وأنيق، وكان جذّاباً أيضاً بطريقته؛ وخاصةً إذا فكّرت فيه كـــندب قتالٍ بطولي. لم يكن هناك أي من النفور الذي صدمني للغاية قـــبل أربعـــةِ أسابيع. كانت الساق حية بوضوح، وحقيقية بوضوح، ولحمـــية بوضـــوح، وتخصّني بشكلٍ واضح مع شيء من الغموض أو الغـــرابة في الـــركبة فقط. ولهذا كنت متفاجئاً نوعاً ما عندما وجدت الجلـــد خَدِراً؛ خدراً تماماً، ومُخدَّراً، في كل المنطقة التي كانت الجبيرة تغطّيها. لم يكن خدِراً عميقاً - بدا الاستقبال الحسّي العميق من داخل أنسجة الجسم طبيعياً (وهو ما انسجم مع الإحساس الطبيعي والمألوف للساق) - بل كان خدِراً شديداً وسطحياً.

خـــلال عودتي إلى كينوود في سيارة الإسعاف، حككت الساق ودلّكـــتها بيديّ، وفي أثناء فعلي لذلك، في أثناء تنبيهي الجلد وأجهزته الحـــسّية، عاد الإحساس للساق تدريجياً، إلى أن اكتمل **تقريباً** في نهاية الـــرحلة الـــتي استغرقت ساعة. لم أكن واثقاً إن كان الخدِر هو نتيجة

للحرمان من الإحساسات العادية داخل الجبيرة، أو نتيجة لضغط الجبس نفسه. لكنني اكتشفت أنّ مرضى آخرين قد شعروا بالخِدر نفسه، سطحياً، وعابراً، وغير مهم على ما يبدو. كان فقد الإحساس العميق مختلفاً تماماً وشديداً...

أقول "تقريباً"، لأنّ هناك منطقة على الطرف الخارجي لفخذي وركبتي، لم تستجب لتحفيزي وبقيت من دون إحساس من أي نوع. وقعت هذه المنطقة حيث قُطِعت الفروع الجلدية للعصب الفخذي في العملية الجراحية.

مع إزالة الجبيرة، بقيت هناك مشكلة أخيرة: إحداث بعض الحركة في الركبة، التي بدت صلبة بشكلٍ غير قابلٍ للحركة، ومتحجِّرة امتداداً بواسطة كتلة ضخمة من النسيج الندبي. كان عليّ أن أقضي نصف ساعة يومياً لأجعل الركبة تنثني قسراً، محاولاً أن أحلّ وأُضعِف الندب الصلب الليفي.

بعد اثني عشر يوماً، غادرتُ كينوود، ناقهاً مثالياً قُدِّر أنه مؤهّلٌ للعالم. كنت قد أحببت الدار وكوّنت علاقات حقيقية مع الآخرين، وكان الوداع تجربة مؤلمة ضجّت بمعناها الأصلي والحقيقي. لقد قطعنا الرحلة معاً، ربما لفترة قصيرة من الحياة ولكنها عميقة، وتشاركنا في مشاعرنا بمودة وصدق نادرَين. والآن كنا نفترق ليذهب كل منا في طريقه، متمنّين لبعضنا بعضاً النجاح في رحلة الحياة.

لقد عرفت سعادةً عظيمة وسكينة عظيمة في كينوود، ولكنها كانت فترة راحة فاصلة في الحياة، وكان لا بدّ لها أن تنتهي. لم أكن قد استعدت وظيفة ساقي بالكامل، وشعرت أنني بحاجة إلى رأي ثانٍ من جرّاح عظام متمرِّس سينظر إليّ بعينين نضرتين ويسديني النصيحة للمستقبل.

اتصلت بالدكتور و.ر. في هارلي ستريت الذي قال إنه سيراني في اليوم التالي.

قـــدّمت نفـــسي آملاً، ولكن من دون أي توقّعات خاصة. كان رجـــلاً أنيـــساً متورّداً جعلني أشعر على الفور بالارتياح، واستمع إليّ بانتـــباه موجِّهاً لي بين الحين والآخر سؤالاً ذكياً. لقد أعطاني الانطباع بأنـــه كـــان مهتمّاً **بـــي** كشخص بقدر ما هو مهتمّ بـــي كمشكلة، وبـــدا أنّ لديـــه كل الوقت في العالم، بالرغم من أنني عرفت أنه كان واحـــداً من أكثر الأطباء المقصودين في إنكلترا. استمع إليّ بتركيز تامّ وكياسة، ومن ثمّ فحصني بشكل سريع ورسمي ومفصّل.

قلت لنفسي، هذا أستاذٌ في عمله: سأستمع إليه كما استمع إليّ.

قـــال: "تجـــربة فـــريدة حقاً دكتور ساكس. هل فكّرت أبداً في تحويلها إلى كتاب؟".

شعرت بالإرباك، والإطراء، وأخبرته أنني فكّرت في ذلك فعلاً.

تابـــع حديثه: "هذا الشعور بالنفور من الساق، وبأنها أجنبية هو أمرٌ شائع. غالباً ما أراه في مرضاي، وأحذّرهم مُسبقاً".

وفكّرت: لقد كان أستاذاً بالفعل. هل كانت الأمور ستختلف لو كان **هو** جرّاحي؟

"في حالـــتك، كان الشعور بالنفور والغربة أسوأ بالطبع، بسبب الاخـــتلال العميق في الاستنباه الذاتي. لا يزال بإمكاني أن أوضّح هذا عند الركبة، بالرغم من أنها لم تعد عَرَضية. ولكنك قد تختبر أعراضاً إذا ضـــغطت الـــساق بقوة أكثر مما ينبغي. سيكون عليك أن تعتمد على تقديرك لسنة على الأقلّ.

"الآن، في ما يتعلّق بمشيتك، وفي ما يتعلّق بركبتك، أنت تمشي كما لو كانت ساقك لا تزال في الجبيرة. أنت تحرِّك ساقك بتصلُّب، وكأنما لا

ركــبة فيها. ومع ذلك، لديك 15 درجة من الانثناء بالفعل؛ ليس كثيراً، ولكنه يكفي. يكفي لتمشي بشكلٍ طبيعي إذا **استعملت** ركبتك فقط".

أومأت برأسي موافقاً.

"لمــاذا تمشي وكأنما لا ركبة لديك؟ لعلّها عادة – فهكذا مشيت بوجود الجبيرة – وأعتقد أيضاً أنك قد "نسيت" ركبتك، ولا تستطيع أن **تتخيّل** كيف هي طريقة استعمالها".

قلــت: "أعرف هذا. أنا نفسي أشعر بذلك. ولكن لا يبدو أنني أســتطيع استخدام ركبتي بطريقة متعمّدة. ففي كل مرة أحاول ذلك، تبدو حركتي خرقاء، وأتعثّر".

فكّــر للحظة، ثمّ قال: "ما الذي تحب فعله؟ ما الشيء الذي تحبّه بطبيعتك؟ ما نشاطك الفيزيائي المفضّل؟".

أجبت من دون تردّد: "السباحة".

قــال: "جــيد. لــديّ فكرة". كانت هناك نصف ابتسامة على وجهــه، عابثة نوعاً ما. أضاف: "أعتقد أن خطتك الأفضل أن تذهب للسباحة. هل تعذرني لدقيقة؟ عليّ أن أجري مكالمة هاتفية".

عاد بعد دقيقة، وقد أصبحت ابتسامته أكثر وضوحاً.

قال: "ستكون سيارة الأجرة هنا بعد خمس دقائق. ستأخذك إلى حوض السباحة. سأراك في مثل هذا الوقت غداً".

وصلت سيارة الأجرة، واقلتني إلى أحواض سباحة سيمور هول. استأجرت منشفة وسروال سباحة، وتقدّمت مرتجفاً إلى جانب الحوض. كان هناك عامل إنقاذ شاب، يجلس متسكّعاً بجانب لوح الغوص، وقد نظر إليّ متحيّراً وقال: "ما الأمر؟".

قلت: "لقد أُخبرت بأنني يجب أن أسبح. أخبرني الطبيب بذلك. لكنني عاجز. لقد خضعت لجراحة، وأنا فزِعٌ نوعاً ما".

أنهـــض عامل الإنقاذ نفسه، ومال ناحيتي ببطء وفتور. بدت على وجهه نظرة عابثة وقال فجأةً "هيا تسابق!"، في الوقت نفسه الذي أخذ فيه عصاي بيده اليمنى ودفعني بيده اليسرى.

وجـــدت نفسي في الماء، حانقاً، قبل أن أستوعب ما حدث، ومن ثمّ كان للوقاحة والاستفزاز مفعولهما. أنا سبّاح جيد - "سبّاح بالفطرة" - وقد كنت كذلك منذ طفولتي؛ منذ أن كنت لا أزال في المهد بالفعل، لأنّ والدي وهو بطل سباحة قذفنا في الماء ونحن بعمر ســتة شـــهور، حين تكون السباحة غريزية ولا حاجة إلى تعلّمها. شـــعرت أنّ عامل الإنقاذ يتحدّاني. قسماً بالله، سأريه! وعلى نحوٍ مستفزّ، بقي العامل أمامي على مسافة قصيرة فقط، ولكنني حافظت علـــى سباحة سريعة لأربعة أطوال أولمبية، وتوقّفت فقط لأنه صاح بـــي "توقّف!".

خـــرجت مـــن حـــوض السباحة، ووجدت أنّ مشيتي أصبحت طبيعية. كانت الركبة تعمل الآن، وقد "عادت" كلياً.

عـــندما زرت الدكتور و.ر في اليوم التالي، ضحك ضحكة كبيرة وقال: "رائع!".

سألني عن التفاصيل، وأخبرته وكانت ضحكته أكبر هذه المرة.

قال: "شاب جيد! لقد قام بالأمر بالطريقة الصحيحة تماماً".

أدركـــت حيـــنها أنّ المـــشهد كله، السيناريو، كان فعله **هو**، واقتـــراحه **هـــو**، وأنـــه قد أخبر عامل الإنقاذ بما ينبغي عليه أن يفعله بالضبط. وانفجرت ضاحكاً أنا الآخر.

قال: "أفضل طريقة. تبدو أنها تنجح دوماً. ما يحتاج إليه المرء هو العفـــوية، أن يتمّ التحايل عليه ليقوم بالفعل"، ثمّ مال نحوي وأضاف: "هل تعرف أنّ الأمر نفسه ينجح مع كلب!".

كرّرت قوله وأنا أطرف بعينيّ بغباء: "كلب؟".

أجاب: "نعم، كلب. لقد حدث ذلك مع كلبتي الترير عندما كسرت ساقها السخيفة. وقد عالجتها وشفيت تماماً، ولكنها لم تكن لتمشي إلا على ثلاث سيقان فقط، مستغنيةً عن الساق المكسورة التي نسيت كيف تستعملها. واستمرت كذلك لشهرين، رافضةً أن تمشي بشكلٍ صحيح. لهذا فقد ذهبت إلى البحر حاملاً هذه الكلبة اللطيفة الغبية معي، ورميتها فيه على مسافة من الشاطئ وتركتها تسبح عائدة. وقد سبحت بتغديف قوي متناسق، ومن ثمّ عَدَت على طول الشاطئ **على سيقانها الأربع**. العلاج نفسه في كلتا الحالتين؛ عدم التوقّع، والعفوية، يستثيران فعلاً طبيعياً بطريقةٍ أو بأخرى".

كنت مسروراً للغاية بهذه القصة، وبالدكتور و.ر بشكلٍ عام. كما كنت مسروراً إلى حدٍّ ما لأن تتمّ مقارنتي بكلب، ووجدت أنني أفضّل ذلك كثيراً على وصفي بكلمة "فريد". وقد ذكّرتني هذه القصة بشيء يتعلّق بالطبيعة الجوهرية للروح الحيوانية والحركة الحيوانية، وبالعفوية، والموسيقية، والحركة.

العفوية! كان هذا هو الحلّ! ولكن كيف يمكن للمرء أن يخطّط العفوية؟ لقد كان ذلك تناقضاً في المصطلحات. كان واضحاً بشكلٍ هزلي أنّ العفوية والهزل يشكّلان جوهر نظرية الدكتور و.ر وممارسته العلاجية: إيجاد نشاط ما يكون طبيعياً ومفيداً، وبمثابة تعبيرٍ عن إرادة تجد سروراً في حدّ ذاتها؛ "*condelectari sibi*"، بكلمات دونس سكوتاس. لقد سألني: "ما الذي تستمتع بفعله؟ ما الذي يمنحك السرور؟"، كان علاج الدكتور و.ر "سكوتاسياً" أساساً، وقد وصل حدسياً إلى وجهة النظر القائلة إن كل الوظيفة مُتضمَّنة في الفعل، وبالتالي، فإنّ الفعل هو

المفـــتاح لكل العلاج، سواء أكان فعلاً هازلاً، أو جاداً، أو متهوِّراً، أو عفوياً، أو موسيقياً، أو مسرحياً. المهمّ أنه فِعل.

ذهبت في اليوم التالي إلى حوض السباحة المحلّي في كيلبورن، وهو الحـــوض الذي قذفني فيه والدي قبل أربعين سنة. سبحت فيه سباحةً "سكوتاسية" مُبهجةً وسارةً للغاية بحيث كان بإمكاني أن أستمرّ للأبد؛ ففي النشاط المبهج، مقارنة بالنشاط المجهد، ليس هناك دافع ولا إنهاك، بـــل مجرد سرور واسترخاء. عندما خرجت من الحوض أخيراً، منتعشاً من دون إنهاك، رأيت الحافلة التي أريدها تنعطف عند الزاوية. مستجيباً مـــن دون تفكـــير، عدوت خلفها، وأدركتها، وقفزت إليها وصعدت الـــسلالم. كـــان هنا انتصاران آخران لسكوتاس: لم أكن أعرف أنني أســـتطيع الـــركض أو القفـــز، ولو أنني حاولت ذلك متعمّداً لكنت أخفقت. بالفعل كنت قد قلت لنفسي في ذلك الصباح بحزن: "يمكنك أن تمشي يا عزيزي، ولكنك لن تركض أو تقفز ابداً".

في مـــساء يـــوم الجمعة، ذهبت إلى قاعة رقص كريكلوود، حيث راقـــبت بسرور الراقصين يرقصون، مقارِناً شعوري البهيج في هذه اللحظة بذاك الشعور البغيض قبل خمسة أسابيع عندما أشحت بوجهي ببغض عن لاعبـــــي كـــرة القـــدم الصغار في هايغيت. أحسست برغبة شديدة في الـــرقص، ولكنني ما كنت لأجرؤ على فعل ذلك لولا أنّ راقصَين أمسكا بذراعيّ، وأجبراني على مشاركتهما في رقصهما الإيقاعي. لم يكن عليّ أن أفكّـــر. لم يكـــن لـــديّ قرارٌ لأتّخذه. وجدت نفسي فقط وسط حركة مبهجة، وإرادة طبيعية قبل أن أستوعب ما كان يحدث.

نمت حتى ساعة متأخّرة في صباح اليوم التالي، ولم أستيقظ إلى أن دخل أخي وهو يقول: "إليك رسالة من صديقك البروفيسور لوريا في موسكو".

تـناولت الرســالة منه، وأنا أرتجف إثارةً. كان قد مضى سبعة أســابيع مــنذ أن كتبت إلى لوريا، شاعراً أنه الوحيد الذي سيفهم ما كتبت. شعرت بالخوف عندما مرّت الأسابيع من دون أن أتلقّى جواباً مــنه، لأنه كان دوماً يجيب على الفور عندما أكتب إليه (ولكنّ تأخّره في الردّ كان مبرّراً، فقد كان في إجازته الصيفية). ماذا سيقول؟ سيقول بالفعــل ما يعتقده، لأنه لا يعرف الرياء، كما لا يعرف الفظاظة. هل ســيقول، بلطف، أنني كنت هستيرياً، أو مجنوناً؟ فتحت الرسالة، وأنا خائفٌ من أفكاري الخاصة.

نعم، نعم، يا الله، لقد صدّقني! لقد صدّق ما كنت أقوله، ووجده "غايــةً في الأهمية!". وجد ملاحظاتي مدهشة، في الوقت نفسه مترابطة منطقــياً بشكلٍ جوهري: ذلك الترابط الذي سيتوقّعه المرء، بالنظر إلى الــوحدة الوظيفــية للكائن الحيّ. واعتقدَ أنني كنت بالفعل "أكتشف حقلاً جديداً" وأنه من الضروري أن أخبر قصتي.

آه، يــا لها من رسالة! الرسالة الأكثر جمالاً، وتفهّماً، وكرماً في العالم! رسالة تحية وتوكيد عميق. رسالةٌ أرضت أمنياتي الأعمق والأعزّ، وخاصةً لأنها - أي أمنياتي - كانت مترسّخةً في الواقع: تصبح الأمنية والحقيقة في العلوم، والفلسفة، وحبّ الحقيقة، شيئاً واحداً.

مفعمــاً بالــسعادة، وجدت نفسي أمشي إلى المرج. كان مرج هامبستيد هو ملعبــي وأرض أحلامي في الطفولة؛ المكان المفضّل لكل ألعاب طفولتي وخيالاتي. وكمراهق وشاب، وقعت في حبّه من جديد، حــيث كنت أتمشّى وأتحدّث، برزانة أكثر، مع أصدقائي طوال اليوم. والأهــمّ ربمــا، أنّ مرج هامبستيد كان لاحقاً المشهد للنــزهات التأمّلــية الطويلة، التي أصبحت فيها خيالات الطفولة أحلامَ الشاب ونظرياته العلمية.

مـــشيت إلى بارليمـــنت هيل، إحدى أعلى النقاط المشرفة على مـــشاهد جميلة في جميع الاتجاهات. وفكّرت في كلّ ما حدث معي في الأســـابيع التسعة الماضية؛ المغامرة الهائلة التي أشرفت على نهايتها الآن. لقـــد رأيـــت أعماقـــاً وقممـــاً لا تُرَى عادةً. لقد أمعنت النظر فيها، واستكشفتها، كونها تمثّل الحدود القصوى للتجربة. الآن، كنت بطريقة ما أعود إلى الأرض، لأعيش حياة طبيعية وعادية أكثر، من دون شدائد وتجلّـــيات الأســـابيع الماضية. شعرت بهذا كخسارة. كانت مغامرتي تنتهـــي. لكنني أدركت أنّ شيئاً هاماً جداً قد حدث، وأنه سيترك أثره ويغيّرني، بصورة جازمة، من الآن فصاعداً. لقد اختُصرت حياةٌ كاملة، وكـــونٌ كامـــل، في هذه الأسابيع القليلة: كثافةٌ من التجربة لا تُعطَى لمعظـــم الرجال، ولا يُرغب بها من قِبَلهم. ولكنها تجربة ستعيد تنظيمي وتوجيهي كونها حدثت معي.

كـــتب لوريا: "يؤسفني ما حدث معك، ولكن إذا حدث شيء كهذا، فلا يمكن إلا أن يُفهَم ويُستعمَل. ربما كان قدرك أن تمرّ بتجربة كهذه، وبالتأكيد هو واجبك الآن أن تفهم وتستكشف... حقاً، أنت تفتح وتكتشف حقلاً جديداً".

VII. الفهم

إنّ حقيقة الأشياء هي وراء كل اكتمالها الحي، وفي يومٍ من الأيام، ومن وجهة نظر شاملة أكثر مما كان مُتاحاً لأي أحد في جيل [سابق]، ستصل الأجيال اللاحقة المُغناة بغنائم كل أبحاثنا التحليلية، إلى تلك الطريقة الأعلى والأبسط للنظر إلى الطبيعة.

ويليام جيمس

الفهم

توقّـــف التفكير واستراح الباحث خلال أسابيع النقاهة السعيدة. كـــنت أتعافى يومياً، وكنت نشيطاً. كنت أبتهج في العالم، في حالةٍ لم تعد إشكالية.

لكـــنّ معنى المشكلة - المشاكل العديدة التي واجهتني - كان مؤجّلاً فقـــط، لقـــد اتّضح لي تماماً عندما استلمت رسالة لوريا. ففي حين قال الجـــرّاح لي: "ساكس، أنت فريد: لم أسمع أبداً أي شيء كهذا من مريضٍ قـــبلاً"، فإنّ لوريا كتب لي: "إنّ رسالتك تجمع معاً في وحدة متكاملة ما سمعـــتُه في أجزاء على مدى الخمسين عاماً الفائتة..." تساءل عن السبب وراء عـــدم تقديم تجارب كهذه إلا نادراً، وما عساه يكون الأساس لتجربةٍ كهـــذه؟ "إنّ الجسم وحدةٌ من الأفعال، وإذا جُرِّد جزء منه من الفعل، فإنه يصبح 'غريباً' ولا يُشعر به كجزءٍ من الجسم". لقد قال إنّ هذا موصوف بـــشكلٍ جيد في الإصابات الدماغية، وخاصةً إذا أثّرت على النصف الأيمن للكـــرة الدماغـــية، في الفصّ الحسّي (أو الجداري). لقد ضرب مثلاً على ذلـــك مـــتلازمة بوتزل التي يتمّ فيها، نتيجة لسكتة دماغية أو ورم، تجاهل النـــصف الأيـــسر مـــن الجسم أو جزء منه، ويُشعر به كأجنبـــي أو غير حقيقي. كانت هذه بالفعل هي فكرتي الأولى، وهي أنني لا بدّ قد عانيت مـــن سكتة دماغية أثناء التخدير. لكن بالكاد تمّ وصف متلازمات كهذه على أنها نتيجة لاضطّراب أو تلف **محيطي**.

لكن بالرغم من ذلك، فإنّ المرء، وفقاً للوريا، قد يتوقّع جداً هذه الظواهـــر السلبية - النفور، الشعور بالوهمية، اللامبالاة، قلة الانتباه -

على أساس محيطي، لأنّ "الكائن الحيّ هو نظام متكامل"، وبالتالي يمكن أن يُظهر تعطُّلاً في النظام سواء أكان الاضطّراب الأصلي مركزياً أو محيطياً. لكنّ الأطباء والجرّاحين وأطباء الأعصاب قد لا يكونون "منفتحين" لشكاوى كهذه من مرضاهم، وقد يكون من الصعب على مرضى كهؤلاء أن يكشفوا مشاعرهم: المريض قد لا يتكلّم، والطبيب قد لا يسمع. وبالتالي قد يتطلّب الأمر مريضاً استثنائياً - كأن يكون هو نفسه طبيباً وعالماً نفسياً عصبياً - لإظهار الطبيعة الكاملة للاضطّراب التجريبي.

زوّدت رسالة لوريا بدعمٍ وتشجيعٍ حاسم، كما فعلت الرسائل العديدة الأخرى التي كتبها إليّ لاحقاً، وعزّزت القرار الذي اتّخذته في المستشفى للبدء ببحث استقصائي في السؤال كله. أثناء وجودي في المستشفى، كنت مريضاً، مرتبكاً وخائفاً، أجاهد لأتقبّل أزمتي الشخصية على ما هي عليه. الآن يمكنني أن أصبح طبيباً وباحثاً مستقصياً. كنت طبيب أعصاب في مستشفيات عديدة، وكان تحت رعايتي عدة مئات من المرضى العصبيين المصابين بتنوّعٍ أقصى من الاضطّرابات والأمراض. سأقوم بعمل أبحاث غاية في الدقة بشأن هؤلاء المرضى؛ أبحاث سريرية تستند إلى الحوار والفحص الفيزيائي، وأبحاث فسيولوجية تستند إلى مستودعٍ من التقنيات الفسيولوجية الكهربائية: دراسات للجهد الكهربائي في العضلات والأعصاب المتلفة (أو المعطّلة)، ولما يُسمّى دراسات "الجهد الكهربائي المُستثار" في الحبل الشوكي والدماغ، وتحديداً للقشرة الجسدية الحسّية، أو "المحطة الأخيرة" في الدماغ، حيث النشاط العصبي يُنظّم لتشكيل "صورة الجسد" المحسوسة.

لا أعتقد أنني كنت سأبدأ بحثاً من هذا النوع لولا إصابتي وتجربتي الخاصة. تركّزت اهتماماتي السابقة في اتجاهات أخرى مختلفة

تماماً: الشقيقة، الباركنسونية، متلازمات بعد التهاب الدماغ، متلازمة توريت. لم أكن لأهتمّ باضطّرابات صورة الجسد لولا أنني اختبرت شخصياً مثل هذا الاضطّراب في شكله الأعمق. ولكن كوني اختبرته، وكوني أخطأت فهمه كلياً، فقد كنت مهتماً بحماسة لأن أصل إلى حقيقة الأمر، وأن أرسِّخ من خلال دراسات سريرية وفسيولوجية ما حدث فعلياً، وأن أصل، إذا أمكنني ذلك، إلى فهم أساسي له. ألم يكن، كما كان قد قال لوريا: "حقلاً جديداً بالكامل"؟

إذا كانت تجربتي الخاصة قد لعبت دور المحفّز، فستلعب أيضاً دور المؤهِّل الخاص جداً للمهمة. لأنه خلافاً لطبيبي الخاص، ولمهنة "البيطري" بشكلٍ عام (كما دعاها لوريا)، يمكنني الآن أن أفتح نفسي بالكامل لتجارب مرضاي، وأن أدخل تخيُّلياً في تجاربهم وأكون متقبِّلاً و"مُنفتِحاً" في مناطق الفزع هذه. سأستمع إلى مرضاي كما لم أفعل أبداً مَن قبل. سأستمع إلى كلامهم المتمتَم نصف الملفوظ بينما يسافرون عبر منطقة عرفتها أنا نفسي جيداً.

لم أكن أعرف في ذلك الوقت ما إذا كان أحدهم قد سبقني في هذا المجال، ولم يكن إلا بعد سنوات أن اكتشفتهم. أصف هذه الحالة الغريبة في مقالٍ نُشِر في **نقد لندن للكتب** (vol.4, no.11, 1082):

> **لم أصبح مدركاً لأي رواية مماثلة لروايتي إلا بعد أكثر من ثلاث سنوات من حادثتي. وجدت حينها، في تتابعٍ سريع، ثلاث روايات مماثلة: رواية وير ميتشيل المستندة إلى تجاربه خلال الحرب الأهلية الأميركية، ورواية بابنسكي - كتاب كامل - المؤلَّفة خلال الحرب العالمية الأولى، ورواية ليونتف وزابوروزيتس المستندة إلى تجاربهما مع 200 جندي في الحرب العالمية الثانية... وبالرغم من أنّ جميع هؤلاء المؤلّفين كانوا بارزين للغاية ومنشوراتهم في**

غاية الأهمية، إلا أنني لم ألتقِ أبداً بأي أحد سمع بأعمالهم، ناهيك عن قراءتها. وهذا النسيان الغريب يمتد ليشمل المؤلّفين أنفسهم. فوير ميتشيل "تسى طرفه الشبحي السلبي"، وبابنسكي "تسى متلازمة الفسيولوجيا المرضية(*)"التي تحدّث هو نفسه عنها، ولوريا "تسى" عمل ليونتف، بالرغم من أنه ألهِم بواسطته وأُهدِي فعلياً إليه.

رواية وير ميتشيل هي حالة مثيرة للاهتمام بصورة خاصة. كطبيب أعصابٍ شاب عمل مع مبتورين في الحرب الأهلية الأميركية، قام ميتشيل بنشر "قصة سريرية" عنوانها **حالة جورج ديدلو**: سجل حالة خيالية وتخيّلية بشكلٍ رائع لطبيبٍ عانى من بتر أطرافه كلها. يكتب الطبيب المريض الخيالي، جورج ديدلو، ما يلي:

وجدت لفزعي أنني كنت أحياناً أقلّ إدراكاً لنفسي، ولوجودي، مما أنا عليه عادةً. كان الإحساس غريباً جداً بحيث إنه أربكني... ومدركاً جداً كم يمكن أن أبدو سخيفاً، فقد أحجمت عن الكلام عن حالتي، وسعيت جاهداً باهتمام لتحليل مشاعري... كانت، بأفضل ما أستطيع أن أصفها، نقصاً في العاطفة الأنوية للفردية.

يتابع ديدلو ليعزو هذه المشاعر، الخلال العميقة والخاصة لما ندعوه الآن بصورة الجسد وأنا الجسد، إلى "الصمت الأبدي... للعُقَد العصبية الكبرى التي تخدم الأطراف". من الطريف أنّ وير ميتشيل قد نشر هذا كقصة سريرية قبل أن يجازف وينشر أوصافه الطبية الشهيرة للأطراف الشبحية. لعلّه شعر أنّ عامة الناس، والقرّاء التخيليين، قد يتأمّلون في أمورٍ ستُرفَض من قِبَل زملائه الأطباء على أنها توهّمية.

**) تحدّث بابنسكي هنا عن "مجال ثالث" - ليس هستيرياً ولا "عضوياً" بالمعنى التقليدي (التشريحي العصبي) - وإنما نتيجة للصدمة والتثبيط المنتشر للآليات الشوكية والمحيطية، اضطراب عميق فسيولوجي بعد صدمي. وقعت "فسيولوجيتي المرضية" الخاصة ضمن هذا "المجال الثالث" على ما يبدو.

درستُ على مرّ السنوات حالات حوالى 400 مريض، مكمِّلاً الحوار والفحص السريري، إن أمكن، بتصوير المرضى على الفيديو، وبدراســات فسيولوجية كهربائية. من بين هؤلاء المرضى، كانت ســيدة مــسنّة هي نموذج لمرضى عديدين، عانت من ساقٍ يسرى متــرهِّلة ومــشلولة. ظننتُ للوهلة الأولى أنها قد عانت من سكتة دماغية، ولكن تبيّن في ما بعد أنها قد تعرّضت لكسرٍ معقّد في الورك تطلّب بالإضافة إلى الجراحة جموداً طويلاً للساق في جبيرة. لم تستعد هذه السيدة أي استعمال للساق أو أي شعورٍ بها، بالرغم من مرور ثــلاث سنوات على عمليتها الجراحية. لم تكن هناك إصابة عصب تشريحية، وكانت هناك سرعات توصيل طبيعية في الأعصاب، ولكنّ العضلات كانت متراخيةً بالكامل وأظهرت "صمتاً كهربائياً" كلياً، مــا يعني غياباً كاملاً لأي تعصيب وظيفي أو وضعي. أما المريضة نفــسها فقــد شعرت أنّ الساق كانت "مفقودة". كانت دراسات الجهد الكهربائي المستثار للقشرة الحسية الموافِقة فارغة، ما أشار إلى غياب معلومات عصبية محسوسة من الساق؛ ثغرة محسوسة في صورة الجــسد (بالــرغم من أنّ الحركات المتعمّدة لم تكن ممكنة، إلا أنه كانــت هــناك أحياناً حركة عفوية أو لاإرادية، مثل نقر القدم في الوقت المناسب استجابةً للموسيقى. وقد اقترح هذا إمكانية العلاج بالموسيقى. لم ينفع العلاج الفيزيائي الطبيعي العادي. ولكننا استطعنا تدريجياً باستخدام أداة إسناد، (مثل هيكلٍ على عجلات، إلخ)، أن نــدفعها إلى الرقص، وتوصلنا أخيراً إلى شفاء كليّ وفعلي للساق، بالرغم من أنها كانت ميتة لثلاث سنوات).

درســتُ أيضاً خمسين مريضاً مصابين باعتلالات عصبية محيطية وخــيمة؛ ضــعف حسّي (وأحياناً حركي) في اليدين والقدمين، ناشئ

غالباً عن إصابتهم بداء السكر. شعر جميع هؤلاء المرضى أنّ أيديهم وأقدامهم كانت مفقودة أو أنها أجزاء أجنبية التصقت بأذرعهم أو سيقانهم. وهنا أيضاً أظهرت دراسات الجهد الكهربائي المُستثار تلفاً وخيماً أو غياباً للمعلومات الإدراكية الحسّية والتمثيل في المناطق الموافِقة من القشرة الحسّية، وفقداً يمكن إثباته بشكلٍ ملموس لصورة اليد والقدم.

عانى مئتا مريض من إصابات، أو مرض، أو خُدار في الحبل الشوكي. وحين شُجِّع هؤلاء المرضى على التكلُّم بحرّية - وهو أمرٌ لا يحدث عادةً في الممارسة العادية لطبّ الأعصاب - أعطى العديد منهم أوصافاً عجيبة لحالاتهم. فبعض المرضى الذين كانت أعناقهم مكسورة - مثل المريض الموصوف من قِبَل هنري هيد (**دراسات في علم الأعصاب**، انظر أدناه) - شعروا بأنهم يتألفون فقط من "رأس وكتفين". تمّ التأكّد بسهولة من فقدٍ كارثي كهذا لصورة الجسد بواسطة دراسات الجهد الكهربائي المستثار.

فحصتُ أعداداً كبيرة من المرضى الذين بُتِر لهم طرفٌ أو أكثر، وعانوا من أطرافٍ شبحية إيجابية، أو سلبية، أو الاثنين معاً. وهنا أيضاً كان لاضطّراباتٍ أو اختلالات صورة الجسد، التي كان بعضها عجيباً ومفزعاً، ارتباط محسوس في اضطّرابات القشرة المستقبِلة والممثّلة.

زوّدت هذه الملاحظات والاستقصاءات العديدة عبر السنوات بإجابة قاطعة للسؤال الأول من أسئلتي: هل الاضطّرابات الوخيمة لصورة الجسد وأنا الجسد تحدث كنتيجة لإصابة، أو مرض، أو اضطّراب محيطي؟ كانت الإجابة "نعم" بصورةٍ قاطعة لا لبس فيها. كانت هذه الاضطّرابات، كما فكّر لوريا، شائعة بالفعل: كانت

شـــائعة، ومحـــتومة تقـــريباً، وربما شاملة، إذا كان هناك تعطيل كافٍ للإحساس المحيطي أو الفعل.

علاوة على ذلك، اقترحت هذه الملاحظات والاستقصاءات إجابةً للنصف الثاني من السؤال: إذا كانت هذه الاضطّرابات شائعة بالفعل، فلمـــاذا لم يتمّ وصفها على نحوٍ شائع أكثر؟ متيحاً لمرضاي أن يتحدّثوا بـــشكلٍ كامل وصريح، غير مقيّدين بأي تعليم خاص بعلم الأعصاب، حصلتُ مراراً وتكراراً، على أوصاف ذات شدةٍ عاطفية ووجودية، لا يمكـــن إيجادهـــا أبداً في المنشورات الخاصة بعلمِ الأعصاب. يعاني كل مريضٍ من اضطّراب وخيم في صورة الجسد، يعاني من اضطّراب وخيم بالقـــدر نفسه في أنا الجسد. لقد أصبح واضحاً بازدياد أنّ كل مريض كهـــذا يختـــبر تجـــربة وجودية عميقة، مع انحلال أو تدمير أو إبطال للوجـــود، في الأجزاء المصابة، يترافق مع توهّم ونفور جوهريين، وقلق ورعـــب جوهريين بالقدر نفسه. ويتبع هذا، إذا كان المريض محظوظاً وتعافى، إحساسٌ جوهري أيضاً بالفرح واستعادة الإدراك. إنّ كل تجربة كهذه هي *experimentum suitatis* (تجربة مع النفس)، باستخدام مصطلح القرون الوسطى، ما يعني تعديلاً جوهرياً للهويّة أو "الذات"، ذا أساس عضوي عصبـــي واضح تماماً. كم كان علم الأعصاب، وهو حقـــل تجريبـــــي، مجهّزاً ليأخذ في الاعتبار تغييرات جذرية كهذه في الحقـــيقة أو الهويّة؟ وإلى أي مدى أمكنه أن يجيز لتجارب كهذه أن تمرّ بسلام؟

يـــستند علـــم الأعصاب التقليدي على مفهوم الوظيفة؛ الوظيفة الحسّية، والوظيفة الحركية، والوظيفة الفكرية، وهكذا. وقد كان السير هنري هيد (1861–1940) ممثّله الأشهر في إنكلترا. من بين اهتمامات هيد العديدة كان اهتمامه الدائم بطبيعة الإحساس، الذي كان فيه رائداً

مغامراً. كان مصدر بعض ملاحظاته الأولى تجارب أجراها على نفسه، وصــف فيها بتفصيل كبير تأثير قطع عصبٍ حسّي في ذراعه شخصياً. أما مفهومه الأوج من دراساته حول الإحساس فقد كان فكرة المخطط *schema*، أو صــورة الجسد، في الدماغ، التي قد "يعرف" الجسم من خلالهــا حــركاته الخاصة ويتحكّم بها. وقد جُمعت ملاحظاته، التي ســجّلها علــى مدى عشرين عاماً، في كتابه الرائع **دراسات في علم الأعصاب** (1920). ولكن دعنا نرى كيف يصف هيد اضطّراباً حسّياً عميقاً:

> **كــان المــريض عاجــزاً كلياً عن تمييز الموضع الذي وُضِعت فيه ساقاه سلبياً. كانت الحركات الامتدادية ممكنة حتى الكاحل، والركبة، والــورك من دون معرفته. إذا كانت عيناه مغمضتين، فمن الممكن تحــريك الــساقين مــن الموضــع الممتد في أي اتجاه، مع إنثناء الــركبتين حتى أربعين درجة، بينما لا يزال متخيِّلاً أنهما ممدودتان أمامــه علــى السرير. وعندما سُمِح له أن يفتح عينيه، أكّد تعبير وجهه الدالّ على الدهشة على عظم خطأه.**

هــذا وصفٌ جميل. وهو يذكّرني بالضبط بما حدث عندما طلبت مــن الممرّضــة سولو أن تحرّك ساقي. هو صحيح تماماً، ولكن هل هو كاف؟

كانــت لــديّ مريضة تعاني من الحالة المرضية نفسها: انبثاث الخباثة لتشتمل على أعصاب شوكية حسّية عدة، بالترافق مع انهيار بعــض الفقــرات. لكنّ تجرِبتها كانت أكثر غرابةً، وأكثر إفزاعاً وإذهالاً. قالت: "اختفى فخذي! هكذا فقط". إنّ المصطلحات التي يــستخدمها هيد، والتي هي مصطلحات علم الأعصاب التقليدي، تُعتبَر ملائمة تماماً لوصف فقد عميق للوظيفة، ولكنها لا تستطيع أن تــصف "اخــتفاءً" مثل هذا، لأنه ليس مجرّد فقدٍ للوظيفة. قد يتبع

اختفاءٌ كهذا فقد الوظيفة، ولكنه في حدّ ذاته ينطوي على شيء أعقد بكثير.

طالما أنّ هيد يُقصر نفسه على اختبار الوظيفة، وعلى التحدّث بمصطلحات كهذه، فإنّ شيئاً أساسياً، شيئاً استثنائياً، سيغيب عن أوصافه. ولكن دعه ينسى لغته الخاصة بعلم الأعصاب للحظة ويعطينا ببساطة الكلمات الفعلية لمرضاه. في أوقات كهذه (وهي قليلة جداً) يبرز شيء أكثر إذهالاً للغاية. وهكذا نحن نقرأ في كتابه عن المريض الذي شكا من أنّ "ساقه اليمنى بدت عند لمسها كما لو كانت ساقاً فلّينية"، أو الملازم أول و. الذي تحطّم في طائرة، وأدرك أنه قد أصاب عموده الفقري لأنه "شعر أنّ لديه رأساً وكتفين فقط". لا يمكننا أن نقول إنّ هيد لم يُظهر اهتماماً شخصياً بمرضاه. يخبرني والدي الذي كان طبيباً متمرّناً لديه قبل خمسة وستين عاماً أنه كان "مليئاً بالفضول والعطف" ومندهلاً بالتجارب الغريبة التي كان مرضاه يصفونها له. ولكن، كطبيب أعصاب، هو يلغي هكذا تجارب، ولا يتحدّث عنها إلا نادراً أو مصادفةً، ولا يُعطيها أبداً تأكيداً رئيسياً أو اهتماماً. يبدو أنّ هذه هي الحالة أيضاً في علم الأعصاب التقليدي بشكلٍ عام، حيث في سعيه الجاد وراء تأسيس علم وظيفة دقيق، يجب أن يستثني أي ملاحظات خارج مجال الوظيفة. عندما ينسى نفسه، إذا جاز التعبير، فقد يجيز ملاحظات كهذه، ويكون مخلصاً وشفافاً لتجارب المرضى؛ ولكن حالما يعيد تأكيد دقته التجريبية، يصبح عاتماً (أكمدَ) من جديد.

على نحوٍ متناقض، لم يكن إلا في فجره قبل العلمي، قبل أن يُطوَّق أكثر من اللازم بمفاهيمه الخاصة، أن انفتح علم الأعصاب على الخصوصيات الكاملة للتجربة. وهكذا، في الحرب الأهلية الأميركية في

ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر، كان وير ميتشيل متقبِّلاً لفكرة الأطراف الشبحية والانحلالات الوجودية الموصوفة بشكلٍ حي بواسطة "جورج ديدلو". ينقل وير ميتشيل هذه الأعراض في مئات من المرضى. ولكـــن مع نهاية القرن التاسع عشر ودخول القرن العشرين، أصبحت مـــثل هذه الأوصاف نادرة للغاية. ليس في علم الأعصاب مكان لأي شيء وجودي.

في حـــين أنّ علم الأعصاب التقليدي قد احتفظ، ولا يزال، بكل اســـتعمالاته ولا غـــنى عـــنه لدراسة الوظائف "الأدنى"، إلا أنه بات واضـــحاً، تدريجياً، أننا بحاجة إلى مقاربة جديدة، أو علمٍ جديد. وقد أصـــبحت هـــذه الحاجة أزمةً في الحرب العالمية الثانية. إنّ علم النفس العصبـــي الجديد، الذي مُهِّد له في ثلاثينيات القرن العشرين، قد أينع في روسيا السوفياتية، وكان بصورة خاصة نتاج لوريا وأبيه، وليونتف، وبيرنـــشتين وآخرين. لم يكن ممكناً فعل الكثير في الحرب العالمية الأولى لإعـــادة تأهيل المرضى المصابين بإصابات عصبية. تمّ إخضاعهم لعلاج فيزيائي على أمل أنّ الزمن، والطبيعة، سيلعبان دوراً في تحسّنهم. كانت الحاجـــة إلى "عـــلاج عصبي" عقلاني في الحرب العالمية الثانية هي التي أدخلـــت علـــم النفس العصبـــي إلى حيّز الوجود، وأنتجت مفاهيم تجـــاوزت مفهـــوم الوظيفة. فقد وُجِد أنّ المرضى الذين كانوا مصابين دماغياً وعصبياً بطرقٍ أخرى، كانوا يختبرون صعوبات غريبة في الفعل. هدفَ علم النفس العَصبـــي لأن يكون علم الفِعل، ومفهومه الرئيسي لم يكن الوظيفة بل "النظام الوظيفي" و"الأداء".

كـــان علـــم الأعصاب التقليدي جامداً أساساً: كان نموذجه نموذج مراكز ووظائف ثابتة. أما علم النفس العصبـــي فهو حركي أساســـاً: حيث يرى أنظمة لا تُعدّ ولا تُحصَى في التفاعل المستمرّ.

كتب لوريا: "الكائن الحي هو نظام متكامل"، وهذه هي عقيدة علم النفس العصبـــي. والصورة التي تظهر هي صورة آلة ديناميكية رائعة وذاتـــية التنظـــيم، وقد كان واضع نظريتها الأشهر، بيرنشتين، هو المؤسّس الحقيقي لعلم الضبط (السبرانية)، قبل نوربيرت وينر بخمسة عشر عاماً.

في هـــذه الآلـــة العظـــيمة، هناك "برامج"، و"انطباعات دائمة"، و"صـــور داخلـــية"، و"مخطّطات"؛ طرائق لفعل الأشياء، أو إجراءات، قابلة للتحليل وللمعالجة إلى حدٍّ ما. في حين أنّ علم الأعصاب التقليدي يـــرى، على نحوٍ عاجز، "الوظيفةَ المختزلة"، فإنّ علم النفس العصبـــي يعـــيّن، على نحوٍ بنّاء، النظام المصاب، أو التفاعل بين الأنظمة، ويحاول أن يعـــيد التأهيل بتطوير نظامٍ جديد، أو نظامٍ للأنظمة، أتاحته "حرية" أو "لدونة" الجهاز العصبـــي. بالتالي فإنّ القوى النظرية والعملية المقدَّمة هـــي هائلة. ومع ذلك، فإنّ هذا، على نحوٍ لا يُصدَّق، بالكاد مدرَكٌ في الغرب.

هـــناك كتاب ثوري أشرت إليه بإيجاز هو **إعادة تأهيل اليد** بقلم ليونتف وزابوروزيتس. لم ألتقِ أبداً زميلاً لي قرأ هذا الكتاب بالرغم من أنّ تـــرجمته الإنكليزية نُشِرت في العام 1948. يصف الكتاب متلازمة، مشابهة لما حدث معي، مع 200 جندي بأيد مصابة ومُعالَجة جراحياً. بالرغم من التكامل التشريحي والعصبـــي، على الأقلّ في ما يتعلّق بعلم الأعصاب التقليدي، كان هناك في كل حالة أسىً عميق وعجز. كانت الأيدي المُعالجة عديمة النفع، وبدت "غريبة" لمالكيها، مثل أشياء أو "أيدٍ زائفة" ملتصقة بمعاصمهم. يتحدث ليونتف وزابوروزيتس هنا عن "بتر داخلي" عائد إلى "انفصال الأنظمة المعرفية *gnostic*" التي تتحكّم عادة في الأيدي وتؤكّدها كنتيجة لتعطّلها بسبب الإصابة أو الجراحة. بالتالي

فإنّ هدف العلاج هو إحداث إعادة تكامل للأنظمة المعرفية "المنفصلة". كيف يتمّ فعل هذا؟ **باستخدام الأيدي**. ولكن لا يمكن القيام بهذا مباشرةً أو عمداً (لو كان هذا ممكناً، فإنّ الانفصال ما كان ليحدث أساساً). إنّ الأوامر لتحريك اليدين هي "عديمة المعنى"، وفاشلة. المطلوب هنا نوع من "الحيلة"؛ على سبيل المثال جعل المريض ينهمك في نشاط معقد تشترك فيه اليد بشكلٍ غير مقصود. يتمّ خداع الطرف الأجنبي، إذا جاز التعبير، ليعمل، من خلال كونه جزءاً من النشاط المعقد ومشاركاً فيه. في اللحظة التي يحدث فيها هذا - وهو أمرٌ مفاجئ نموذجياً - فإنّ الإحساس "بعدم حقيقية" الطرف "وبأجنبيته" يتلاشى، وتبدو اليد فجأةً حية وحقيقية وتصبح جزءاً من الجسم وليس شيئاً "ملحقاً" به.

كل هذا مشابه جداً لما حدث معي، ولما ألاحظه في مرضاي وما أحاول أن أنجزه. إنّ الحقيقة الأساسية المحتواة في إجراءات سيكولوجية عصبية كهذه يتمّ إظهارها بحقيقة أنها تنجح بشكلٍ جيد جداً. ومع ذلك يجب على المرء أن يتساءل ما إذا كانت المفاهيم مناسبة، وما إذا كانت الإجراءات ستفشل لأنها تجاوزت المفاهيم.

كما ينسى هيد نفسه أحياناً ويسجّل من دون تعليق تجارب بعض المرضى - أنّ سيقانهم تبدو عند لمسها مثل الفلّين، أو أنهم يتألفون فقط من رأس وكتفين - فكذلك معظم الأقسام الحية من كتاب ليونتف وزابوروزيتس عبارة عن تسجيل لتجارب فعلية؛ لأيدٍ تبدو "أجنبية"، و"ميتة"، و"غير حقيقية"، و"ملتصقة". أما التحليلات والصيغ فهي أقلّ إقناعاً بكثير. هناك ازدواجية غريبة، وتباينٌ، في الكتاب: لأنّ الصيغ آلية، وتحليلية، وسبرانية، ومُصاغة كلياً بألفاظ تتعلّق "بالأنظمة"، بينما تجارب المرضى الموصوفة وأفعالهم تتعلق بالأنا، والنفس. إذا كانت يدٌ

"أجنبية"، فهي أجنبية بالنسبة **إليك**. وإذا تمّ القيام بفعل، **فأنت** من يقوم به. ولكن "أنت"، أو "أنا" التي هي ضمنية في كل مكان يتمّ إنكارها أو رفضها رسمياً وبشكلٍ صريح. ومن هنا نشأت الازدواجية الفكرية الغربية للكتاب، والازدواجية الفكرية الغربية لعلم النفس العصبي بشكلٍ عام.

إنّ "الكائن الحي هو نظام متكامل"، ولكن ما هو النظام بالنسبة إلى نفسٍ حية حقيقية؟ يتحدّث علم النفس العصبي عن "صور داخلية"، و"مخطّطات"، و"برامج"، إلخ. ولكنّ المرضى يتحدثون عن "تجربتهم"، و"شعورهم"، و"إرادتهم"، و"فعلهم". إنّ علم النفس العصبي هو علم حركي، ولكنه لا يزال تخطيطياً، بينما الكائنات الحية، أولاً وأخيراً، لديها نفس، وهي حرّة. لا يعني هذا إنكار اشتراك الأنظمة، بل يعني أنّ النفس تحوي الأنظمة وتسمو عليها.

يهدف علم النفس العصبي، مثل علم الأعصاب التقليدي، لأن يكون موضوعياً بالكامل، وقد نشأت قوته العظيمة وتقدّمه من كونه كذلك. ولكنّ الكائن الحي، وخاصة الإنسان، هو **فاعلٌ** أولاً وأخيراً. وما استُثنِي هنا هو الفاعل بالضبط، أو "الأنا" الحية. إنّ علم النفس العصبي مثير للإعجاب، ولكنه يستثني **النفس**؛ يستثني الأنا المجرِّبة والحية والفاعلة. لا شكّ أنّ لوريا نفسه قد شعر بهذا بشدة، وهو ما يتّضح في جميع أعماله، وخصوصاً الأخيرة منها. كتب لي مرة أنه شعر أنّ من واجبه أن يكتب نوعين من الكتب: كتب "منهجية" (مثل **الوظائف القشرية الأعلى في الإنسان**)، وما أحبّ أن يدعوه السِّيَر العصبية أو الروايات، المركّزة على "الأنا" الفاعلة والمعانية (**الرجل ذو العالم المحطّم، وعقل المتذكّر**). أما أعماله الأولى فقد كانت موضوعية كلياً، ولكنه في سنواته الأخيرة، ومن دون أي تضحية بالموضوعية أو

الدقـــة، قـــدّم الفاعـــل أكثر وأكثر في المركز. وقد شعر أنّ هذا كان ضـــروريـاً حـــتماً، وأنّ المرء يجب أن يدخل بالكامل في التجربة الفعلية للمريض، وأن يتجاوز المقاربة "البيطرية" البحتة.

لقـــد رأينا أنّ التجارب الشبيهة بالتجربة التي مررتُ بها هي شائعة، وحتى عامّة. وقد رأينا أيضاً أنّ الطبيعة الموضوعية والتجريبية لعلم الأعصاب تحول دون أي اعتبارٍ للفاعل، أو الـــ"أنا". لا بدّ أن يحدث شيء، شيء جذري تماماً، إذاً أردنا أن نتجنّب هذا التناقض، وهذا المأزق. كما أنّ الوقت مؤاتٍ تماماً للقيام بهذه الخطوة التالية. لقـــد أسسّ علم الأعصاب التقليديّ نفسه - أُسِّس في عشرينيات القرن العشرين - وسيكون دوماً ذا أهمية ثابتة. وأسّس علم النفس العصبـــي نفسه - أُسِّس في خمسينيات القرن العشرين - وسيكون دوماً ذا أهمية ثابتة. ما نحن بحاجةٍ إليه الآن، وفي المستقبل، هو علم أعصاب للنفس، والهويّة.

هناك دلائل كثيرة جداً على أنّ الوقت مؤاتٍ الآن لعلم أعصاب كهذا. نشأت أزمة في علم الأعصاب الدماغي، وخاصةً خلال الخمس عـــشرة ســـنة الفائتة (ثمانينيات القرن العشرين). يعالج كتاب لوريا، **الوظائـــف القـــشرية الأعلى**، المنشور أساساً في العام 1960، الأنظمة الوظيفـــية للنصف الدماغي الأيسر بشمول، ولكنه بالكاد يتطرّق لتلك الخاصـــة بالنصف الأيمن. إنّ طريقة الوظائف القشرية الأعلى لا تنطبق على النصف الدماغي الأيمن. هناك ألف ورقة بحث علمي عن النصف الدماغـــي الأيـــسر مقابل كل ورقة عن النصف الأيمن، ومع ذلك فإنّ الاضـــطّرابات والاخـــتلالات تحـــدث بنفس القدر في الاثنين. ولكنّ متلازمات النصف الأيمن، مثل متلازمة بوتزل، هي غريبة للغاية، وتتّخذ علـــى وجـــهٍ معهود شكل تغييرات في الهويّة. وهذه التغييرات هي غير

قابلـــة للتحلـــيل كاضطرابات تتعلّق بالوظيفة أو النظام؛ يجب أن ترى كاضـــطراب للـــنفس. إنّ إدراكنا بقصورنا وحاجتنا يتّضح أكثر فأكثر.

هذه الأزمة التي نشأت في ثمانينيات القرن العشرين تذكّر على نحـــوٍ غـــريب بأزمة أخرى حدثت قبل مئتَي سنة. بلغت الفلسفة التجريبية، التي شُكّل نموذج علمنا التجريبـــي على أساسها، أوجها مـــع هيوم، لأنه من خلال تركيزه الأقصى عليها، دفع بها، وبنفسه، إلى تناقض عميق.

أنـــا أتجـــرّأ وأؤكّـــد... بأننا لا شيء سوى حزمة أو مجموعة من إحـــساسات مخـــتلفة تتبع بعضها بعضاً بسرعة لا يمكن تصوُّرها، وبتدفّق وحركة دائمَين.

ونتـــيجةً لـــذلك دُفِع هيوم إلى استنتاج أنّ "الهويّة الشخصة" عـــبارة عـــن خيال. ولكنّ استنتاجه كان متناقضاً مع كل مشاعره الأعمق: أطلق على استنتاجه هذا اسم "الوهم"، وقد قاده إلى "يأسٍ فلسفي".

حُـــلَّ هـــذا اليأس، أو هذه الأزمة، في العام 1781، عندما نشر كانْـــت *Kant* كـــتابه **نقد التفكير المنطقي المحض**. وقد حُلَّ يأسي، وحُلّـــت أزمـــتي، عندما قرأت **نقد التفكير المنطقي المحض**. كنت قد اختبرت تجربةً "للنفس" لا يمكنني إنكارها، ولكنّ علم النفس العصبـــي رفـــض النفس وليس فيه مكانٌ لها. وقد قادتني هذه الأزمة إلى كانْت. ووجـــدت هـــنا ما لم يستطع التحليل أن يعطيني إياه؛ مفهوم الحدس التركيبـــي **البديهي** الذي أجاز ونظّم التجربة وجعلها منطقية: الحدس **البديهي** للمكان والزمان، الذي استطاع أن ينظّم التجربة ويدعم أنا أو نفـــساً مجرِّبة. وقد زوّدتني هذه الصيغ، أو هذا ما اعتقده، بالأساس لما

توصّلت إلى تسميته بـ "علم الوجود السريري" أو "علم الأعصاب الوجودي"، وهو علم أعصاب النفس، في حالتَي الانحلال والتكوين.

كانت فقرتي الأساسية في كتاب **النقد** هي:

ليس الزمان إلا الشكل الداخلي للإحساس، أي لحدس أنفسنا وحالاتنا الداخلية. لا يمكن أن يكون تحديداً لمظاهر خارجية. لا يمكن أن تكون له علاقة لا بالشكل ولا بالموقع، بل... بحالاتنا الداخلية... المكان، باعتباره الشكل المحض لكل الحدس الخارجي، يصلح فقط كالشرط البديهي للمظهر الخارجي... الزمان هو الشرط الفوري للمظاهر الداخلية (لأرواحنا)، وبذلك هو الشرط المتوسط للمظاهر الخارجية.

تُوحِّد التجربة الطبيعية، بمصطلحات كانْت، المظهر الخارجي والحالات الداخلية، وتوحّد الحدس الخارجي والداخلي، كما توحّد المكان والزمان. ولكن ما كنت مهتماً به بصورة خاصة، من تجربتي الخاصة وملاحظاتي، كان إمكانية تجربة مختلة جذرياً تفتقر ربما إلى الحالات الداخلية، أو المظاهر الخارجية، أو كليهما. وبدا لي أنّ مثل هذا التشوّهات في التجربة هي التي شكّلت جوهر تجربتي الخاصة، وجوهر كل التجارب المضطّربة التي وصفها مرضاي. كانت مثل هذه التجارب، أو التشوّهات الجوهرية في التجربة، غامضةً إلى أن تمّ توضيحها بصيغ كانت.

إنّ **العُتمة**، بمصطلحات كانْت، كانت بمثابة انطفاء وجودي عصبي أقصى. كان هناك، فيزيائياً وفسيولوجياً، غيابٌ لنبض العصب، والصورة والحقل. ولكن من الناحية الميتافيزيقية (الغيبية) كان هناك غيابٌ للتفكير المنطقي، ولتركيبَيه، المكان والزمان. بدا "الارتعاش" - مثل هذيان الصوَر المنفصلة للساق الذي اختبرته، أو التفكّك السينمائي "اللازماني" لنسمة (أورة) ألم نصف الرأس - كنوعٍ

مـــن حالةٍ متوسّطة، سواء في بناء أو هدم الحقيقة، وعليه فقد تألّف من مظاهر خارجية منفصلة خالية من أي جوهر أو تعبير في الزمن. وعلى نحوٍ متباين، فإنّ الموسيقى، بالرغم من عدم وجود أي علاقة لها بالمظاهر الخارجـــية، كانت النموذج البدئي نفسه للجوهر، والوجود الداخلي، والروح.

وقد كان هنا في الموسيقى – التدفّق المتواصل للحالات الداخلية، وللـــزمن الداخلـــي "البرغـــسوني" النافذ وغير القابل للانقسام – أن اتّضحت الطبيعة الغامضة **للفعل**. قد يقول المرء، على نحوٍ متناقض، أنّ المـــتابعة لا يمكـــن أن تُختزَل إلى "إجراءات"، وأنّ الفعل لا يمكن أن يُختـــزَل إلى أي تـــتابع أو سلسلة من "العمليات". كانت المتابعة أو الفعل عبارة أساساً عن دفق: دفق معبِّر وفني يجب أن يُشبَّه بلحن. ومن دون هذا الدفـــق الحـــي، هذا اللحن الحركي والتعبير، من دون **الوجود** الذي أطلق نفسه وعبّر عنها، لا يمكن أن يكون هناك فعل، ولا مشي، على الإطلاق. كانت هذه هي "الإجابة" للمشي هو الحلّ *solvitur ambulando*.

إنّ الطبـــيعة الجذريـــة والحـــيّة للتصرّف والفعل، حتى لأبسط الحركات وأكثرها "حيوانية"، تجد توافقها وبرهانها في ما يحدث إن هي سُـــلبت: **العُتمة** بما تعنيه من انطفاء جذري، وعدمية، و"موت". ومع ذلـــك، فقـــد بدا هذان الأمران – الوجود والعدم – مستعصيَين على الفهـــم، بشكلٍ فريد وحتى هزلي، على الأقل في حوارٍ عملي "طبي". وهكـــذا نـــشأت الأزمة الغريبة بين الجرّاح وبيني، عندما تحدّثت عن الأمـــر: "ذاك ليس شأننا". "شأن من إذاً؟" أي نوعٍ من الشؤون كانه بالفعل، هذا الشأن المتعلّق بالفعل، وبالوجود، وبالعدم؟ كان على المرء أن يختبر نفسه من الداخل – الانهيار الجذري للفعل، والانهيار الجذري للتجـــربة، والانهـــيار الجذري "لفئتيهما"، المكان والزمان الجوهريين –

لـــيرى أي نوعٍ من الشؤون هو. لقد كان ببساطة شأناً "كانتياً" (نسبةً إلى كانْت).

إنّ الانطفـــاء الجـــذري، أو الانحلال، الذي اشتملت عليه **العُتمة**، والـــتجدُّد الجـــذري للمكان والزمان الذي اشتمل عليه الشفاء، والطبيعة الجذريـــة المتسامية لكليهما، لم يكن بالإمكان فهمها إلا بصيغة كانتية. لم يكـــن بالإمكان فهمها من خلال علم الأعصاب التقليدي أو علم النفس العـــصبـــي لأنّ هذين كانا عِلْمَين تجريبيَين "قبل كانتيَين". إنّ العلم الذي يحـــتاج إليه المرء، إن كان يريد أن يستكشف المدى الكامل من التجارب التي قد يختبرها المرضى، لا بدّ أن يكون علماً "كانتياً" متسامياً.

كانـــت هذه هي النقطة التي كنت قد وصلت إليها وختمت بها كتابـــــي السابق **استفاقات** *Awakenings*، في صيغته وطبعته الأخيرة (1983). وبالرغم من أنّ الحقل والظواهر كانت مختلفة جداً، فإنّ هذه هي النهاية التي أصل إليها هنا.

ومـــع ذلك، فإنّ كل هذا الذي يبدو، بطريقة ما، متناقضاً جداً وعسيراً على الفهم، هو أبسط وأوضح شيء في العالَم. فهو ليس بأكثر ولا بأقـــلّ مـــن اكتشاف، أو إعادة اكتشاف، الموقف الفعلي للمرء، والأساس الفعلي لتجربته. يكتب كانت: "... يملك الحدس التركيبـــي بداهـــةً الطبيعة الغريبة التي تُجيز التجربة نفسها التي هي أساس برهانه، وفي هـــذه التجـــربة يجب دائماً أن يُفترَض هو نفسه مسبقاً". إذاً، بهذا المعـــنى، كـــان لوصولي إلى كانْت وإلى العلم "الكانتي" خاصية الحنين، والتذكّـــر، والعودة إلى ما شعر به المرء دوماً وعرفه بطريقةٍ أو بأخرى. وهكذا وجد العقل في النهاية راحته وبيته.

وهكـــذا كـــان لديّ إحساسٌ برحلة هائلة تمّ اجتيازها وإتمامها. واقفاً على بارليمنت هيل في اليوم الأخير لشفائي، كان لديّ شعورٌ، أو

إلمـــاع، بصور ذهنية غريبة، امتدّت أماماً إلى المستقبل غير المتخيَّل، وفي نفـــس الوقت بدا أنها تمتدّ خلفاً وصولاً إلى أفكاري ومشاعري الأولى. إذاً، لقـــد قادت رحلتي إلى الأمام والخلف على حدّ سواء، ولكن يبدو أنّ هذه هي طبيعة التفكير، حيث يقود إلى نقطة ابتدائه الخاصة، البيت السرمدي للعقل.

ونهاية كل استكشافنا
ستكون الوصول إلى حيث بدأنا
ومعرفة المكان للمرة الأولى.

(إليوت)

تعقيب 1991

تعقيب 1991

في كانون الثاني/يناير من العام 1984 - كنت قد أكملت في هذا الشهر المخطوطة الطويلة لكتاب **أريد ساقاً أقف عليها** - ابتُليت بسقطة أخرى، كانت هذه المرة في مزراب جليدي. في هذه المرة مُزِّق وتر العضلة الرباعية الرؤوس في ساقي **اليمنى**، بالإضافة إلى إصابتي بخلع في كتفي اليمنى. وفي هذه المرة لم يكن هناك انتظار طويل للموت على جبل، ولا رحلة طويلة عبر الأرض والبحر، بل جراحة فورية بعد أقلّ من ساعتين من الحادثة.

كنت قد طلبت في العام 1974 أن تُجرى لي العملية تحت تخدير شوكي، وقد طلبت الأمر نفسه الآن، ولكن في هذه المرة أُجيب طلبي. عندما بدأ تأثير المخدِّر فقدت كل الإحساس في ساقيّ، وفي النصف السفلي من جسدي. فقدت كل الإحساس بأنّ ساقيّ ووركيّ، اللذين كان بإمكاني رؤيتهما في مرآة فوق طاولة الجراحة، كانا "لي" بأي معنى. أحسست أنني كنت، بمعنىً جوهري ما، "متوقّفاً" في الوسط، وأنّ ما تمدّد على الطاولة، وانعكس في المرآة، لم يكن **لي**. كان نصفي السفلي، إذا جاز التعبير، قد "بُتِر" بالكامل، ولم يعد حاضراً لإدراكاتي الحسّية، ولإحساسي بالنفس. ليس معنى هذا أنني شعرت به كما لو كان مفقوداً. بل على العكس من ذلك: لم يكن لديّ أي إحساس بأنّ هناك أي شيء "مفقود"، وإنما إحساسٌ بالاكتمال، بالاكتمال المتواصل، كما كنت تماماً. شعرتُ كما لو أنه لم يكن **لديّ** أبداً ساقان أو وركان أو ردفان أو نصف سفلي، كما لو أنّ كل هذا الجزء مني كان غائباً منذ ولادتي.

كنت منذهلاً أكثر مني مرتعباً بهذه التجربة، لأنها كانت متطابقة مع الغربة التي اختبرتها قبل سنوات مع ساقي الأخرى، وأيضاً لأنني عرفت أنّ الأمـــور ستعود إلى طبيعتها عندما يزول تأثير المخدِّر. ومع ذلك، كان هذا الـــتوقُّع ضعيفاً ونظرياً على نحوٍ غريب، لأنّ المرء في هذه الحالة لا يستطيع أن **يتخـــيّل** رجوع نصفه السفلي، ولا يستطيع أن **يتذكّر** كيف هو الأمر أن يكـــون "كـــاملاً". كمـــا أنّ الجزء الأجنبـــي من جسم المرء لا يبدو **مفهـــوماً** على الإطلاق. يضع التخدير الشوكي المرء في هذه الحالة التي لا يمكن تصوّرها، ولم يسعني إلا أن أفكّر في أنها حالة ملائمة لقرّاء **أريد ساقاً أقف عليها**: دعهم جميعاً يخضعون لتخديرٍ شوكي، ويقرأون الكتاب وهم تحت تأثير المخدّر، وسيعرفون **حينها ما** كنت أتحدّث عنه بالضبط!

عـــندما أُزيلـــت ساقي اليسرى، قبل سنوات، للمرة الأولى من جـــبيرتها، رأيتها "رائعة وعديمة الحياة مثل نموذج شمع جميل من متحف التـــشريح"، وهـــذا ما بدت عليه كلتا ساقَيّ الآن في المرآة فوق طاولة الجـــراحة. راقـــبت الجـــراحة بـــنوعٍ من السرور الجمالي، وإحساسٍ بالانفـــصال والتحرُّر الكامل: لم تكن **ساقي** تلك التي كانت خاضعة للجراحة، بل"نسخة مطابقة" من نوعٍ ما لا علاقة لها بـــي إطلاقاً(*).

لم تكـــن الرضّـــة في ساقي اليمنى ضخمة كما كانت في إصابتي الأولى. لم تكـــن هـــناك أي علامة على أي إصابة جسيمة في العصب الفخذي، وكانت الجراحة بشكلٍ عام أسهل وأبسط، ولم يمرّ أكثر من

(*) لم يـــسعني إلا أن أتـــساءل كيف يكون الوضع بالنسبة إلى النساء وهنّ يضعن حملهن تحت تأثير التخدير الشوكي، وما إذا كان هناك أي شعور بالغربة يمكن أن يرتبط بالأطفال المولودين تحت ظروف كهذه؛ عدم الإحساس بهم كجسد حـــيّ مـــن جسد المرء نفسه، بل كجسدٍ لاحيّ من جسد أحد آخر. ورأيتُ الحكمـــة في الولادة تحت تأثير مخدّر أخفّ وأقل إبطالاً للإحساس، مثل تخدير فوق الجافية، الذي يخدِّر جزئياً فقط، وليس كلياً مثل التخدير الشوكي.

ساعتين بين الغرزة الأولى والأخيرة. وإضافة إلى ذلك، تمّ إعطائي هيكلاً للمشي، وتعليمات للوقوف والمشي على الساق، في اليوم التالي مباشرة. ولم يسعني إلا أن أقارن وضعي هذه المرة بالخمسة عشر يوماً التي كنت خلالها جامداً بعد الجراحة الأولى، تلك الأيام الخمسة عشر التي قضيتها في عالم النسيان في الكرسي المدولب أو السرير.

وفي اليوم التالي وقفتُ بالفعل وخطوت بضع خطوات وأنا متشبِّثٌ بالهيكل، الذي تحمّل الضغط الكامل لوزني. كانت ستّ خطوات ضعيفة كافيةً لأن تريني أنّ الحالة المفزعة التي أصابتني قبل عشر سنوات لم تحدث الآن. كنت ضعيفاً للغاية، ولكنني عرفت كيف أمشي، وبدت الساق جزءاً مني، ولم أشعر إطلاقاً بأي نفورٍ منها. كان من السهل عليّ الآن، وأنا في السرير، أن أدرِّب الساق، وأُشدّ العضلة الرباعية الرؤوس، وأبنيها من جديد. كان من السهل عليّ، وأنا واقفٌ على ساقي السليمة، أن أؤرجح ساقي الأخرى عند الورك في هذا الاتجاه وذاك، مُبقياً كل العضلات في انسجام تام. وشعرت بقوتي وثقتي تُستردّان في كل ساعة. شجّعتني المعالجة الفيزيائية وكانت مسرورةً بتقدّمي. قالت: "أنت واحدٌ من المرضى الجيدين. لم تعانِ من أي مشاكل".

سألتها: "أي نوعٍ من المشاكل؟ ما هي مشاكل المرضى "السيئين؟"".

قالت: "أوه، لن تصدّق أبداً الأمور التي تحدث معهم... يقول بعضهم إنه لا يستطيع أن يشعر بالساق، وإنها لا تنتمي إليه، وإنه لا يستطيع أن يحرّكها، ونسي كيف يستخدمها". وكرّرت مؤكّدةً: "لن تصدّق ذلك أبداً!".

قلت: "أوه، نعم. أنا أصدّق ذلك"، ومن ثمّ أخبرتها بقصة تجربتي الأولى.

في المـــرة الأولى، وأثـــناء مكوثي في المستشفى في لندن، وجدت مكـــتوباً على جدولي "شفاء خلو من الأحداث الهامة"، بالرغم من أنّ تجـــربتي حينها كانت مليئة بتقلّبات لا يمكن تصوّرها، وتغيّرات نوعية (ووجودية تقريباً) لا يمكن توقّعها، ولا بدّ من اجتيازها واحدة في كل مرة. ولكن لا شيء من هذا حدث في المرة الثانية: لم يُفقَد شيء، ولم يتعطّل عمل شيء، ولم يُنسَ شيء، ولم تكن هناك حاجة إلى تعلّم أي شيء من جديد(*). كان الشفاء في المرة الثانية خالياً بالفعل من الأحداث الهامـــة، ولم يكـــن فيه أي من الظواهر التي ميّزت الشفاء الأول. كان اللغـــز هـــذه المرة هو التالي: لماذا لم تكن هناك أي تغيّرات في الإدراك والـــصورة الداخلـــية لـــساقي؟ لماذا لم يكن هناك أي محوٍ، أو نسيان، لهويّـــتها أو "إرادتهـــا"؟ ما الذي جعل العضلة الرباعية الرؤوس الأولى عضلة "سيئة"، وجعل هذه عضلة "جيدة"؟(*)

(*) تلقّـــيتُ مؤخّراً رسالةً من زميلة لي تصف فيها التأثيرات "غير المتوقّعة كلياً" لما بـــدا أنـــه كسرٌ خلعي بسيط للكاحل. كانت قد افترضت أنّ الشفاء سيكون ســـهلاً؛ اســـترداد فوري لكل الحركات المعقّدة والمهارات التي كانت لديها، بمجـــرد أن يـــصبح هـــذا ممكناً فيزيائياً. ولكن، شدّ ما كانت دهشتها عندما وجدت أنّ الأمر لم يكن بهذه البساطة. فعندما أزيلت الجبيرة عن الساق، بعد أن بقـــيت فيها لأسابيع عدة، وجدت أنها قد فقدت كل أنواع الحركات التي كانـــت سابقاً "تلقائية"، وكان عليها أن تتعلّمها من جديد. شعرت بأنّ فكرة هـــذه الحـــركات قد تلاشت، وأنها يجب أن "تعيد برمجة" دماغها لتتمكّن من تأديتها مجدّداً. هذا بالفعل هو خطر الجمود أو القيد التجبيري: يتمّ في غضون أسابيع فقط نسيان الحركات المعقّدة التي لا تُؤدَّى ولا "تُمارَس" داخلياً، والمرء لا يـــستطيع أن يتخـــيّل حركات مستحيلة فيزيائياً، ومن ثمّ تصبح من الناحية العصبية، أو النفسية العصبية، مستحيلة.

(*) كـــان لوريا قد سألني في العام 1974 ما إذا كانت *يسارية* الساق مهمةً بنظـــري؛ ما إذا كان ممكناً، على سبيل المثال، حدوث متلازمات مماثلة في الـــساق *الـــيمنى*، نتيجةً لإصابة أو جراحة. لم أستطع أن أزوّده بجواب في ذلك الوقت، بالرغم من أنني تذكّرت سؤاله عندما وجدت نفسي بالصدفة

كـــان هناك حدثٌ آخر أثار فضولي واهتمامي في ذلك الوقت؛ اضطّراب مختلف لصورة الجسد، غير متوقَّع، ومُحدَث بشكلٍ مختلف، ولكنه يُلقي بعض الضوء على اللدونة العظيمة لصورة الجسد. كنت قد أُصبت بالإضافة إلى تمزّق العضلة الرباعية الرؤوس بخلع في كتفي اليمنى، لم تــتمّ معالجته بالتجبير، وإنما بضمادة مشدودة بإحكام. ولكن بسبب حاجتي الملحّة لأن أكتب، واعتيادي التامّ على استعمال يدي اليمنى - وحيث وجدت نفسي أكتب ببطء شديد وبكتابة أشبه بكتابة الأطفال باســتخدام يدي اليسرى - فقد أرخيت الضمادة تدريجياً في محاولاتي العنــيفة للكــتابة باستخدام ذراعي اليمنى. ملاحظاً هذا، قرّر الجرّاح تجميد ذراعي كلياً، وتجبير الكتف. وفي غضون بضع ساعات من تجبير الكــتف، نــشأ لديّ أغرب إحساس بانعدام الكتف، إحساسي بأنني فقــدت كــتفاً وجزءاً كبيراً من ذراعي. ولكن، على نحوٍ غريب، لم أســتطع أن **أتذكّر** كتفي وعضدي؛ وشعرت أنهما لم يكونا أبداً جزءاً

بمــثابة مقــياس للمقابلة والتحقّق. استُحثّ سؤاله بحقيقة أنّ المتلازمات الرئيسية لعدم الانتباه والحسّ المتباين والنفور (متلازمة بوتزل، إلخ) تصيب عــادةً الجانب الأيسر من الجسم، وترتبط باختلالات في النصف الدماغي غــير المسيطر، الذي يملك مستوىً متدنياً إلى حدّ كبير من الشعور مقارنة بالنــصف الدماغــي المــسيطر. وقد تساءل إذا كان المستوى الأعلى من الــشعور ســيمنع متلازمة كتلك من الحدوث على الجانب الآخر؟ (انظر الحاشية ص...)

(*) أختــبر أحياناً، كما يفعل آخرون، في عيادة طبيب الأسنان، "اختفاءً" مفاجئاً للفكّ، مع رسوخ تأثير النوفوكايين، حيث يتملّكني شعورٌ بكوني كائناً *لافكّياً* مــشوّهاً علــى نحــو عجيب، ما يدفعني لأن أقبض على مرآة طبيب الأسنان بإحكــام لطمأنــة نفسي. تكون الصورة المنعكسة في المرآة في أوقات كهذه مُطَمئــنة وغــير مُطَمئــنة في الوقت نفسه: يرى المرء الفكّ، ولكنه يبدو غير حقيقَي، وأجنبياً، تماماً كما هو الإحساس به. (من شأن هذا أن يحدث بصورة خاصــة إذا تمّ حقــن المخدّر الموضعي في كلا الجانبين في نفس الوقت، وهو السبب وراء ميل أطباء الأسنان لحقن كل جانب على حدة).

مني، وكأنما ولدت من دونهما. وعندما شكوت من هذا، أزال الجرّاح الجـــبيرة وعاد ثانيةً إلى استخدام الضمادة الأصلية مع تعليمات صارمة باستخدام يدي اليسرى فقط للكتابة. وخلال ساعة أو اثنتين "عادت" كتفي(*).

كـــان الأمـــر كما لو أنّ صورة الجسد يمكن أن تتغيّر، وتكيّف نفـــسها، في غضون **ساعات**، اعتماداً على تحرّكية، واستعمال، وتجربة أجـــزاء الجسم، وأنها ليست تمثيلاً ثابتاً في الدماغ، كما يمكن أن يظنّ المـــرء من رؤية الأشكال التقليدية لما يُسمّى بالقزم الحسي أو الحركي. هل يُعقَل بالفعل، بافتراض البتر أو التعطيل أو تعطيل الجذبان المركزي لطـــرف، أنه إذا تمّ محو جزء من صورة الجسد، فإنّ بقية صورة الجسد تتّسع لتحلّ محله؟

مـــلأت هذه الأفكار - وأفكار قريبة منها - رأسي خلال إقامتي في المستـــشفى في الأيـــام التالـــية للجراحة، وشعرت برغبة شديدة في الإفـــصاح عـــنها. وحيث كنت ممنوعاً من الكتابة بيدي اليمنى، فقد كتبت بيدي اليسرى. ولكنّ بطئي الشديد أثار غيظي ووجدت نفسي أتّـــصل هاتفياً بناشري وأخبره عن حادثتي. قال بسخط: "آه يا أوليفر، ستقوم بأي شيء من أجل حاشية!"(*).

(*) في أواخـــر العام 1983، أرسلت قصةً إلى المجلة الطبية البريطانية لنشرها في قسم "التحف السريرية". أعجبت القصة المسؤولين ولكنهم رفضوها قائلين إنها كانت طـــويلة جداً. وعندما جُمِّدت يدي اليمنى، أرسلت لهم "تحفة سريرية" أخرى، مؤلّفة فقط من خمسين كلمة. وقد دُهشوا بقصرها وقبلوها على الفور. ولكنهم تـــساءلوا كـــيف استطاع شخصٌ مُسهبٌ مثلي أن يكبح نفسه إلى هذا الحد؟ وعـــندما أخبرتهم عن حادثتي وكيف كنت مقيّداً للكتابة بيدي اليسرى، قالوا: "نحن آسفون بشأن حادثتك، ولكن كان لها تأثير السحر على أسلوبك!".

تـــناولت الـــتحفة الأولى، وغيرهـــا من المقالات التي كتبتها بصعوبة في ذلك الـــوقت، الأطراف الشبحية بصورة خاصة (منشورة جميعها في كتاب "الرجل

ولكنني لم أستطع أن أصرف التجربة عن ذهني، بالرغم من أنني أبعدتها إلى منطقة خلفية حيث يمكنها أن تجيش لاشعورياً. كان هناك سؤال "لماذا؟" يراود ذهني باستمرار لعشر سنوات، وهو سؤال لم تتمّ أبداً الإجابة عليه، أو حلّه، بشكلٍ كامل في الكتاب. لم أكن واثقاً أبداً بالنسبة إلى ما "حدث" في العام 1974، ولم أقتنع تماماً بأي من التفسيرات التي قرأتها أو أُعطيت لي. كنت قد عانيت من تلفٍ في العصب الفخذي، ولكنّ هذا يمكن أن يسبّب، على الأكثر، ضعفاً وخدراً **موضعياً**، وليس "انقطاعاً" حركياً وحسياً كاملاً، أو نسياناً، أو انطفاءً تخيُّلياً للساق بأكملها. كانت المسألة بأكملها، مرةً أخرى، مفزعةً وصدمية، وأصبحت موضوع اهتمام شديد وتأمّل، ولكنها مع ذلك لم تشبه انفصالاً دفاعياً، أو هستيريا. إذا لم تكن مسألةً عصبية بالمعنى التقليدي (التشريحي)، ولا نفسية بالمعنى التقليدي (الدينامي)، إذا لم تكن هذا ولا ذاك، فما الذي كانته إذاً؟

في ثمانينيات القرن التاسع عشر، اقترح طبيب الأعصاب الشهير شاركو مهمةً على اثنين من تلامذته هما بابنسكي وفرويد: تمييز الشلل العضوي (العصبي) عن الشلل الهستيري. وجد فرويد أنّ أنماط الشلل العضوي (والخدار) "تتوافق تماماً مع تشريح الجهاز العصبي"، والتوزيع الثابت للأعصاب، والأجهزة الشوكية، ومراكزها في الدماغ. وعلى

الذي حسب زوجته قبّعة"). تتحدّث واحدة من تلك القصص عن مريضة أُصيبت باعتلال عصبي حسّي وعانت على إثره من فقد مدمِّر للاستنباه الذاتي، أفقدها كل صورة الجسد وكل إحساس بجسدها. وتتحدّث قصة أخرى عن امرأة أصيبت بسكتة دماغية عانت على إثرها من فقد كلي لفكرة "اليسار" في ما يتعلّق بجسمها وحيّزها الشخصي. تمّ نشر هاتين القِصتين لاحقاً تحت عنوان "السيدة المفصولة عن الجسد" و"العينان إلى اليمين!" على الترتيب في كتاب "الرجل الذي حسب زوجته قبعة").

نحوٍ متباين، فإنّ الشلل الهستيري لا يتبع هذه الأنماط: هو تعبيرٌ ليس عن تلفٍ تشريحي في الجهاز العصبي، بل عن مفاهيم ومشاعر نشأت عن صدمةٍ نفسية، ولكنها انفصلت وكُبحت في ما بعد دفاعياً. يبدو الشلل العضوي مفهوماً تشريحياً، ولكنه لا يملك مكوِّناً نفسياً (حقيقياً)؛ أما الشلل الهستيري فيبدو مفهوماً نفسياً (أو دينامياً نفسياً) ولكن من دون مكوِّن تشريحي أساسي. كان الشلل العضوي بالنسبة إلى فرويد "فيزيائياً"، والشلل الهستيري (وكل أنواع الشلل الأخرى) "عقلياً".

بدا هذا واضحاً تماماً؛ تمييز عملي يمكن لكل أطباء الأعصاب والأطباء النفسيين أن يستخدموه. غالباً ما كان يُطلَق على الهستيريا اسم "المحاكية العظيمة"، لأنّ الشلل الهستيري كان يحاكي غالباً الشلل العضوي، وكانت هناك حاجة إلى فعل تمييزٍ وتوضيح. ولكنّ سؤال شاركو كان، نتيجةً لذلك، ثنائي التشعّب وازدواجياً، والتماساً هنا للتمييز بين الفيزيائي والعقلي. وللأسف كانت له نتيجة أخرى ربما غير مقصودة: النتيجة الضمنية بأنّ **كل** الشلل والخدار وعدم استعمال الطرف والشعور بأجنبيته، إن لم يكن مفهوماً فوراً من الناحية التشريحية، فيجب أن يكون افتراضاً "هستيرياً" أو "عقلياً". وقد منع هذا وأوقف أي استقصاء أو فهم لأي حالات أخرى، مثل "الشلل الانعكاسي" و"الأطراف الشبحية السلبية" الموصوفة من قِبَل وير ميتشيل، وأيضاً، ربما بشكلٍ أقلّ إثارة وأكثر شيوعاً، "الاستغناء" عن الأطراف المُلاحَظ بعد الجراحة، والذي يمكن أن يستمر لفترة أطول بكثير من الإصابة نفسها (ليست هذه ظاهرة مقتصرة على الإنسان ولكن يمكن ملاحظتها أيضاً، كما أشار الجرّاح و.ر، في كلب). لقد منع هذا أي استكشاف حقيقي لأجنبية الطرف، و"انطفائه"، والجهل به. ليس هناك مكانٌ على الخريطة العلمية لأيّ من هذه الاضطّرابات النفسية العصبية لصورة الجسد و"النفس".

إنّ مهـــنة فرويد - العصبية أولاً، والتحليلية في ما بعد - لم تجعله يـــصطدم بالفعـــل مـــع "حالات"، أو "ظواهر"، كهذه. ولكنّ مهنة بابنسكي أتاحت له ذلك في الحرب الكبرى. جمع كتاب بابنسكي (1917) قـــدراً هـــائلاً من الملاحظات حول الشلل، وعدم استعمال الطرف، والـــشعور بأجنبيـــته، ومتلازمات أخرى نشأت كنتيجة لإضطّرابات محيطـــية، وهـــي مـــتلازمات لم يكن بالإمكان وصفها بالعضوية أو الهستيرية، ولكنها شكّلت، وفقاً لاعتقاده، "مجالاً ثالثاً"، وتطلّبت فهماً مخـــتلفاً بالكامـــل. كـــان بابنسكي واثقاً أنّ متلازمات كتلك كانت فـــسيولوجية في طبيعـــتها، وتحدّث عنها على هذا الأساس وكان عنوان كـــتابه *Syndrome Physiopathique*. ومثل وير ميتشيل وآخرين قبله، افترض بابنسكي "صدمة": تثبيطٌ انعكاسي (مشبكي على الأرجح) ينتشر في المنطقة المجاورة مباشرةً للإصابة والحبل الشوكي؛ ثمّ، عند مستوىً أعلى في الـــدماغ، اضطّرابٌ مماثل "لعمه لمرض"، كان بابنسكي أوّل من وصفه في حالات التلف الخاصة بالنصف الدماغي الأيمن. كتب بابنسكي في زمنٍ سبق نشوء مفهوم هيد حول "المخطّط الوضعي" اللدن أو "صورة الجسد"، ومـــن دون إشارة إلى ملاحظات شرينغتون الغريبة واللاتقليدية المبنية على أســـاس التغيّـــرات اليومية "للنقاط" الحسّية والحركية في قشرة الحيوانات التجـــريبية، والتي أظهرت لدونة غير متوقّعة للدماغ. ناقضت ملاحظات بابنـــسكي، كمـــا فعلـــت ملاحظات شرينغتون وهيد، فكرتَي التمركز الدماغـــي والتمثيل الدماغي الصارم، وفكرة الآلة الدماغية المبرمجة بصرامة، الـــتي ســـادت في القرن التاسع عشر، وبدت أنها تشير إلى مبادئ تنظيم كانت إجمالاً مختلفة عن هذه وأكثر لدونة وديناميةً منها.

ولكـــن لم يستطع بابنسكي أو هيد أو شرينغتون - أو لوريا أو ليونـــتف في جيلٍ لاحق - أن يفهموا الآليات الحقيقية التي حدسوا هم

أنفــــسم مـــبدأها. ولا استطعت أنا، مواجهاً تجاربـــي الخاصة في العام 1974، ومـــتأملاً فيها (وفي تجارب مرضى آخرين) في السنوات التالية، أن أفهمهـــا بـــشكلٍ أفضل. رأيت بوضوح أنّ تجارب كهذه كانت فـــسيولوجية المنشأ، ولكنها لا يمكن أن تتلاءم مع النموذج التقليدي. كان واضحاً بالنسبة إلي أننا كنا بحاجة إلى "علم أعصاب للهويّة"، إلى علـــم أعـــصاب يمكن أن يشرح كيفً يمكن لأجزاء مختلفة من الجسم (وحيّزها) أن "تُمتلَك" (أو "تُفقَد")، إلى قاعدة عصبية لتماسك ووحدة الإدراك (وتحديـــداً بعـــد أن يكـــون هذا قد تشوّش بسبب التلف أو المـــرض). كـــنا بحاجـــة إلى علم أعصاب يمكن أن يهرب من ثنائية الجسد/العقل الصارمة، والأفكار الفيزيائية "للخوارزمية" و"القالب"، إلى علـــم أعـــصاب يمكـــن أن يـــتلاءم مع غنى وكثافة التجربة، وحسّها "المـــشهدي" و"الموســـيقي"، وشخصيتها، والتدفّق المتغيِّر أبداً لتاريخها وصيرورتها.

ولكن لم يكن واضحاً بالنسبة إلي كيف يمكن لعلم أعصابٍ كهذا أن يُـــدرَك، وتوصّلت في نهاية هذا الكتاب إلى إحداث انحرافٍ غريب في المياه الكانتية الروحانية للبداهة. أنا أندم وأتراجع عن انحرافي الكانتي الآن، ولكـــنني دُفعت إليه، كما أعتقد، بقصور الفسيولوجيا، والنظرية الفـــسيولوجية، التي لم تستطع في سبعينيات القرن العشرين أن تحتوي تجـــربتي، أو أي من المجالات "الأعلى" للإدراك واللغة. لم أكن الأوّل، ولا سأكون الأخير، المدفوع في هذا الطريق(*).

(*) "لا أفهـــم لماذا تصبحون، أنتم معشر أطباء الأعصاب، روحانيين في النهاية؟"، هـــذا مـــا ســـألني إياه مرةً المحلّل النفسي كارول فلدمان، وهو سؤال يتعمّق في نظرية المعرفة والنفس. انظر علم الأعصاب والروح، نقد نيويورك للكتب، 11 تشرين الثاني/نوفمبر 1990.

أقنعتني تجربتي في العام 1984 أنّ **الوقت** كان عنصراً حاسماً في المحافظة على صورة الجسد (أو انحلالها). كانت تجربتي في العام 1974 "جيدة" مقارنة بتلك في العام 1984 لأنها حدثت في مكان كان مصادفةً قريباً من مستشفى، وكان بالإمكان خضوعي للجراحة من دون تأخير، وأيضاً بسبب التمييز الواضح لأهمية السرعة في حالات كهذه. كان شائعاً في العام 1974 إبقاء المريض مرتاحاً في الفراش لفترة، والحدّ من حركته، بعد إصابات الأطراف أو البتر، وكانت اضطّرابات صورة الجسد المديدة شائعة نسبياً. وفي العام 1984، تغيّرت المقاربات جذرياً. فالمريض المقرَّر بتر ساقه سيُعطى عضواً صناعياً مؤقتاً بعد الجراحة مباشرة، ويُشجَّع على النزول من طاولة الجراحة باستخدامه، أما المرضى المصابون بسيقانهم مثلي فسيُعطَون هيكلاً للمشي ويُشجّعون على استخدامه مباشرة. وقد وُجِد أنّ المرء يستطيع بهذه الطريقة أن يتجنّب أو يقلّل إلى الحدّ الأدنى أي فجوة عاملة، ويمكنه أن يقلّل إلى الحدّ الأدنى أي نقص أو تغيّر في صورة الجسد. لقد رأيت بنفسي كم يمكن أن يحدث هذا بسرعة عندما شعرت أنني "عديم الكتف" في غضون ساعات من وضع الجبيرة. إنّ حقيقة أنّ الوقت كان مهماً جداً أصبحت معلومةً معروفة بين جرّاحي العظام بالرغم من أنها يجب مع ذلك أن تكون موضوع توضيح تجريبي. وخلف أسئلة صورة الجسد هذه - لأنّ "صورة الجسد" قد تكون البناء العقلي والذاتي الأوّل الموجود، البناء الذي يعمل كنموذج لكل بناء آخر - كانت هناك الأسئلة الأعمّ عن بناء (وهدم وإعادة بناء) **كلّ** الفئات الإدراكية، وكل "الهياكل" (المكانية وغيرها) الموضوعة فيها، وعن الذاكرة، والفعل، والشعور، و"العقل"؛ هرم كامل من الاعتبارات يشعّ من صورة الجسد.

إنّ الـــتقدُّم التقني الذي جعل تقصّي هذه الأسئلة (الأساسية منها علـــى الأقـــل) ممكناً تمثّل في استخدام مصفوفات كبيرة من الأقطاب المجهـــرية الـــتي تتـــيح تـــسجيل النشاط العصبوني، ورسم "الحقول" و"الخرائط" الحسية الشاملة في القشرة الدماغية المنبَّهة للشخص الخاضع للتجـــربة. إنّ هـــذه الاستكشافات التي لم تكن ممكنة تقنياً قبل العام 1980 تُحـــدث ثورةً في فهمنا للدماغ (الراشد) ولدونته، وتحديداً في فهمنا لاضطّرابات صورة الجسد بعد تعطيل الجذبان المركزي أو البتر، والـــشفاء مـــنهما. وقد أُنجز هذا العمل بصورة خاصة بواسطة مايكل ميرزنيتش في سان فرانسيسكو.

درس ميرزنيتش وزملاؤه تأثيرات تعطيل الجذبان المركزي الحسّي (تـــضميد وتجبير اليدين، أو قطع الأعصاب الحسية) والبتر، إضافةً إلى التنبـــيه اللمـــسي، والاستعمال، عند تمثيل اليد في القشرة الحسّية. وقد أظهروا أنه مع انقطاع المُدخلات الحسّية في اليد، يحدث تضاؤل فوري، أو محـــو، لخريطتها القشرية، مع إعادة تنظيم فورية للمدخلات المتبقية. تُظهر هذه التجارب أنه لا توجد منطقة دائمة "محفوظة" لأي جزء من الجسم. على سبيل المثال، ليست هناك منطقة "يد" ثابتة. إذا عُطِّلت يد أو عُطِّـــل جذباها المركزي لأي فترة من الوقت، **فهي تفقد مكاها في القـــشرة الحـــسّية**. أمـــا "مكاها"، أو "مكاها السابق"، فيتمّ احتلاله وتكيـــيفه خلال ساعات أو أيام بواسطة خرائط بقية الجسد، بحيث إننا نملك الآن خريطة جسم جديدة ولكن "عديمة اليد" في القشرة. يتلاشى تمامـــاً التمثيل الداخلي لجزء الجسم الخامد أو المعطّل جذبانه المركزي؛ يتلاشى على نحوٍ كلي ودائم من دون أن يترك أي أثر.

وجـــد ميرزنيتش أنه لا يوجد أبداً أي إحياء أو استرداد لخريطة قشرية تلاشت، بل لا بدّ أن يكون هناك إحداثٌ لإعادة تنظيم جديدة

مستحثّة بتجارب جديدة وبمنبِّهات وأفعال جديدة. وبالتالي فإنّ صورة الجسد ليست ثابتة، كما يفترض علم الأعصاب الميكانيكي الجامد، بل هـي ديناميكية ولدنة: لا بدّ من إعادة قولبتها وتحديثها طوال الوقت، وبإمكانها أن تعيد تنظيم نفسها جذرياً مع التجارب(*). ليست صورة الجسد شيئاً ثابتاً بداهةً في الدماغ، بل هي **عملية** تكيّف نفسها طوال الوقت مع التجربة(*).

قد نتساءل إذاً، ما هو **وضع** أي جزء من الجسم فقد تمثيله الداخلي؟ كيف يشعر المالك بشأن الفقد؟ وكيف يتصرّف؟ يستخدم أطباء الأعصاب مصطلحَي "الإهمال" و"الانطفاء" للتعبير عن هذه الحالة. إذا كان هناك إهمال لجزء من الجسم، أو انطفاء لجزء من "حيّز" المرء الشخصي أو "حقله" (الذي يترافق حتماً مع إهمالٍ كهذا)، فإنّ

(*) يكتب ميرزنيتش: "إنّ الخرائط التمثيلية القشرية في الراشدين تعتمد على الاستعمال، وهي تعمل بشكلٍ ديناميكي طوال الحياة".

(*) ولكن إذا كان هذا صحيحاً، فقد يتساءل المرء: ماذا عن 'الأطراف الشبحية'، تلك الصور الغريبة الثابتة للأطراف التي يمكن أن تستمر لسنوات بعد قطع الطرف؟ تلك الصور المتحجّرة، إذا جاز التعبير، التي لا تتوافق مع حقيقة حالية. يبدو مرجّحاً أنّ الأطراف الشبحية تبقى، على الأقل لمدىً معقول، من خلال إثارة محيطية (وإن تكن مرضية)؛ على سبيل المثال، في الأعصاب المقطوعة للطرف (وربما بشكلٍ مركزي أكثر)؛ وهذا واضح بصورة خاصة إذا كان هناك تشكيل لورم عصبي في جدعة العصب. من شأن الأورام العصبية أن تسبّب أطرافاً شبحية مؤلمة بشدة. إذا تمّ إيقاف المُدخلات المحيطية، فإنّ الطرف الشبحي سيختفي، وقد لاحظت هذا في مريض كان يعاني من إصبع شبحي، فقد الشبح كما فقد الإحساس في الأصابع بسبب اعتلال عصبي سكّري. وبالعكس، فإنّ تنبيه عصب محيطي يؤدي إلى تنبيه الطرف الشبحي، ويمكن بالفعل استخدامه لهذا الهدف من قِبَل المبتورين الذين يجدون أنهم يستطيعون أن يستخدموا الصورة الشبحية لدفع طرف اصطناعي. يمكن أيضاً تنبيه الأطراف الشبحية، أو جعلها تتلاشى، بتنبيه أو تخدير الجذور الشوكية الموافقة لها (تمت مناقشة هذه الظواهر وغيرها في كتاب "الرجل الذي حسب زوجته قبعة").

الحيوان أو الشخص المصاب لا يلاحظه. فالطرف المهمَل هو مهمَلٌ بالفعل: هو مهمَل، ويُعامل وكأنه ليس جزءاً من الجسم، أو الذات. وهذا الأمر معروفٌ جيداً للبيطريين، ويمكن إيجاد وصف له في واحد من كتب هريوت المبهجة عن بقرة كانت تخور في مخاضٍ عسير وتمّ تخديرها شوكياً. ما إن بدأ تأثير المخدّر، حتى هدأت البقرة، وأهملت الجزء الخلفي من جسمها الذي كان الآن مخدّراً ومشلولاً، واستأنفت مضغ بعض التبن بهدوء، غير منتبهة، أو ملاحِظة، لولادة عجلها. أظهرت البقرة عدم انتباه كلياً و"إهمالاً" للجزء الخلفي من جسمها حالما بدأ تأثير المخدِّر. وهذه هي بالضبط ردود فعل المرضى عندما يسقط جزءٌ من الجسم عن الشعور، سواء أكان ذلك ناشئاً عن اختلالات في الدماغ (وخصوصاً في النصف الأيمن منه) أو عن اضطّرابات محيطية. يرى المرء هذا في مرضى مصابين بالسّهام، وفاقدين للاستنباه الذاتي في سيقانهم، حيث من شأنهم أن يدفعوا بسيقانهم من دون قصد إلى مواضع غريبة غير ملائمة؛ محشورة في الزاويا، أو واقعة عن الكراسي. تصبح سيقانهم "مفقودة" أو "مهمَلة" (أي غير ملاحظة) عندما لا تكون موضعَ انتباهٍ بصري متعمَّد(*). وهذا ما حدث معي

(*) أثناء تأليفي لكتاب "أريد ساقاً أقف عليها"، ظننتُ أنّ فقد الاستنباه الذاتي كان شرطاً كافياً للشعور "بعدم امتلاك" الطرف، و"بأجنبيته". والآن أنا أعتقد أنه شرط كاف للشعور "بعدم امتلاك" الطرف، ولكن ليس للشعور "بأجنبيته". هكذا بالرغم منَ أنّ المرضى المصابين بالسُّهام قد "يفقدون" أطرافهم، إلا أنهم لا يعتبرونها "أجنبية". وفي حين أنّ كريستينا، السيدة "المفصولة عن الجسد" التي أصفها في كتابي "الرجل الذي حسب زوجته قبعة"، كانت تخطئ (كما رأيتُ في مناسبات عدة) وتحسب يدها، عندما لا تكون منتبهة إليها بصرياً، يدَ شخص آخر، إلا أنها لم ترها أبداً على أنها "أجنبية". يجب أن يكون هناك، كما يفترض روزنفيلد، ليس فقداً للاستنباه الذاتي فحسب، وإنما فقد للألم وغيره من الإحساسات، من أجل أن يُدرَك الطرف على أنه "أجنبي".

عندما لم أكن منتبهاً لساقي: كنت قد استغرقت في النوم، وأثناء نومي دفعـــت ساقي من دون قصد إلى أن أصبحت واقعة تقريباً عن السرير. وقـــد تطلّب الأمر دخول الممرّضة سولو مرتاعةً واندهالي المربك لدى إدراكـــي لمـــا كان قد حدث، لإظهار أنّ ساقي قد سقطت كلياً عن الشعور، وكانت "مهمَلة"، وتُعامل "كشيء" غير مرتبط.

وهكـــذا كان الأمر مع سعادين ميرزنيتش. فبعد إزالة التعصيب من أيـــديها، أو تجبيرها، أو تضميدها بإحكام، أو "تعطيل جذبالها المركزي"، كانـــت الـــسعادين تعامل أيديها بلا اكتراث، وربما بإهمال، وتبدو أنها لا تلاحظهـــا(*). ولكـــنها لا تحدّق بها برعبٍ واندهال، ولا تبدو مُربَكة، ولا منـــزعجة بإحساسٍ بأجنبية اليد. هل لدى السعادين حتى مفهوم "الشيء الأجـــنبي"؟ هـــل إحـــساس الحيرة والنفور والرعب هذا، إحساس الغربة

(*) عـــانى واحـــدٌ من تلامذتي مرةً من قضمة صقيع وخيمة، وشعر أنّ أصابعه قد بُتـــرت عـــند البراجم، وأنّ ما تبقّى لديه هو كفٌّ بشعٍ شبيه بمضرب الكرة. عندما يكون الخدار أو فقدان الإحساس طويل الأمد، فإنّ خطر إصابة الأجزاء المهمَلـــة بـــتلفٍ يكون كبيراً، ولهذا تتعرّض أطراف المصابين بالجذام لحوادث مؤسفة باستمرار.

(*) هـــل يمكـــن أن يعاني كلبٌ من هستيريا، أو طرف "أجنبي"؟ هل يمكن ذلك لـــسعدان؟ أو قـــرد؟ ما الشرط اللازم للهستيريا أوْ الشعور بأجنبية الطرف؟ انطباعـــي هو أنّ الكلب لا يستطيع ذلك - بالرغم مما قيل من أنّ كلبة فرويد قـــد عانـــت من حملٍ هستيري أو حملٍ كاذب (وهو ما استحثّ تعليق فرويد الـــساخر بأنّ "ذاك يمكن أن يحدث فقطّ في منـــزل محلّل نفسي"). وأعتقد أنّ الـــسعادين، مثل تلك التي يستخدمها ميرزنيتش لا تستطيع ذلك أيضاً. ولكنني أظنّ أنّ القرد يستطيع بالتأكيد أن يعاني من طرف "أجنبي"، ولكن من المحتمل فقط أن يعاني من هستيريا، وذلك لأنّ الطرف الأجنبـــي والهستيريا يعتمدان، بطـــرقهما المختلفة إلى حدّ كبير، على وجود شعورٍ مرجعي ذاتي أعلى رتبة - إحـــساس صريح "بالذات" - من نوعٍ يبدو أنه موجود في القرود، ولكن ليس في أي من الحيوانات الأقل رتبة. ولهذا، يمكن للقرود، على نحوٍ معهود، أن تميّز نفسها في المرآة، بينما لا تستطيع السعادين والكلاب ذلك.

واللامكـــان واللاماضـــي، هو بالتالي ردّ فعل **إنساني** حصري يعتمد على الطبيعة التأمّلية والذاتية الإرجاع للشعور الإنساني؟ إنّ عمل ميرزنيتش على إعادة التنظيم الدينامكية في الخريطة القشرية قد أُجرِي على السعادين، وأنا إنسان. هل كان هناك أي شيء إنساني تحديداً بشأن تجربتي؟

هـــذا الإرجـــاع الذاتي *self-reference* – وهو مصطلحٌ ابتدعه إســـرائيل روزنفـــيلد – قد يكون ضمنياً (كما عندما **يتصرّف** حيوان كنفسٍ، ولكنه لا يتأمّل نفسه)، أو صريحاً (عندما يكون **مفهوم** النفس موجـــوداً). هذا الشكل الصريح من الإرجاع الذاتي هو جوهر الشعور الإنساني، وهو يحوِّل التجربة(*).

إنّ جميع الحيوانات المذكورة حتى الآن – كلبة الجرّاح و.ر، وبقرة هـــريوت، وســـعادين ميرزنيتش – هي غير قادرة على **وصف** إهمالها. وبالفعل لا يمكن للمرء أن يجذب انتباهها إليه؛ هي تهمل الطرف فقط، وهـــذا كـــل شيء(*). الأمر مماثل، في البداية، إذا كان للإنسان طرفٌ

(*) يكـــتب روزنفـــيلد: "أعـــني بالإرجـــاع الـــذاتي الرجوع إلى صورة جسد ديناميكـــية... تُحـــدَّد "نفسنا" بالطرق التي نستخدم بها أجسامنا، وحركات أجـــسامنا نفـــسها، والحـــركات التي نكتسبها مع الوقت. إنها هذه الصورة الديناميكية هي التي يتمّ إرجاع المنبِّهات إليها (الإرجاع الذاتي) والتي بها تكون المنـــبِّهات "مفهـــومة"... كل تذكّر يرجع ليس فقط إلى الشخص أو الشيء المُتذَكَّر، بل أيضاً إلى الشخص الذي يقوم بفعل التذكُّر".

(*) يمكـــن للمـــرء القول إنّ مرضى كهؤلاء يعيشون في نصف عالم من دون أن يدركـــوا طبعاً أنه نصف عالم (لأنه بالنسبة إليهم غير منقسم، وكامل وكلي). وهكـــذا فـــإنّ إدراك وفكرة وذكرى "اليسار" تتلاشى، كما في المريضة التي أصـــفها في حالة "العينان إلى اليمين!" (المنشورة في كتاب الرجل الذي حسب زوجـــته قبعة). يكتب م. مارسل ميسولام: "عندما يكون الإهمال وخيماً، فإنّ المـــريض قـــد يتـــصرّف كما لو أنّ نصف العالم لم يعد قائماً بأي شكل ذي معنى... إنّ المرضى الذين يعانون من إهمال أحادي الجانب يتصرفون ليس فقط كمـــا لـــو أنّ لا شيء يحدث فعلياً في الجانب الأيسر، بل أيضاً كما لو أنّ لا شيء ذا أهمية يمكن أن يُتوقّع حدوثه هناك".

مـــصابٌ ومُهمَل، حيث سيستغني عنه، ويهمله، ويصرف النظر عنه، كمـــا فعلت أنا. ولكن **إذا** اعتنى به، **ما إن** يعتني به، فستختلف الأمور حيـــنها، حـــيث ســـيتمّ الآن إدراك الطرف المطفَأ... ولكنه سيُدرَك ويُوصَـــف علـــى أنه "أجنبي" بالكامل. إذا كانت الأسئلة التي يثيرها الإهمال تشير، بالدرجة الأولى، إلى خريطة الدماغ للجسم في القشرة، فـــإنّ الأســـئلة الأكثر تعقيداً التي تثيرها "أجنبية الطرف" تشير إلى بنية الشعور نفسه.

إنّ بنـــية الـــشعور، بـــشكلٍ عام، لم تتمّ مقاربتها من قِبَل أطباء الأعـــصاب. قد شعر أطباء الأعصاب غالباً أنّ الشعور لم يكن شأنهم، وإنمـــا هو شأنٌ يُفضَّل أن يُترَك للأطباء النفسيين: وقد كان هذا بالفعل أثـــر الثنائـــية الوخـــيمة للقرن التاسع عشر التي قسمت الظواهر إلى "فيزيائية" أو "عقلية". وقد كان هنا، في هذا الحيّز غير المقبول سابقاً، أن قـــام بابنـــسكي بادّعائـــه لأجـــل "حقـــلٍ ثالث" - حقل يمكن فيه للاضطّرابات العضوية العصبية المحسوسة أن تسبّب اضطّرابات الشعور. درس بابنـــسكي أولاً مـــتلازمات دماغـــية معيّنة؛ اضطّرابات النصف الدماغـــي الأيمـــن (بلا استثناء تقريباً)، والاضطّرابات التي تمحو إدراك النصف الأيسر من الجسم (و"حيّزه")، أو ما يعرف باسم "إهمال نصف المكـــان" أو "عدم الانتباه النصفي". إنّ مثل هذه الانقسامات الداخلية للجسم وحيّزه هي استثنائية لأن تُرى، ومثيرة للحد الأقصى(*). ونظراً لأنّ هـــؤلاء الـــذين يعانون من "عدم انتباه نصفي" هم غير مدركين لإهمـــالهم، فهـــم لا يستطيعون وصفه، بغضّ النظر عن مدى ذكائهم:

(*) يفتـــرض إدلمـــان أنّ مرضىٍ كهؤلاء لا يختبرون فجوة أو انقساماً في الشعور، ولكـــنهم يُظهـــرون شعوراً مُعاداً تنظيمه جذرياً، ويتمّ اختبار الشعور الجديد كشعورٍ كامل وكلي.

وهكـــذا، وعلـــى نحوٍ معذّب، هم لا يستطيعون أن يقولوا كيف هي تجربتهم(*).

فقـــط في حالة الدماغ البشري غير المتلَف، والمُواجَه بإهمالٍ أو انطفاءِ محيطي المنشأ، يمكن لكامل قوى الانتباه والشعور الأعلى رتبة أن تُركِّز على الظاهرة. إنّ عمه المرض يستحيل معه الاستبطان، أو البصيرة، أو الوصف.+ ولكنّ الشعور بأجنبية جزءٍ من الجسم هو أمرٌ يمكن إدراكه ووصفه بكل القِوى التأمّلية التي يملكها المريض: وهذا مـــا يعطـــيه منـــــزلة فريدةَ، خلافاً لأي شيء آخر في علم النفس العصبـــي، قوة فريدة ليشير إلى البنية الأساسية للشعور نفسه (لأنّ الـــشعور هـــنا يلاحظ نفسه، وقادرٌ على ملاحظة شكلٍ معيّن من التعطيل في نفسه).

وهذا، بالرغم من أنه غير معبَّر عنه صراحةً، هو بكل تأكيد واحدٌ من الأسباب وراء توجيه بابنسكي اهتمامه، بعد وصفه لمتلازمات عدم الانتباه النصفي وعمه المرض القشرية، إلى المتلازمات المحيطية؛ إلى الغنى الظاهـــراتي العظيم للمتلازمات الفسيولوجية في طبيعتها، والسبب وراء انـــذهال ليونتف وزابوروزيتس، اللذين أسّسا (مع لوريا) علم النفس العـــصبـــي، بالوصـــف الـــذي أُعطِي لهم من مرضاهم ذوي الأيدي

(*) الأمـــر صحيح أيضاً، ولكن بطريقة مختلفة جداً، في الهستيريا. وهكذا، في حين أنّ الهـــستيري سيـــشكو من شلله، وفقده للإحساس، إلخ، إلا أنه سيبقى غير مـــدرك لمنـــشأ شـــكواه في تغيرات العاطفة والمفهوم، غيرِ مدرك للتغيرات في شعورهِ. وبالفعل، إذا كان ممكناً جلبُ مثل هذه التغيرات المُمرِضة إلى الشعور، فـــإنّ الهـــستيريا تختفي: وبالتالي فإنّ الهستيريا *تعتمد* على اللاشعور؛ وإن يكن لاشعوراً مختلفاً تماماً عن ذاك للمصاب بعمه المرض.

لم يكـــن هذا الفرق واضحاً دوماً؛ ولهذا فإنّ المرضى المصابين بعمه المرض أو بانطفـــاء عجـــيب وعزو خاطئ لأجزاء الجسم، غالباً ما كان يُظَنّ (في وقت سابق لبابنسكي) أنهم مصابون بالفصام أو الهستيريا.

الأجنبية في الحرب العالمية الثانية، وعزوا هذا "البتر الداخلي" و"الشعور بأجنبـــية الطرف" إلى "انفصال الأجهزة المعرفية"، ما يعني تعطيلاً نفسياً عـــصبياً عند المستوى الأعلى. ولكنّ ليونتف وزابوروزيتس، الملتزمين بعلـــم أعـــصاب محسوس، وبرؤية الدماغ كجهاز الأجهزة، لم يواجها الذاتية الكاملة لتقارير مرضاهم، و لم يستطيعا أن يزوّدا بأي تفسير في ما يتعلّق ببنية الشعور.

إنّ مريضاً باغتراب كهذا يمكنه أن يتوسّع في التناقض المركزي للاغتراب (الشعور بأجنبية الطرف)؛ الشعور بالطرف على أنه لاذاتي *not-self*. يمكنه أن يلاحظ تشوّش الذاكرة، أو "النسيان" التناقضي الـــذي يعاكس ما يعرفه. يمكنه أن يلاحظ تشوّش الحيّز الشخصي (الذي يُظهره المصاب بعمه المرض ولكنه لا يختبره). يمكنه أن يُظهر بوضوح حالة من الإرباك الجذري، وتعطيلاً كلياً في حسّه الداخلي بالهويّة، والذاكرة، و"الحيّز"، ولكنه حسّ مقتصر على مجال الطرف، أما باقي الشعور فهو سليم وكامل. هذا بالضبط هو ما اختبرته أنا شخصياً(*).

(*) مـــا كان فظيعاً جداً... هو أنّ الساق لم "توضع في غير موضعها"، ولكنها في الواقع أضاعت مكانها. لقد تلاشت الساق، آخذةً "موضعها" معها. وبما أنه لم يعـــد هـــناك أي مكـــان يمكنها الرجوع إليه... فقد بدا أنه لا توجد إمكانية لاســـتعادتها. هل يمكن للذكرى أن تفيد، حيث عجز الأمل؟ لا! لقد تلاشت الـــساق، آخذة "ماضيها" معها! لم يعد بإمكاني أنّ أتذكّر امتلاكي لساق. لم يعد بإمكاني أن أتذكّر كيف مشيت أبداً وتسلّقت. شعرت على نحو لا يُصدَّق أنـــني فُصلت عن الشخص الذي مشى، وركض، وتسلّق الجبل قبل خمسة أيام فقط. كانَت هناك استمرارية "شكلية" فقط بيننا. كانت هناك فجوة - فجوة مطلقـــة - بين ذلك الحين والآن، وفي تلك الفجوة، في ذلك الفراغ، تلاشى "شخصي" السابق... في تلك الفجوة، في ذلك الفراغ، خارج المكان والزمان، مرّت حقيقة وإمكانيات الساق، وتلاشت... تلاشت مثل "سراب"، تلاشت من المكان والزمان، تلاشت آخذة مكانها وزمانها معها.

إنّ تغيّـــرات ظاهـــراتية كهـــذه تتطلّب صيغة ليس في ما يتعلّق بالأجهزة، بل **بالذات**. وتتطلّب "علم أعصاب للهويّة"، ونظريةً للهويّة، والذاكرة، و"الحيّز"، يمكنها أن تربط هذه الأمور الثلاثة معاً، وتُظهرها كأشياء لا يمكن فصلها، وكأوجه من عملية وحيدة شاملة. باختصار، هي بحاجة إلى نظرية **حيوية** للشعور، ولكنّ نظريةً كهذه لم تكن متوفّرة لديّ، أو لأي أحد، في سبعينيات القرن العشرين.

وهـــنا اســـتقرّت الأمور على حالها لسنوات عديدة، إلى أن اطّلعت على عمل جيرالد إدلمان ووصفِه لخصائص الشعور "الأوّلي" والشعور "الأعلى رتبة" وأساسهما العصبوني المحتمل. من الواضح أنه لـــيس هناك مجرّد تسجيل لتغيرات داخلية، مثل تلك التي ستزوّد بها الخريطة الحسّية (والتصنيف). هناك أيضاً مقارنة للحاضر بالماضي، وبمـــا يتمّ تذكُّره. الشعور هو هذه العملية المفردة؛ هو شعورٌ ينشأ، بالدرجـــة الأولى، أو هـــذا ما يخمّنه إدلمان، من التصنيف الإدراكي الحسّي، والذاكرة، والتعلُّم، والتمييز بين الذات واللاذات. ومن هذا "الـــشعور الأوّلي"، كما يدعوه إدلمان، يتطوّر شعورٌ أعلى رتبة في الإنسان، مع قدرات اللغة، والفهم، والتفكير. وبالتالي، فإنّ الشعور المفهـــوم علـــى هذا النحو هو شخصي أساساً. فهو مرتبطٌ أساساً بالجسم الحي الفعلي، بموقعه وافتراضه لحيّز شخصي. وهو يستند إلى الذاكرة، وإلى تذكُّرٍ يعيد باستمرار بناء وتصنيف نفسه. إنّ الهويّة، والذاكـــرة، والحيّزَ، بالنسبة إلى إدلمان، تترافق وتؤلّف وتعرّف معاً "الشعور الأوّلي". ولكن لقد كانت هذه الأمور الثلاثة بالضبط هي الـــتي تلاشت عندما أصبحت ساقي أجنبية بالنسبة إلي. لقد انهارت وتلاشـــت معاً، تاركةً، إذا جاز التعبير، هاوية أو فجوة: فجوة في الذاكرة/الهويّة/الحيّز.

هـــذه "الفجوة" في الذاكرة/الهويّة/الحيّز، أمكنني الآن أن أفسّرها "كفجـــوة" في ما يدعوه إدلمان "الشعور الأوّلي". كافح الشعور الأعلى رتبة ليفهم هذا، مستخدماً كل المفاهيم واللغة المتاحة له. حدّق الشعور الأعلى رتبة في الهاوية، واستطاع أن يزوّد بمفاهيم أو كلمات لما وجده ("الأجـــنبي"، "الشاذ"، "اللامكاني"، "اللازماني")، ولكنه لم يستطع أن يفعل أي شيء بشأنها. ولا هو استطاع بأي طريقة أن يحلّ محلها؛ كان بإمكاني أن أستخدم "الساق" الرمزية واللغوية المُنشأة، ولكنها افتقرت إلى كل الحقيقة الذاتية بالنسبة إلي. **يُبنى** الشعور الأعلى رتبة على أساس الـــشعور الأوّلي، ويمكنه فقط أن ينقله ويعكسه، وهو ما عنى هنا الرمز إلـــيه باستعارات العدم. "لا شيء"، كما يذكّرنا بيكيت، "هو حقيقي أكثر من العدم".

يؤكّد إدلمان على أنّ "الملاحظات النفسية العصبية تقدّم فرصةً اســـتثنائية لاختـــبار نظريات الشعور في ما يتعلق بالفقد في وحدة حـــسية معيـــنة، وتأثيرات المرض على الذاكرة، واللغة، والمهارة". ويتّـــضح في نهايـــة الأمر أنّ أبسط هذه "الاختبارات" هو إحساس "الاغتـــراب أو أجنبية الطرف"، الذي **يُرينا**، أساساً، بنية الشعور. **الاغتراب هو فقد مركزي للشعور الأوّلي كما يتمّ فهمه بواسطة شعور إنساني أعلى رتبة.**

إنّ حقيقة أنّ اضطّراباً موضعياً، ومحيطياً، يمكن أن يسبّب تشويشاً هـــائلاً للشعور قد تبدو مفاجئةً للغاية. وهذا لأننا لا نملك، حتى اليوم، نظـــرية "أدنى-أعلـــى" ملائمة للشعور، ولم نفهم أصوله البيولوجية في العمليات الإدراكية وخرائطها في الكائن الحي. يبيّن لنا إدلمان أنّ التغييرات في المـــناطق الأوّلـــية المستقبِلة - اضطّرابات "الخريطة الموضعية" - هي ســـبب كـــافٍ لتغييرات الشعور. ليس ضرورياً أن نُحدِث أي سبب

إضافي (مثل عصاب أو ذهان "أعلى-أدنى" إضافي مصاحِب لاضطّرابات "الخريطة الموضعية")(*).

هناك بالفعل انفصال في "الاغتراب" (أو "أجنبية الطرف")، يُسمِّيه ليونتف وزابوروزيتس "انفصال الأجهزة المعرفية"، ولكنه في الحقيقة انفصال في الشعور، بين شعورٍ أوّلي هو مطفَأ كلياً ولكن موضعياً، وشعورٍ أعلى رتبة هو سليمٌ بالكامل، وشفّاف، إذا جاز التعبير، بحيث إنه يمكن أن ينقل، ويجب أن ينقل، الدمار تحته، بالرغم من أنه سيفعل ذلك بشروطه الخاصة. وبهذا المعنى، فإنّ كتاب **أريد ساقاً أقف عليها** ليس مجرّد قصة عن ساق، بل هو رواية من الداخل عن شكل الشعور الأوّلي، وهي رواية لا يمكن إلا لتجربة الاغتراب، ولا شيء غيرها، أن تزوِّد بها(*).

(*) المتلازمات النفسية العصبية هي اضطّرابات "أدنى-أعلى"، يسبِّب فيها اضطّرابٌ عصبي أدنى مستوى اضطّراباً عصبياً أعلى مستوى. وعلى نحو متباين، فإنّ الهستيريا هي اضطّراب "أعلى-أدنى"، حيث التشويش الأوّليّ يحدث عند المستوى الأعلى - في الشعور الأعلى رتبة الذي هو رمزي ولغوي - وأي تشويش عند مستويات أدنى يكون ثانوياً بالنسبة إلى هذا. هناك تشويش أوّلي للخريطة الموضعية والشعور الأوّلي في "الاغتراب"، ولكن ليس هناك تشويش أوّلي لهذين في الهستيريا (يمكن بالطبع أن يكون هناك بعض التشويش الثانوي). يُثقَل الشعور الأعلى رتبة (الذي يشتمل على "اللاشعور" التحليلي النفسي) بعواطف شديدة خاصة في الهستيريا، بينما يكون مُربكاً فقط في "الاغتراب".

(*) يؤكّد إدلمان أننا لا يمكن أن نعرف أبداً الشعور الأوّلي مباشرةً، ولكن بإمكاننا أن نعرفه فقط من خلال الشعور الأعلى رتبة. يمكن للحيوانات التي تفتقر إلى الشعور الأعلى رتبة أن تختبره مباشرةً، ولكنها لا يمكن أن تصفه. إذا كانت هناك أي حالة يمكن فيها للبشر أن يصفوا شعوراً أوّلياً صافياً غير مشوب بشعور أعلى رتبة فهي، كما يقترح إدلمان، حالة المرضى ذوي "الدماغ المنقسم"، الذين فُصِل نصف دماغهم الأيمن جراحياً عن النصف الأيسر. قد يصف مرضى كهؤلاءِ إدراكات حسّية (من الجانب الأيسر للجسم، أو الجانب الأيسر للحقل البصري) من دون أن يتمّ تعديلها بالقِوى اللغوية والتأمّلية للنصف الدماغي الأيسر (انظر الحاشية صفحة...).

إنّ الشعور الأوّلي هو، بالطبع، محجوبٌ عادةً. هو تلقائي، ويحجب نفسه مثل أي شيء طبيعي. وعلى نحوٍ متناقض، فإنّ وجوده هو ذاتي الإخفاء، ولا يمكن أن يصبح موضع انتباه إلا عندما يتعطّل بشكلٍ هائل. وهذا صحيح لكل الأمراض؛ ففي الشكل السلبي للاضطّراب، يصبح ما كان مخفياً عادةً، منظوراً على نحوٍ مذهل (وأحياناً على نحوٍ فظيع). وهذا هو السبب الذي جعل أبقراط يتحدّث قبل 2500 سنة عن "وصف الأمراض"، وبأنها تملك قوة تناقضية لرفع الحجاب وكشف البنية المخفية عادةً للجسد والعقل.

ومع ذلك، فإنّ مثل هذا الوصف للأمراض - لتقلّبات الشعور، كما هي مرتبطة بالحالات النفسية العصبية - هو نادرٌ للغاية ومعدومٌ تقريباً. كتب لي لوريا: "إنّ متلازمات كتلك هي شائعة ربما، ولكنها موصوفة على نحوٍ نادرٍ جداً".

وتابَع: "انشر مشاهداتك رجاءً. سيفعل هذا شيئاً لتغيير المقاربة 'البيطرية' للاضطّرابات المحيطية". كان واضحاً بالنسبة إليه أنّ المقاربة البيطرية المحضة لا يمكن أن تبدأ في فهم اضطّرابات كهذه، لأنّ "الاغتراب" أو "الشعور بأجنبية الطرف" لا يمكن أن يُصوَّر أو يُرى، ولكن يمكن فقط أن يُوصَف بواسطة من يختبره. ولكنّ علم الأعصاب هو إلى حدّ كبير عملٌ بيطري، لأنه يتعامل حصرياً تقريباً مع ما يمكن قياسه أو اختباره، وبالكاد مع التجربة الداخلية للمريض، وبنيته الداخلية، وذاتيته. هو يفتخر بتدبّر استثنائه لهذه الأمور، وبكونه علماً "موضوعياً" بالكامل، ومهتماً بالكامل (مثل الفيزياء) بكل ما هو عامّ، ومنظور، وقابل للتوضيح. هو يستثني الحالات العقلية، والشعور، لأنها "ذاتية" و"خاصة" ولا يمكن التحقّق منها (أو إثباتها) بالطريقة التقليدية. لا يُسمَح بمصطلحات "شخصية"

في علـــم الأعصاب، وعندما يُستخدم مصطلح "الشعور" فهو يشير فقـــط إلى إثارة معمّمة، يتمّ إضعافها في حالات الخدر أو الغيبوبة. ليس لدينا أي "علم أعصاب للهويّة".

ومع ذلك، لقد كان واضحاً دوماً بشكلٍ حدسي - والآن بشكلٍ رسمـــي - أننا لسنا بأي معنى آلات أو أناساً آليين، وأنّ كل التجربة، وكـــل الإدراك، هو ذاتي الإرجاع منذ البداية: أنّ ذاكرتنا لا تشبه أبداً ذاكـــرة الكمبيوتـــر، ولكنها عبارة عن تنظيمات وتصنيفات للتجربة الشخـــصية. وأنّ "المكان" و"الزمان" ليسا مكان وزمان الفيزياء، وإنما مكانـــنا وزماننا. وليس هناك تمثيل "للحيز" المجرّد في الدماغ، بل فقط "لحيّـــزنا الشخصي" الفردي الخاص (كما هو مبيّن بوضوح في ظاهرة "انطفاء نصف المكان"، تنصيف لنموذج **شخصي** للعالم). من الواضح أولاً وقـــبل كـــل شيء أنّ أجسامنا هي شخصية؛ وأنها المعرِّفة الأولى "للأنـــا" أو "النفس". ("الأنا هي أولاً وقبل كل شي "أنا الجسد"، كما يكتب فرويد). ولكن لا شيء من هذا قد دخل فعلياً علم الأعصاب. لا يزال علم الأعصاب يبني نفسه على أساس نموذج ميكانيكي، حتى في "أجهـــزة" علـــم الـــنفس العصبـــي للوريا وليونتف. يرجع النموذج الميكانيكـــي لـــديكارت، وتقسيمه الثنائي الجسد/الروح، وفكرته عن الجـــسد كآلة ذاتية الحركة، مع "أنا" عارفةٍ مُريدة تحوم فوقه بطريقة أو بأخرى.

ولكـــنّ التجربة السريرية والشخصية - تجربة مثل التي أرويها في هـــذا الكـــتاب - هـــي غير متوافقة كلياً مع ثنائية كهذه. تُظهر هذه التجربة إفلاس النموذج التقليدي، والحاجة إلى علم أعصاب شخصي، وإلى إدراك أنّ أعـــصابنا وأدمغتـــنا هي لنا منذ البداية، وأنها بإدراكاتها وتـــصنيفاتها وذكـــرياتها ونماذجهـــا، وبمستوياتها الظاهرة من المفهوم

والـــشعور، تستمر في كونها لنا، وفي كونها ذاتية الإرجاع بكل ما في الكلمة من معنى.

مـــن واجب علم الأعصاب الآن أن يقوم بقفزة عظيمة؛ أن يقفز من نموذج ميكانيكي، هو النموذج "التقليدي" الذي تبنّاه لفترة طويلة، إلى نمـــوذج الدماغ والعقل الشخصي والذاتي الإرجاع بالكامل. هناك دلائـــل كـــثيرة الآن على أنّ تحوُّلاً كهذا يمكن أن يحدث. وإذا حدث بالفعل، هذا ما يحب لإدلمان أن يقوله، فسيكون ذلك بمثابة الثورة الأهمّ في زمانـــنا؛ ثـــورة تعادل نهوض الفيزياء والتفكير الغاليلي قبل أربعمئة سنة.

«يدّعي الطبّ دوماً أن [illegible]طون محقّاً عندما قال إنه ليصبح المرء طبيباً حقيقياً، لا بدّ أن يكون قد اختبر جميع الأمراض التي يأمل أن يعالجها وجميع الحوادث والحالات التي سيشخّصها... سأثق برجلٍ كهذا، لأنّ البقية يرشدوننا مثل الشخص الذي يرسم البحار والصخور والموانىء وهو جالس إلى طاولته، ثم يقود سفينته هذه بأمانٍ تام. اقذِف به في المشهد الحقيقي وستجده لا يعرف أين يبدأ».

مونتيني، «مقالات 3.13»

«كتب ساكس كتاباً عن ساق ... ساقه هو، ولكنها قصة عن طبيعة الشخصية؛ رواية شبيهة برواية **المشارِك السرّي** لكونراد».

– **نقد نيويورك للكتب**

«إنّ فقدان القدرة على استعمال طرف هو كارثة تحتاج إلى مقالٍ مدروس يُكتَب بشأنها: هذا هو، وهو أكثر من ذلك. أوليفر ساكس هو طبيب أعصاب واسع الاطّلاع، رجلٌ ذو فصاحة إنسانية، وراوٍ حقيقي مدركٌ للصدع اللعين الموجود بين الطبيب والمريض. تكمن قيمة كتابه في استعداده للجمع بين الأمور التقنية والتخيُّلية، وإدخال الشعر والفلسفة والدافع الديني. إنه أيضاً كتابٌ شخصي للغاية، ولكنه يؤكّد تماثل التجربة الإنسانية».

– **أنتوني بيرغس، صحيفة الأوبزرفر**

«رواية تأمُّلية وغنية بشكلٍ مذهل من جميع النواحي. مرة أخرى، أوضح الدكتور ساكس بلهجة جازمة أنه لا يزال هناك الكثير لنتعلّمه من سجلّ حالةٍ مراقبة بعناية ومؤرّخة».

– **صنداي تلغراف**

«يستعرض الدكتور ساكس محنته بمصطلحات سريرية عاطفية فلسفية دقيقة. لم يصف أحدٌ من قبل تلك الحالة الشهيرة بهذا الشكل الجيد. تحفة كتابية لافتة، وسخيّة، ونابضة بالحياة، وذكية تماماً».

– **صنداي تايمز**

وُلِد **أوليفر ساكس** في لندن في العام 1933 وتعلّم في لندن، وأكسفورد، وكاليفورنيا، ونيويورك. يعيش ساكس في نيويورك حيث يعمل في كلية ألبرت آينشتاين للطبّ كبروفيسور سريري في علم الأعصاب. ألّف، بالإضافة إلى هذا الكتاب، «الشقيقة»، و«استفاقات»، و«الرجل الذي حسب زوجته قبّعة»، و«رؤية الأصوات»، و«إنثروبولوجيّ على المريخ»، و«جزيرة المصابين بعمى الألوان».

صدر للمؤلف أيضاً:







ISBN 978-9953-87-748-8



صورة الغلاف: Elena Siebert – تصميم الغلاف: سامح خلف